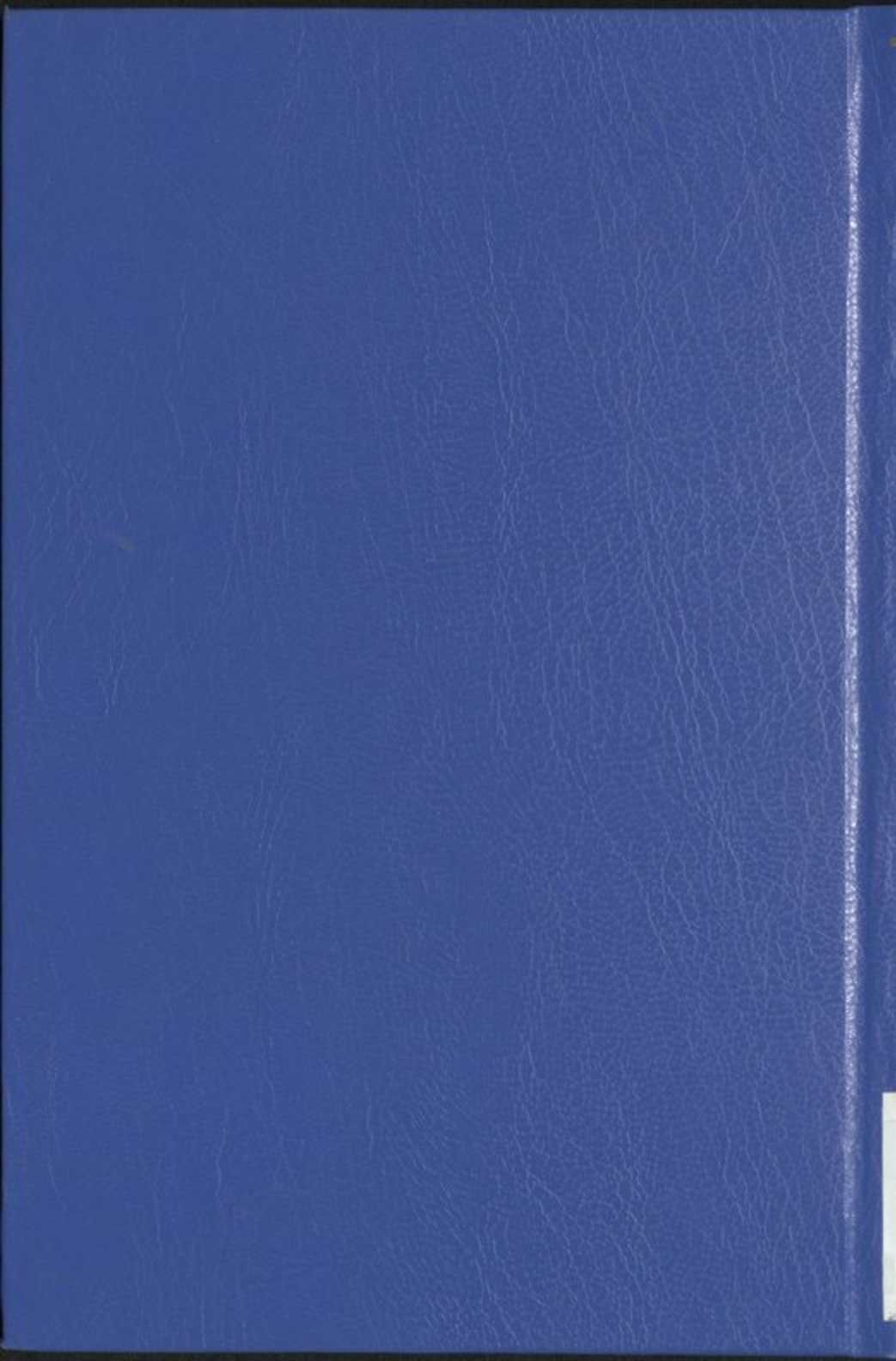
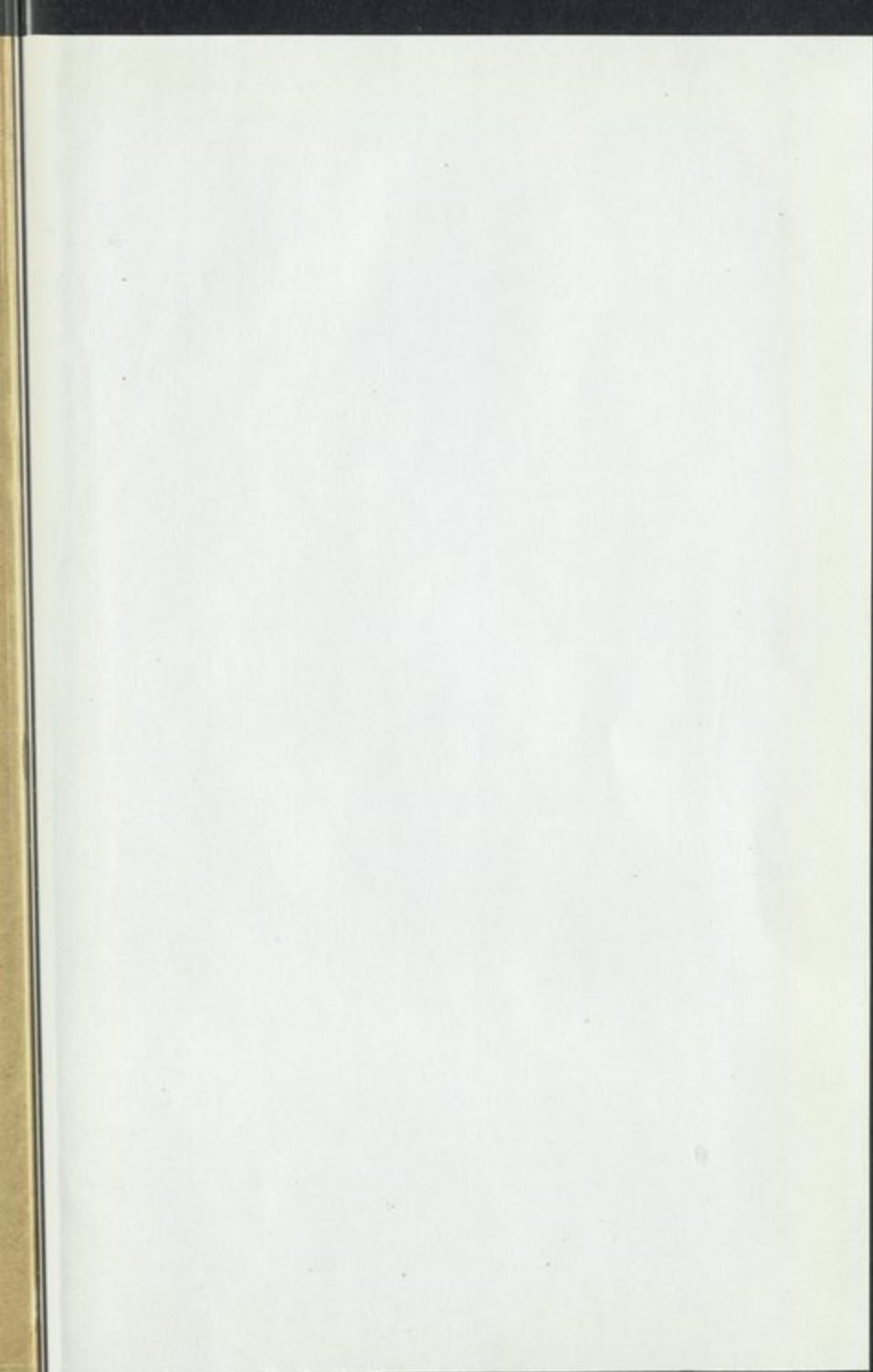




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



W.B. LEBLANC.



صو رة
دوران جہرای

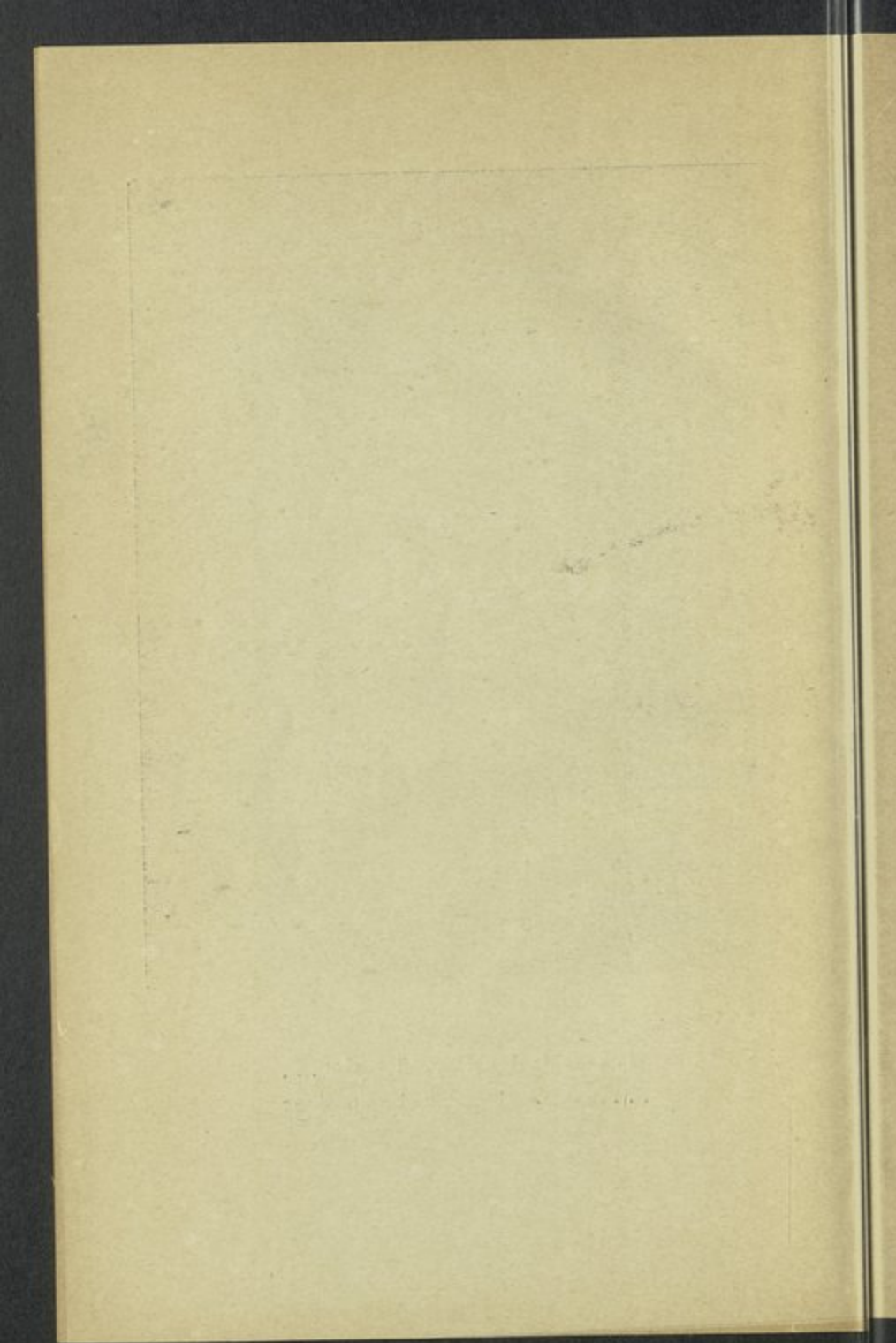
کتاب آخر لاوسکار وایلد
أصدرته دار الکاتب المصری

شبح کانتزفیل

تعريب لویس عوض

M. LITT. CANTAB.

طبعة مصورة





صفحة ٢٩٦

... ان تجعل الصورة تحمل اوزار حياته وان
تبقى له على شبابه الناصر إلى يوم يموت ...

اوسكار وايلد

S23

W679 pawt

حورية دورلين هراي

تعريب لويس عوض

ماجستير في الآداب من جامعة كامبريدج
مدرس الآداب الانجليزية بجامعة فؤاد الأول

طبعة مزينة بصور فوتوغرافية وبضع رسومات



دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . يناير ١٩٤٦

العنوان الأصلي للكتاب
بالإنجليزية

Oscar Wilde's
"THE
PICTURE
OF
DORIAN
GRAY"

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب المصري ١٩٤٦

فهرس الصور

*

تقابل
صفحة

- ... أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته وأن تبقى له على
شبابه الناصر إلى يوم يموت
العنوان
- ونظر اللورد إليه مليا . نعم . لا شك أنه كان آية في الجمال .
٤٨
- ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديقي لغاتني أجمل تجربة مرت بي
في حياتي
٦٤
- لقد ساءها أن اينها لم ينضم إلى المشهد ليتم ما له من طابع
مسرحي
٩٦
- ... فيها هي الصورة أمامه تحمل معاني القسوة
١١٢
- فلما أن وجد نفسه خلف هولورود أمسك بالمدية ودب إليه .
٢٠٨
- فقد رأى أمامه وجهاً اجتمعت فيه نضارة الصبا ومهارة
الشباب
٢٢٤
- وتبت في مكانه بضع دقائق متفرساً في الجنة
٢٧٢
- وعلى الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السمرة ... وكان
الرجل مغض الوجه يابس البدن كربة الملامح
٢٨٨



الصور التي يحتوي عليها هذا الكتاب
أقتبست من فيلم « صورة دوريان جراي »
إنتاج « مترو جولدين ماير »

المقدمة

*

الفنان صانع الأشياء الجميلة .

غاية الفن أن يكشف عن نفسه وأن يخفي شخصية الفنان .

النقاد من يترجم عن أثر الجمال في نفسه بلغة غير لغة الفنان ، أو يصوغ من إحساسه به مادة غير مادة الفن .

وإن أعلى أنواع النقد لا يختلف عن أخطائها في أنها جميعاً تراجع حياة النقاد على نحو ما .

ومن يقرءون معاني القبح في آيات الجمال هم السفهاء ، ولا عذر لمن ضل سواء السبيل .

أما من يقرءون معاني الجمال في آيات الجمال فهم الأصفياء : هم رجاء الإنسانية .

هم المختارون الذين لا يرون في الجمال إلا جمالا .

١ ليس بين الكتب كتب أخا قيمة وكتب منافمة للأخلاق . فالكتب إما جميلة التأليف وإما رديئة . تلك هي خلاصة القول .

ثورة القرن التاسع عشر على الأدب الواقعي هي ثورة كاليبان^(١) حين يرى وجهه في المرآة .

وثورة القرن التاسع عشر على الأدب الخيالي هي ثورة كاليبان حين « لا » يرى وجهه في المرآة .

الحياة الأخلاقية بعض مادة الفن . ولكن « أخلاقية » الفن تأتي من كمال التعبير رغم نقص أداة التعبير .

ما من فنان يريد إثبات نظرية ما : فالحقائق ذاتها يمكن إثباتها .

ما من فنان يتحيز لمدرسة في الأخلاق معينة . والتحيز الأخلاقي لازمة في الأسلوب لا تغتفر .

ما من فنان يشتكي السقم أبداً . فالفنان يستطيع التعبير عن كل شيء في الحياة .

(١) كاليبان في مسرحية « العاصفة » لشكسبير مخلوق شائه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، دائم السخط منط الرغبات ، فهو رمز الجسد ، استخدمه الساحر بروسبيرو لقضاء حاجاته اليومية . كذلك استخدم بروسبيرو كائناً آخر لطيفاً جميلاً ساء النفس شديد الميل إلى الحرية هو الطيف آريل ، وهو رمز للروح . ويقال إن كاليبان وآريل يرمزان إلى الشر والخير ، وكلاهما في قبضة الإنسان (المترجم) .

أداة الفن الفكر واللغة ومادة الفن الفضيلة والرذيلة .

أرقى الفنون من ناحية القلب الموسيقى ، وأرقى الفنون من ناحية الشعور التمثيل .

للفن ظاهر مكشوف ورمز خفي .

ومن يتجاوز الظاهر يجازف بكل شيء .

ومن يفهم الرمز يجازف بكل عزيز .

الفن ليس صورة الحياة ، بل صورة المستعرض لموكب الحياة .

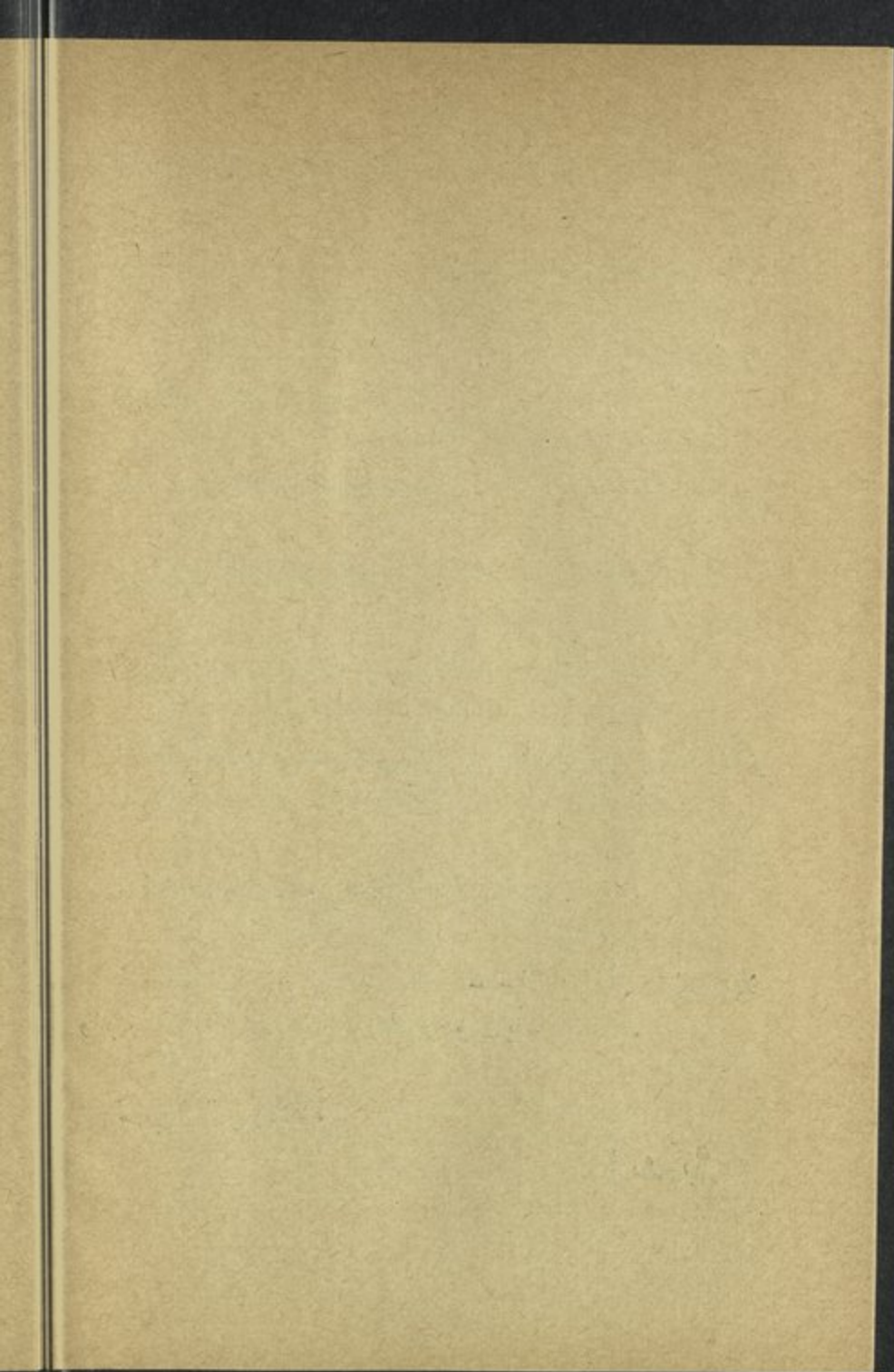
اختلاف الظنون في العمل الفني دليل على أن العمل جديد ومعقد وناقض بالحياة .

وكما اختلف النقاد أحس الفنان بأنه أدى واجبه .

في وسعنا أن نصفح عن صاحب الفن المفيد إذا أدرك أن فنه ليس جميلاً والمبرر الاوحد لوجود الفن غير المفيد هو ان يأسرنا بجماله .

لا نفع في الفن إطلاقاً .

أرسطو رابو



الفصل الأول

*

كان عبير الورود يملأ استديو الرسام . وحين هب نسيم الصيف بين أشجار الحديقة ، نفذ من الباب المفتوح عطر لعله عطر اليلج النفاذ أو عطر النسرين المنعش .

وفي ركن الأريكة المكسوة بالطنافس العجمية اتكأ اللورد هنرى وتون مدخناً كعادته بلا انقطاع . وكان من متكئه يلوح بريق الأزهار المنتشرة على شجرة النحل في صعوبة ، فتبدو له صفراء كالشهد حلوة كالشهد ، والشجرة تهتز أغصانها كأنها لا تقوى على حمل كل ذلك الجمال المكسب فوقها ، فيهتز معها الوهج الذهبي . وعلى الستائر الحريرية الخشنة ، الممتدة بطول النافذة العالية ، كانت ترتجى بين الفينة والفينة ظلال عجيبة هي ظلال طيور عابرة ، فتخلق في الغرفة جواً يابانياً لا يلبث أن ينجلي . ويستعرض اللورد هنرى في خياله رسامي طوكيو ذوي الوجوه الشاحبة فيذكر كيف يسعى أولئك الرسامون إلى التعبير عن معاني السرعة والحركة بفنهم التقليدي الجامد . كل ذلك والنحل يطن طنيناً مقبضاً وهو يتألم طريقه بين الحشائش التي لم تشذب ، أو يحوم في إلحاح حول كئوس اللبلاب الذهبية التي تسقت جذران الحديقة كأنها تبغى الفرار منها . فازداد السكون بطنينه وحشة وامتلاءً الجو ضيقاً . أما عجيج لندن فقد كان خافتاً مكظوماً كأنه صوت أرغن مكتوم بعيد .

وكان في وسط الغرفة حامل مستقيم ثبتت عليه صورة بالحجم الطبيعي لشاب لا حد لجماله ، وقد جلس أمامها الرسام نفسه ، بازيل هولوردر ، وأخذ

يتأملها على بعد قليل . - أجل . هذا هو بازيل هولوردي الذي أثار اختفاؤه الفجائي منذ بضعة سنوات فضول الخاص والعام وظن الناس في تأويل احتجابه أعجب الظنون .

وفيما كان الرسام يتأمل الصورة الساحرة التي أبدعتها ريشته في دقة ومهارة ، شاعت في محياه ابتسامة الرضا ، ثم استقرت الابتسامة على شفتيه . ولكنه نهض فجأة ووضع أصابعه على جفنيه كأنه يريد بذلك أن يحبس في مخيلته حلاًماً عجيماً خشي أن يزول .

قال اللورد هنري في تراخ :

- هذه أبداع صورة رسمتها يابازيل بلا جدال ، ولا بد أن ترسلها إلى معرض جرووثور في الموسم القادم . إن معرض الأكاديمية لا يليق لها فهو واسع ومبتذل ، وفي كل مرة دخلته وجدته مكتظاً بالزائرين مما حجب عني الصور ، أو مكتظاً بالصور مما شغلني عن رؤية الزائرين . لاشك في أن معرض الجرووثور هو أنسب معرض لك .

فأجاب بازيل وهو يرفع رأسه إلى الورا ب تلك الطريقة الغريبة التي كانت تضحك زملاءه منه أيام الطلب في أكسفورد :

- لست أظن أنني سأعرضها في مكان ما . بل هذا مؤكد ، فلن أعرضها في أي مكان .

ورفع اللورد هنري حاجبيه ونظر إليه عاجباً بين ذؤابات الدخان الأزرق الخفيف الذي تصاعد من سيجارته المخلوطة بالافيون في أشكال لولبية متداخلة جميلة ، ثم قال :

- أقول إنك لن تعرضها في أي مكان ؟ وكيف ذلك يا صديقي العزيز ؟ ما السبب ؟ ما أعجب أطواركم معشر الرسامين ! أنتم تقلبون الدنيا رأساً على عقب لكي تصيبيوا شيئاً من الشهرة ، فإن أصبتموها بدا أنكم زاهدون فيها . هذه غباوة منك يابازيل ، فهناك شيء واحد أسوأ من أن تكون

موضع حديث الناس ، وذلك ألا تكون موضع حديثهم . وهذه الصورة خليقة بأن ترفعك على شباب الفنانين في انجلترا وأن تملأ قلوب شيوخهم غيرة منك ، إن كانت للشيوخ قلوب .

أجاب الرسام :

— أعلم أنك ستسخر مني ، ولكنني في الواقع لا أستطيع عرضها لأنني وضعت فيها من نفسي أكثر مما ينبغي لرسام أن يضع في صورة .

وتمدد اللورد هنري على الأريكة واسترسل في ضحك طويل ، فقال الرسام :

— نعم ، هذا ما كنت أتوقعه منك ، ولكنني ما قلت إلا الحقيقة .

— أنت تقول إنك وضعت فيها من نفسك أكثر مما ينبغي ، وهذا

غرور منك عظيم . أقسم لك يا بازيل أني ما كنت أحسبك مخدوعا في نفسك

إلى هذا الحد . فانت ياذا الوجه الضخم الحشن والشعر الأسود الفاحم كيف

تشبه نفسك بهذا الفتى الذي يحاكي أدونيس جمالا ويبدو كتمثال مخروط من

عاج كسته أوراق الورد ؟ يا صديقي بازيل إن صاحبك هذا هو الإله نرسيس

قلبا وقالباً . أما أنت فلست أنكر أن لك مخايل المفكرين وما إلى ذلك

كله . ولكن الجمال الحقيقي يختفي حين تظهر مخايل الذكاء . والذكاء نفسه

إسراف من الطبيعة ، والإسراف يفسد التناسب في أي وجه . فالمرء إذا

ما بدأ يفكر تحول وجهه إلى جبهة كبيرة أو أنف كبير أو أي شيء من هذا

القبيل . استعرض سائر النابهين في أي مهنة من مهن الفكر تر صورهم نماذج

في البشاعة ليس لها مثيل . ولقد يستثنى من ذلك رجال الكنيسة ، ولكن

هذا طبيعي فرجال الكنيسة لا يفكرون ألبنة ؛ والأسقف يردد وهو في

الثمانين ما لئن أن يقوله وهو في الثامنة عشرة ، ولذلك تراه يحتفظ بجماله

إلى آخر يوم من أيام حياته . إن صديقك الشاب هذا الذي تبخل على باسمه

وتحيطه بهالة من الغموض قد سحرتني صورته . وأؤكد لك أن صديقك

هذا لا يفكر بتاتا . ياله من مخلوق جميل لا عقل له ! وما أخاذه بأن يقضى

معنا الشتاء ليغنيننا مرآة عن الزهور الغائبة ، وما أخلقه بأن يقضى معنا الصيف لنجد فيه ما يطفى ذكاءنا ! كلا يا بازيل . لا تخدع نفسك فما فيه منك شيء .

فأجاب الفنان قائلاً :

— لقد أسأت فهمي يا هاري ، فأنا أعلم أنني لا أشبهه ، ولست بحاجة إلى من يدلني على ذلك ، ولو قدر لي أن أكون مثله لساءني أن أكون . أراك تهز كتفيك استخفافاً ، ولكنني صادق في قولي . إن القدر يكيّد لأصحاب الذكاء النابغ والجمال النابغ ويتعقبهم كما يتعقب الملوك منذ فجر التاريخ بدون إشفاق . ولخير لنا أن نكون من طينة العامة ، فالأغبياء ودميمو الخلقه أسعد أهل الأرض طراً ، لأن في وسعهم أن يجلسوا في اطمئنان ويحملقوا كالبلهاء من أما كنهم في موكب الحياة الحافل . فإن فانهم النصر فقد كفوا مرارة الهزيمة . هم يعيشون كما ينبغي أن نعيش جميعاً ، يعيشون في صفاء ، لا يبالون بشيء ، آمنين مطمئنين ، لا يفسدون حياة أحد ولا يفسد أحد حياتهم . أما نحن فنندفع ثمن التفوق غالباً : أنت تدفع ثمن جاهك وحسبك ، وأنا أدفع ثمن ذكائي وفني ، أيا كان قدرهما ، ودوريان جرای يدفع ثمن جماله وشبابه . نعم يا هاري ، لسوف ندفع ثمن ما حبتنا به الآلهة من نعم ، وسوف نتعذب عذاباً أليماً .

فسار اللورد هنري نحو بازيل هو لوردد وسأله قائلاً :

— دوريان جرای ، أهذا اسمه ؟

— نعم ، هذا اسمه ، وما كان في نيتي أن أبوح لك به .

— ولم تريد إخفاءه عني ؟

— لست أعرف كيف أشرح لك الأمر . ولكنني إذا أحببت أحداً من

أعماق قلبي كتمت عن الناس اسمه ، لأن في إعلانه شيئاً من الخيانة . ولقد تعلمت الولع بالأمرار ، ويبدو لي أن الأمرار هي كل ما بقي لنا في هذا

العصر مما يملأ الحياة غرابة وغموضاً . فأتقه الأمور يثير فضولنا إن هو حجب عنا ، ولذلك تجبني لا أطلع أحداً على وجهتي كما غادرت لندن في هذه الأيام ، فإن فعلت فقدت كل شيء في رحاتي . أعتز لك بأنها عادة سيئة ولكنها تدخل على الحياة شيئاً من سحر الخيال . وأظنك تحسبني مخبولاً لكفى بالأسرار .

فأجابه اللورد هنرى قائلاً :

— كلا يا صديقي بازيل . ولعلك نسيت أني متزوج وأن المدة الوحيدة في الزواج هي أنه يجعل حياة الغش لازمة للطرفين . فأنا لا أعلم أين تذهب زوجتي وزوجتي لا تعلم شيئاً مما أفعل . ولقد نتقابل ، فنحن نلتقي فعلاً بين وقت وآخر حين تتعشى معاً خارج المنزل أو حين نذهب معاً لزيارة أبيها الدوق ، فإذا تقابلنا قص كل منا على الآخر أسخف الأكاذيب متكلفاً الجدل الكامل . وزوجتي قد برزت في هذا الفن ، بل هي أطول مني فيه باعاً ، فليس يبدو عليها أقل ارتباك عند ذكر النواحي كما يبدو علي دائماً . فإن تبيئت تناقض أقوالى لم تثر بتاتاً ، وباليتهاتور ، فهي تكفي بالضحك هازئة مني .

قال بازيل هو لوورد وهو يسير نحو الباب المؤدى إلى الحديقة :

— لست أحب أسلوبك هذا في الكلام عن حياتك الزوجية يا هارى . وأنا أعتقد أنك زوج فاضل ولكنك تخجل من فضائلك . عجباً لك يا رجل . ما سمعتك تقول كلمة طيبة وما رأيتك تفعل شيئاً شريراً . إن سخريتك بكل شيء إن هي إلا موقف تصطنعه اصطناعاً .

فعلق اللورد هنرى على هذا بقوله :

— إن أردت أن تبدو طبيعياً فلا بد لك من التكلف ، وأشق أنواع التكلف عندي هو التكلف الذى ألزمه لا يبدو طبيعياً .

وخرج الرجلان معاً إلى الحديقة ، وهناك جلسا على مقعد من الخيزران

طويل في ظل شجرة من أشجار الغار . وانصبت أشعة الشمس على الأوراق
الملساء وبين الحشائش اهترت الأفاقي البيضاء .

وبعد صمت قليل أخرج اللورد هنرى ساعته من جيبه وقال :

— يجب أن أنصرف الآن يا بازيل ، ولكن لا بد أن تجيئني قبل انصرافي

على سؤال طارحه عليك منذ هنيهة .

فأجاب الرسام مطرقاً :

— أى سؤال هذا ؟

— لا تتجاهل تجاهل العارف .

— لست أفهم ما تريد .

— إذافها هو السؤال للمرة الثانية : أريدك أن تفسر لي امتناعك عن

عرض صورة دوريان جرای . إلى بالسبب الحقيقي .

— لقد ذكرت لك السبب الحقيقي .

— كلا . إنما ذكرت أنك وضعت في الصورة من تصك أكثر مما ينبغي

وهذا تعليل صيغاني .

فنظر بازيل إلى اللورد هنرى نظرة ثابتة وقال :

— اصنع إلى يا هارى . إن كل صورة ترسم بإحساس قوى هي صورة

الفنان وليست صورة نموذج . فالنموذج شيء عارض لا أكثر ولا أقل ، أو

هو المناسبة فقط . والرسام لا يكشف عن شخصية نموذج في الصورة التي

يرسمها وإنما يكشف عن شخصيته هو . ولقد كشفت أنا في هذه الصورة عن

سرّ روحي ، ولهذا لن أستطيع لها عرضاً .

فضحك اللورد هنرى وسأله قائلاً :

— ترى ما يكون هذا السر ؟

— سأطلعك عليه .

فقال صاحبه وهو يتأمل ملياً :

— هات ما عندك ، فكلی آذان صاغية .

قال الرسام :

— ليس فی الامر تعقید كما تظن یا هاری ، وأخشى أن يتعذر عليك

فهم ما سأقول أو أن تشك فی صدق كلامی .

وابتسم اللورد هنرى ثم مال وقطف أفحوانة من بین الاعشاب أوراها وردية وأخذ يتفحصها ثم قال متأملاً قلبها الذهبي الصغير الذى نمت حوله تنف بیضاء :

— بل سأفهم كل ما تقول تماماً . أما عن الشك فأنا أصدق كل ما يقال

لی ما دام شيئاً غير معقول .

وهبت نفحة من النسیم فتساقطت بعض الازهار عن أشجارها ، وأخذت أزهار السوسن تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال فی الهواء الراكد كأنها جهرة من النجوم . وغنى جندب بحوار الحائط ، ثم مر بالحائط طيور طويل نحيل ذو أجنحة بنيه شفافة فبدأ كالخيط الأزرق . وخيل إلى اللورد هنرى أنه یسمع قلب بازيل هولوردي يخفق خفقاناً ، فعجب لحاله أشد العجب . قال الرسام أخيراً :

— إليك القصة یا هاری . منذ شهرين قصدت إلى دار الییدی براندون

لقضاء السهرة ، ولا يخفى عليك أننا ، معشر الفنانين المساكين ، مطالبون بالظهور فی المجتمعات بین وقت وآخر لنثبت للناس أننا لسنا قوماً متوحشين . وأنت القائل أن أى شخص يستطيع فی عصرنا أن يبدو رجلاً متحضراً إذا كان يملك زى السهرة أبيض ، حتى السمسار يستطيع أن يفعل ذلك . ولا أطيل عليك القول ، فقد مرت بی عشر دقائق قضيتها فی الصالون متنقلاً بین سيدات هرمات ضخام مثقلات بالملابس الفاخرة ، متحدثاً إلى فريق من أعضاء الأكاديمية التافهين الثقلاء . ثم تنهت فجأة على فتی یطيل التأمل فی ، واستدرت قليلاً فرأيت دوريان جرای ، رأيتة للمرة الأولى . وعندما تالقت

نظر اتنا أحسست بالدم يفيض من وجهي ، وتملكني فزع عجيب ، وأيقنت
أني أمام إنسان ذي شخصية ساحرة مدمرة ، فلو أني تركت الأمور تجري
بحرأها العادي لاستغرقت روحه روحي ولأفنت نفسه نفسي وسيطر على فني
ومواهي . ولم أكن وقتئذ لأرضي بأي تأثير خارجي يتحكم في حياتي ، وقد
كنت دائماً سيد نفسي وأنت تعرف نزعتي الاستقلالية يا هاري ، فعزمت
على تجاهله . ثم هتف بي هاتف لا أعرف مصدره يقول إن حياتي تحتاز أزمة
هائلة وأحسست بأن القدر يخبي لي أفرأحاً لا حد لها وأترأحاً لا حد لها ،
فجزعت أشد الجزع وهممت بالأل أنصرف جيناً وإشفافاً لا يوازع من ضميري ،
فلا فضل لي في ذلك .

— الجبن والضمير إسمان لمداول واحد يا بازيل . وكل ما هنالك أن
الضمير هو الاسم الرسمي ، الماركة المسجلة على حد قولهم .

— أنا أخالفك في هذا يا هاري ، ولا أخالك تعتقد فيما تقول . ولعل
الدافع كان الكبرياء ، فلقد كنت فيما مضى شديد الكبرياء . ولكن أيا كان
الدافع فقد رأيتني أفتحم الباب ، وعند الباب اصطدمت طبعاً بالليدي براندون
فصاحت بي قائلة : « لن أسمح لك بالأل أنصرف بهذه السرعة يا مستر هولوردر »
وأنت بلا شك تعرف نبرتها الحادة الشاذة .

قال اللورد الشاب وهو يمزق زهرة الأولو بأنامله العصبية ورقة ورقة :

— نعم ، فهي تشبه الطاووس في كل شيء سوى الجمال .

— وهكذا لم أستطع التخلص منها ، فقدمتني إلى بعض أفراد الأسرة
المالكة ، وإلى أشخاص زينت أكتافهم النجوم واختالوا تيهاً بوسام ربطة
الساق ، وإلى سيدات عجائز على رؤوسهن تيجان عالية مدببات الأنوف
لا يختلفن كثيراً عن البغاوات . وسمعتها تتحدث إلى هؤلاء عني كأنني
صديق من أعز أصدقائها ورأيتها تمنعني في التعظيم من شأنني رغم أنني لم أرها
قبل ذلك إلا مرة واحدة . ولعل السبب في ذلك صورة من صورى أصابت

وقتئذ، نجاحاً عظيماً وأطنبت في تقرّيظها الصحف اليومية ، وأنت تعلم أن الصحف اليومية هي عند أهل القرن التاسع عشر سجل الخلود : وخفاة وجدتي مرة أخرى أمام الشاب الذي اضطربت نفسي لمراه كل هذا الاضطراب . واقترب كل منا من الآخر حتى كدنا أن نلتصق ، والتقت نظراتنا ثانية ، فلم يسعني إلا أن أطلب إلى الليدي براندون أن تتولى تقديمنا ، ولو لم تفعل لتبادلنا الحديث دون تعريف سابق . ومن هذا ترى أن موقعي لم ينطو على الجراءة كما تصورت أنا في تلك اللحظة ، لأن الظروف ألزمتني به إلزاماً . وقد قال لي دوريان فيما بعد إنه أحس إحساسي ، وزعم أن المقادير هي التي دبرت لنا هذا التعارف .

فسأله صاحبه قائلاً :

— وماذا قالت الليدي براندون عن هذا الشاب العجيب ؟ إنها مولعة بذكر لحظة خاطفة عن ضيوفها كلما قدمت أحدهم إلى الآخر . وأذكر أنها قدمتني مرة إلى نبيل من النبلاء أحمر الوجه نافر الطبع غطت صدره الأوسمة والنياشين ، وبعد أن قدمتني إليه همست في أذني بابهجة مؤثرة تفصيلات مدهشة سمعها ولا شك كل من بالقاعة . فأكثرت الانسحاب لأنني أحب أن أستكشف الناس بنفسي . ولكن الليدي براندون تعامل مدعويها كما يعامل الخبير المشمن السلع المعروضة في المزاد : فهي تارة تشرح لك كل ما يتعلق بهم حتى ترهد فيهم ، وتارة تذكر لك كل شيء إلا ما تهتك معرفته .

قال هولورود بغير اهتمام :

— مسكينة الليدي براندون ، ما أقسى حكمك عليها يا هاري .

— يا صديقي العزيز ، إنها حاولت أن تنشئ صالوناً ففتحت مطعماً ، فمن أين يأتي إعجابي بها ؟ ولكن ماذا زوت لك عن دوريان جرای ؟

— أشياء من قبيل : « ياله من فتى ساحر ! لقد كنا أنا وأمه المسكينة متلازمين أبداً . ولست أذكر الآن ما عمله ، ولكنني أعتقد أنه بلا عمل

نعم ، لقد تذكرت أنه يتقن البيانو . . . أم تراه يتقن السكمان ؟ أهى السكمان يامستر جرای ؟ » فلم نستطع أن نكتم الضحك ، وفى الحال زالت الحواجز بيننا . قال اللورد الشاب وهو يقطف زهرة أخرى من أزهار اللؤلؤ :
— ليس الضحك بداية سيئة للصدقة بحال من الأحوال ، وأعتقد أنه أحسن نهاية لها كذلك .

فهز هو لورد رأسه ثم قال :

— أنت لا تفهم معنى الصداقة ياهارى ، بل لا تفهم معنى العداوة كذلك . أنت تستلطف كل الناس ، ومعنى ذلك أنك لا تبالى بأحد . فقال اللورد هنرى وقد دفع بقبعته إلى الوراى ونظر إلى السحب الخفيفة المتناثرة وهى تسبح فى سماء الصيف الفيروزية كالخيوط الحريرية المغزولة البيضاء :

— ما أظلمك يا بازيل ! نعم ، أنت تسرف فى ظلمى ، فأنا أفرق تماماً بين أنواع الناس : فأختار أصدقائى لظلمهم وزملائى لكرم أخلاقهم وأعدائى لذلكهم . ولا بد من الحذر الشديد فى اختيار الأعداء ، ولن تجد بين أعدائى عدواً غيباً واحداً ، فهم جميعاً من أهل الذكاء ، ولذا تراهم يقدروننى حق قدرى . فهل هذا من مظاهر الغرور يا بازيل ؟

— بالتأكيد ياهارى . ولكن إذا رجعت إلى تصنيفك للناس دخلت أنا فى قائمة الزملاء .

— أنت يا صديقى بازيل أقرب عندى كثيراً من مجرد زميل .

— وأبعد كثيراً من صديقى . أنا عندك فى مرتبة الأخ كما أعتقد .

— لا تذكرنى بالأخوة فأنا لا أحبهم إطلاقاً . فأخى البكر لا يريد أن

يموت ، وإخوتى الصغار أراهم دائماً مشرفين على الموت .

حسب هو لورد وزجره قائلاً :

— لا تقل مثل هذا الكلام ياهارى !

— أنا لا أعنى ما أقول بالحرف الواحد يا صديقي ، ولكنني أكره أقاربى بالرغم منى . ولعل السبب فى ذلك هو أن الإنسان يسوءه أن يرى غيره يشاركه عيوبه . وأنا أعطف من كل قلبى على السكره التى تبديه الديمقراطية الانجليزية لما تسميه مساوىء الطبقة الراقية . فعمامة الشعب تشعر بأن العريضة والغباوة والانحلال الخلقى امتيازات خاصة بها ، وإذا اتصف أحدنا بنقيصة من هذه النقائص بدا أنه اعتدى على اختصاصات تلك الطبقة . فعندما تقدم سدوك المسكين إلى محكمة الطلاق غضبت العامة غضبة كبرى ، ومع ذلك فأنا أعتقد أن أصحاب الأخلاق الفاضلة بين أبناء الشعب لا يتجاوزون عشرة فى المائة .

— لست أصدق كلمة واحدة مما تقول ، ويخيل إلى ياهارى أنك لا تقول ما تعتقد .

فأخذ الورد هنرى يداعب لحيته المدببة السمراء ويضرب خذاه الرقيق بعصاه الأبنوسية المحلاة بالأزرار ، ثم قال :

— يالك من إنجليزي صميم ! فهذه هى المرة الثانية التى تبدى فيها هذه الملاحظة ، وإن مجرد عرض فكرة من الأفكار على الإنجليزي صميم لضرب من الحماقة . إعرض فكرة ما على الإنجليزي صميم تجده أنه لا يحاول أن يزن صدقها أو خطأها ، فكل ما يهيمه منها هو مدى إيمان صاحب الفكرة بفكرته . أما أنا فأرى أن جمال الفكرة لا صلة له بأخلاص صاحبها . والواقع أنه كلما قل إيمان الإنسان بفكرته كانت أقرب إلى الصحة بوجه عام ، لأنها تتجرد فى هذه الحالة من ميوله الشخصية وأحكامه الموروثة وحاجاته فى الحياة . ولكنى لا أرغب الآن فى أن أجادل فى الشؤون السياسية أو الاجتماعية أو المية فيزيقية وإلا خسرت صداقتك ، والأشخاص أفضل عندى من المبادئ ، والأشخاص الذين تجردوا من المبادئ أفضل عندى من كل شئ ، فى الحياة . ولنعد إلى دوريان جراى . هل يتردد عليك كثيراً ؟

— كل يوم ، ويشقيني أن يمر يوم دون أن أراه ، فهو ضرورة من ضرورات حياتي .

— هذا غريب فقد حسبتك لا تهتم بشيء سوى فنك .
فأجاب الرسام بلهجة جادة :

— إن دوريان جرای قد أصبح كل فني الآن . ويخيل إليّ أحياناً ياهاى أن تاريخ العالم ليس فيه إلا عصران لهما بعض الأهمية : فالعصر الأول هو العصر الذى ظهرت فيه أداة جديدة للتعبير الفنى ، والعصر الثانى هو العصر الذى ظهرت فيه شخصية جديدة أصبحت موضوعاً للفن . فاختراع الرسم بالزيت كان له من الأهمية عند أهل البندقية ما كان لوجه انتينوس فى الفن اليونانى القديم . ودوريان جرای سيحدث فى فنى ثورة لا تقل خطراً عن هذين الانقلابين . وما ذلك لأنى أصوره أو أرسمه أو أقبل على اللوحة خطوطه وقسماته فقد ألقت ريشتى ذلك ، ولكن لأنى لا أنظر إليه نظري إلى نموذج غسب . ولست أقصد أنى غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى الصور التى نقلتها عنه ، أو أن جماله يستعصى على الفن ، فالفن لا يستعصى عليه شيء . وأنا أعرف أن إنتاجي قد تقدم منذ أن عرفت دوريان جرای ، بل دخل عليه إتقان لم يكن من خصائصي أولاً . ولست أدري إن كنت تفهم معنى هذا الكلام أم لا ، ولكن شخصيته قد ألهمتني أسلوباً فى الفن جديداً لا أعلم كيف جاءنى . فأصبحت أرى الأشياء وأفكر فيها بطريقة مختلفة عن طريقي الأولى ، بل أصبحت أستطيع أن أصوغ الحياة كلها صوغاً جديداً على نسق لم آلفه من قبل . أتذكر من القائل : « أيامي تأمل ولكني أحلم بالجمال » ؟ لقد نسيت الآن ، ولكن هذا مقام دوريان جرای عندي . ولقد جاوز العشرين ربيعاً ولكنه ما زال فى نظري صبيّاً غض الإهاب . ليتك تفهم معنى هذا الكلام ياهاى ! إن رؤية هذا الصبي حين يخطر أمامي تلهمني دون وعي منى بأسس مذهب جديد ، وأحس بهذه الأسس إحساساً واضحاً

فتلهمنى بأسلوب جديد اجتمع فيه خيال المدرسة الرومانسية وسمو الروح اليونانى ، أسلوب يقوم على انسجام الروح والجسد ! فياله من حلم جميل ! هانحن بحماقتنا قد فصلنا الروح عن الجسد ، واستحدثنا منهما فناً مثالياً خاوياً من كل مغزى وفناً واقعياً مبتذلاً . فياليتك تعرف موقع دوريان جرای عندى يا هارى ! أنت لاشك تذكر ذلك المنظر الطبيعى الذى رفضت أن أنزل عنه لأنيو رغم عروضه السخية ، فهو من أبدع ما رسمت . أو تعرف لم ضننت به عليه ؟ لأن دوريان جرای كان يجلس إلى جوارى ساعة أن رسمته فطاف بى وحى منه لطيف خرج من شخصيته فغمرنى ، فكشفت للمرة الأولى فى حى حياتى عن ذلك السحر الذى كنت أنشده دون أن أدرك معناه ، وعبرت عن كل ذلك فى اللوحة .

— يا للعجب ! لا بد أن أرى دوريان جرای يا بازيل .

ونفض هو لورود من المقعد واخذ يسير فى الحديقة جيئةً وذهوباً ، وبعد برهة عاد إلى مكانه وقال :

— إن دوريان جرای عندى محض دافع يدفعنى إلى الخلق الفنى يا هارى ، فلن تر فيه شيئاً عجباً ، أما أنا فأرى فيه كل شىء ، وإذا ما غاب عنى ظهر فى فنى أكثر منه وهو قريب . فهو كما ذكرت لك ملهى بأسلوب جديد ، وأنا أعثر عليه فى بعض الخطوط الدقيقة وأعثر عليه فى بعض الألوان الخلوة هذا كل ما فى الأمر .

فسأله اللورد هنرى قائلاً :

— إذا كان الأمر كذلك فلم تمتنع عن عرض صورته ؟

— لأننى وضعت فيها دون قصد منى ما يعبر عن هذه الوثنية الفنية الشاذة ، وهو لا يعرف عنها شيئاً بطبيعة الحال . هو لا يعرف عنها شيئاً ولن يعرف عنها شيئاً ، ولكن الناس قد يفتنون إليها ، ولست أحب أن تقف روحى عارية أمام أنظار المتطفلين الأغبياء . كلا يا هارى لن أضع قلبى تحت

أنظار السوق ليقراءوا أسرارها ، فلقد وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي . أجل ، يا هاري ، أكثر مما ينبغي .

— أرى الشعراء أقل منك وسوسة ، فهم يعرفون فائدة العاطفة في سوق النشر . وفي عصرنا هذا نجد أن القلب الممزق يعاد طبعه مراراً وتكراراً . فقال هولوردد .

— وهذا ما يثير حفيظتي على الشعراء . فواجب الفنان أن يصنع الأشياء الجميلة ، ولكن حرام عليه أن يودع فيها شيئاً من نفسه . ففي هذا العصر ينظر الناس إلى الفن نظرهم إلى المذكرات التي يدونها الكتاب عن حياتهم الشخصية . نعم ، لقد فقدنا القدرة على فهم الجمال المجرد ، ولسوف أكتشف للعالم يوماً ما عن سر هذا الجمال المجرد . ولهذا السبب عينه لن يرى العالم الصورة التي رسمتها لدوريان جرای مهما كلفني ذلك .

— أعتقد أنك مخطيء يا بازيل ، ولكنني لن أجادل في رأيك ، فأجدل هوية السفهاء . قل لي : أيحبك دوريان جرای ؟

ظل الرسام يفكر لحظات ثم أجاب :

— أجل يحبني . أعرف أنه يحبني ، والأمر مفهوم لأنني أخلق ، وتملكني لذة عجيبة عندما أقول له أشياء أعرف أنني سأندم على قولها . وهو في العادة شديد التلطف معي ، فنحن نقضي الوقت الطويل في الاستديو وتحدث في ألف موضوع وموضوع . ومن وقت إلى آخر ينتابه طيش بغيض فأراه يجد متعة حقيقية في الإساءة إلي ، وعندئذ أشعرياهاري بأنني قد أسامت روجي إلى مخلوق ينظر إليه نظره إلى زهرة توضع في عروة سترته ويرى في فني مجرد حلقة ترضى غروره أو زينة تكمل جمال اليوم الصائف الصبوح .

قال اللورد هنري :

— إن أيام الصيف طويلة ، وربما سئمت منه قبل أن يسأم منك ،

ولا جدال في أن العبقرية أطول أجلا من الجمال وهذه أرفع مأساة في حياتنا الإنسانية . ولذا ترانا نتكالب على تثقيف أنفسنا وفي تنازعنا الوحشي للبقاء نبحث عن ذخيرة باقية . ولذا ترانا نحشو أدمغتنا بالحقائق والثرهات على السواء كيلا نفقد أمكنتنا في الحياة ، وهي غاية سخيصة . إن المثل الأعلى في عصرنا هو الرجل الذي يعرف كل شيء ، وجمجمة الرجل الذي يعرف كل شيء صندوق مزعج ، بل هي حانوت من حوانت العاديات اكتظ بالوحوش الأثرية وأكداش التراب ، ولن تجد فيه ساعة لم يبالغ في تقدير ثمنها . ما زلت أظن يا بازيل أنك ستسأم منه قبل أن يسأم هو منك . وسوف يأتي يوم تنظر فيه إلى صاحبك هذا فتبين أنه قد صار نموذجاً عتيقاً لا يصلح للرسم أو يضايقك توزيع الألوان فيه ، أو أي شيء من هذا القبيل ، وعندئذ تقسو في حكمك عليك وتظامه في قرارة نفسك وتحس إحساساً عميقاً بأنه قد غدر بك ، فتنتفيء حرارتك تماماً وتصبح كبركان خامد ، وهذا شيء يؤسف له لأنك ستبديل من حال إلى حال . وإن القصة العتيقة التي رويتها عليك هي قصة الفن إن صح هذا التعبير . وأقطع ما في الخيال أنك تستفيق منه على الحقيقة المرة .

— كفناك ما قلته يا هاري ، فسوف تظل شخصية دوريان جرای مسيطرة على ما دمت حياً . ولن يتاح لمثلك أن يتقدر إحساسى لأنك متقلب الطبع .

— بل إن طبعى المتقلب هذا يا صديق بازيل هو ما يجعلني أقدر إحساسك ، فالخالصون لا يعرفون من الحب إلا جانبه التافه ، أما المتقلبون فيذوقون غلقه .

ثم أشعل اللورد هنرى عود نقاب بحمكة في علبة فضية جميلة وأخذ يدخن سيجاره هادئ البال راضياً عن نفسه وكأنه خلص فلسفة الحياة في جملة واحدة . واحتك بالبلابل القائم الخصرة سرب من الشجارير فسمع له حفيف ،

وزقزت العصافير ، وأنشأت ظلال الغيوم يطارد أحدها الآخر فوق الحشائش كأنها تتسابق في الحديقة . والحديقة ! ما كان أجمل الحديقة ! كذلك بدت له عواطف الناس جميلة . أجل . فتنته عواطف الناس أكثر مما فتنته أفكارهم . ويبحث عن سحر الحياة ومصدره فوجد أنه ينبثق من روح الإنسان ومن عواطف أحبائه . ثم أخذ اللورد هنرى يتخيل الغداء الممل الذي فاتته في بيت عمته بقمصائه كل هذا الوقت مع بازيل هولورود فاعتبطت نفسه ، فلو قد ذهب إلى بيت عمته لوجد عندها اللورد جودبودى لا محالة ، ولدار الحديث كله حول الفقراء وإطعامهم ، وحول ضرورة البدء في بناء البيوت النموذجية . أجل لو أنه ذهب إلى بيت عمته لسمع الأغنياء يتحدثون في مزايا الاقتصاد ولسمع الكسالى يتحدثون في شرف العمل ببلاغة قصوى . فما أسعده بتجنب هذا الجو الخانق ! وفيما هو يفكر في عمته جال برأسه خاطر فقال :

— لقد تذكرت الآن يا بازيل .

— وما ذا تذكرت يا هارى ؟

— تذكرت المكان الذى سمعت فيه اسم دوريان جرای .

فعبس الرسام قليلاً وقال :

— وأين كان ذلك ؟

— لا تعبس يا بازيل كأن فى الأمر شراً . لقد سمعت اسم دوريان جرای

فى بيت عمتى اللىدى أجاثا . وقد قالت لى عمتى إنها عثرت على شاب يساعدها فى أعمالها الخيرية التى تقوم بها فى حى الايست إند ، واسم هذا الشاب دوريان جرای . ويحذر بى أن أقول إنها لم تتحدث قط عن جمال هذا الفتى ، وهذا طبيعى ، فالتساؤل لا يتذوقن الجمال ، أو على الأقل الصالحات منه . لا يتذوقنه . وقد وصفته لى بأنه شاب جاد خيّر النفس ، فتخيلته رجلاً يلبس نظارة خفيف الشعر ضخمة القدمين شوهدت وجهه آثار الجدرى . فليتنى كنت أعرف أنه صديقك الملهم هذا .

— لو أنك عرفت لساءنى ذلك يا هارى .

— ما السبب ؟

— لأننى لا أحب أن تلتقى به ؟

— أنت لا تحب أن ألتقى به ؟

— نعم .

وخرج كبير الخدم إلى الخديقة وقال :

— إن مستر دوريان جرای فى الاستديو يا سيدى .

فضحك اللورد هنرى وقال :

— لا بد أن تقدمنى إليه الآن يا بازيل .

والتفت الرسام إلى الخادم فرأى عينيه تحتاجان فى ضوء الشمس . قال :

— سل مستر جرای أن ينتظرنى يا باركر ، فلن أتأخر طويلا .

فالتحنى الرجل وانصرف . ثم نظر الرسام إلى اللورد هنرى وقال :

— اسمع يا هارى . إن دوريان جرای أعز صديق لى ، وهو ساذج

النفس مطبوع على الخير ، وقد أصابت عميتك تماماً فيما قالتة عنه ، فلا تقسده

ولا تحاول أن تؤثر فيه ، فتأثيرك فى الناس سىء . إن العالم أمامك رحيب

وبه آلاف من الناس يستحقون اهتمامك ، فلا تحرمنى من هذا الصديق

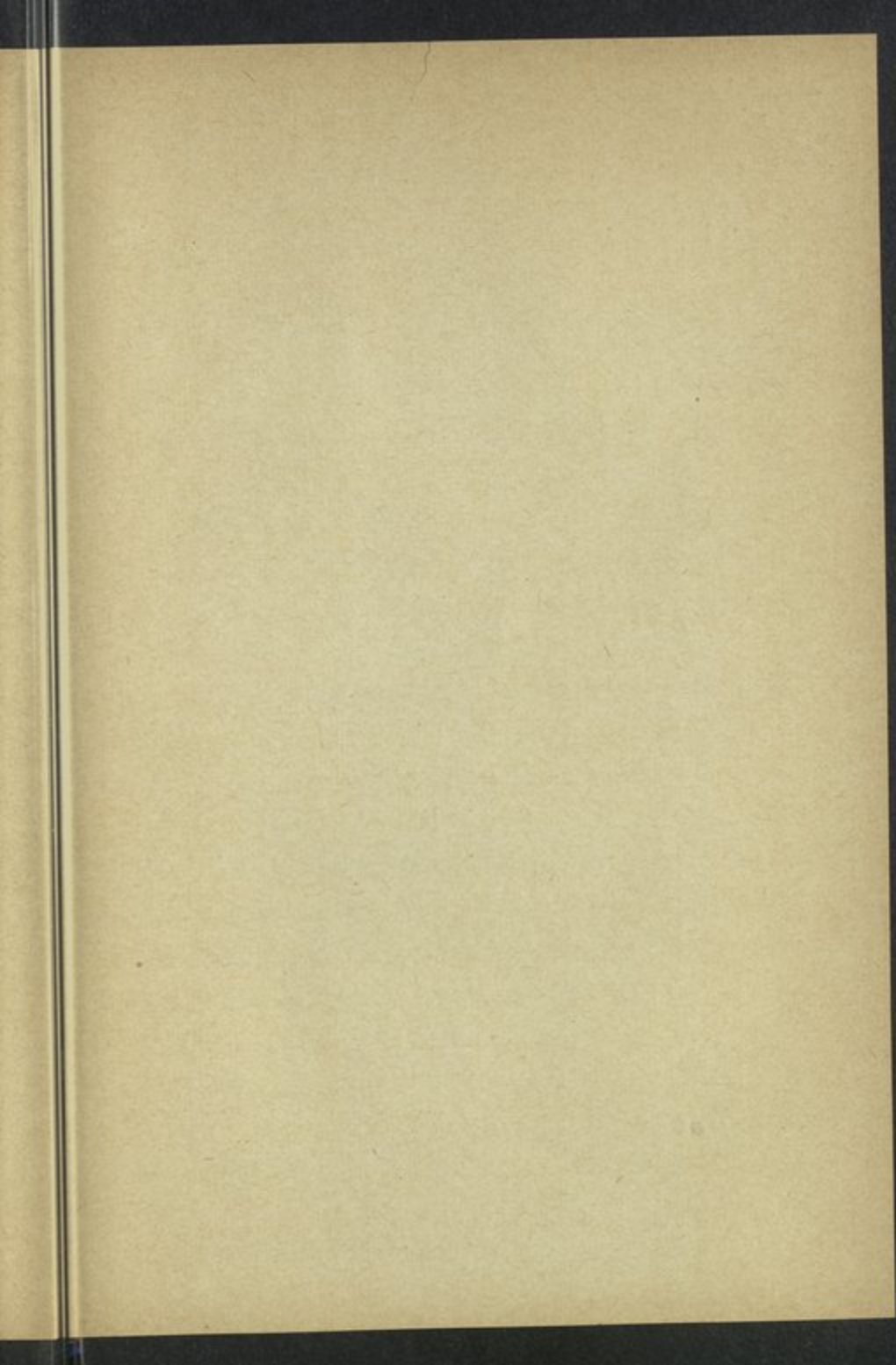
الواحد الذى استوحى منه فنى ، واعلم أن مستقبل كفنك متوقف عليه دون

سواه . فتذكر يا هارى أنى أثق بك .

وكان هولورود يتكلم مكرهاً ويبطء شديد كأن كل كلمة تخرج من فمه

تعصر فؤاده عصراً . فاحتج اللورد هنرى على كلامه وهو يبتسم ، وتباطئ

ذراعه ونسى به إلى البيت كأنه يحجره جرأ .



الفصل الثاني

*

رأى الرجلان دوريان جراى حين دخلا الاستديو ، وكان جالسا أمام البيانو يقلب صحائف كراسة من « مناظر الغابة » للموسيقى شومان فلم يشاهدا وجهه . قال :

— ما أجهل هذه الصحائف يا بازيل ! أحب أن أدرس هذه الكراسة ، فهل تعيرنى إياها ؟

— نعم يا دوريان ، سأعيرك إياها إذا أحسنت الجلوس أمامى فلم تتحرك كثيراً أثناء قيامى برسمك .

فدار الفتى على مقعد البيانو فى ثبات وأجابه متحدياً :

— لقد سئمت الجلوس ، وما أنا براغب فى صورة بالحجم الطبيعى . ثم وقع بصره على اللورد هنرى فارتبك قليلا واحمرت وجنتاه لحظة ونهض قائلاً :

— عفواً يا بازيل فقد كنت أظننا على انفراد .

— هذا يا دوريان هو اللورد هنرى وتون ، صديق منذ أيام الطاب فى أكسفورد . وقد كنت منذ دقيقة واحدة أصفك له بانك خير من جاس أمام رسام ، وها أنت قد أفسدت كل شيء .

فتقدم اللورد هنرى إلى الشاب باسطاً يده وقال :

— بل لا زلت سعيداً بلقائك يا مستر جراى . إن عمى تحدثنى عنك كثيراً ، فأنت أحد أصفياها ، بل أخشى أن أقول إنك أحد ضحاياها كذلك . وبدا على وجه دوريان جراى أسف ليس من طبعه وأجاب قائلاً :

— أنا في قائمتها السوداء في الوقت الحاضر ، فقد وعدت عميتك الاليدى أجاثا بأن أخرج معها إلى ناد بحى هوايت تشايل ولكنى نسيت تماماً . وقد كان الغرض من هذه الرحلة أن نشترك في عزف بعض المقطوعات الموسيقية . أما وقد أخلفت وعدى فلن أجد الشجاعة لزيارتها بعد الآن .

— سأصلح أنا بينكما ، ولن أجد صعوبة في ذلك ، فهي تحبك حباً جماً ، ولست أظن أن تخلفك قد أفسد شيئاً ، فعمتى أجاثا حين تعزف على البيانو تحدث ضجة كبرى ، ولا يبعد أن سامعها حسبوا أن هناك عازفين لا عازفاً واحداً .

فقال دوريان ضاحكاً :

— هذه قسوة عليها وإهانة لى .

ونظر اللورد إليه ملياً . نعم . لاشك أنه كان آية في الجمال . فشفثاه الحراوان من خلق فنان دقيق ، وعينه الزرقاوان الصافيتان وشعره الذهبى المتموج من خلق فنان سخى . وقد اجتمع له من صراحة الشباب منتهاها ومن طهارته أصفاهها ومن حرارته أقواها ، فلا عجب أن مرآه كان يوحى بالثقة فى القلوب لحظة أن تقع عليه العيون ، كأنه مخلوق نقى صان نفسه عن دنس الدنيا . وزال عجب اللورد هنرى . من تفانى بازيل هولوردد فى الولاء له . وأخيراً قال :

— إنما يتم بأمور الإحسان الثقلاء ، وأنت يامستر جرای شاب لطيف ، بل أنت مثال اللطف .

وبعد أن فرغ من كلماته ارتدى على الأريكة وأخرج سيجارة من عابته . أما الرسام فقد كان مشتغلاً بخلط ألوانه وإعداد أدواته . وكان القلق يبدو عليه ، فلما أن سمع عبارة اللورد هنرى الأخيرة التفت إليه وقال بعد تردد قليل : — لا بد أن أفرغ اليوم من رسم هذه الصورة يا هارى ، وأرجو ألا تحسبنى فظلاً إذا طلبت إليك أن تتركنا .

فابتسم اللورد هنرى ورمى دوريان جرای بنظرة ذات مغزى وقال :
— أنصرف يا مستر جرای .

— بل أرجو أن تبقى معنا ، فبازيل اليوم منقبض النفس وأنا لا أحتمله حين يكون منقبض النفس . فضلا عن ذلك فأنا أحب أن تشرح لى ما قلته من أن الاهتمام بالأعمال الخيرية لا يناسبنى .

— لا أظن أنى سأحدثك عن الجمعيات الخيرية فهو موضوع جدى ممل ، ولكنى مع ذلك سأبقى معكما ما دمت قد طلبت منى ذلك . وأرجو يا بازيل ألا يكون فى بقائى مضايقة كبيرة لك . ألم تقل مرارا إنك تحب أن يجرد من رسمهم جلساً يدفع عنهم الملل ؟

فعض هولورود شففته وأجاب قائلا :

— إذا كان دوريان يحب أن تبقى معنا فلـ * يسعك إلا اللقاء لطبيعة الحال ، فرغبات دوريان أوامر لا تعصى عند جميع الناس ما خلا نفسه .
ولكن اللورد هنرى تناول قبعته وقفازه وقال :

— أشكرك على إلحاحك علىّ فى البقاء يا بازيل ، ولكن لا بد لى من الانصراف ، فأنا على موعد فى نادى أوليانز . الوداع يا مستر جرای ، واعلم أنه يسرنى أن تزورنى فى شارع كيرزون فى عصر يوم من الأيام ، فانا موجود دائما فى بيتى حول الساعة الخامسة إلا فى الأحوال النادرة . أكتب لى بموعد زيارتك ، وتذكر أنى سأحزن كثيرا إن لم أرك ثانية .

فصاح دوريان جرای قائلا :

— اصغ إلى يا بازيل . إذا انصرف اللورد هنرى انصرفت أنا كذلك ، فأنت لا تنطق بكلمة حين ترسم ، ولقد مللت الوقوف أمامك كل يوم منكلفا الابتسام .

قال هولورود وهو يرنو إلى الصورة فى تفحص :

— أرجو أن تبقى يا هارى لترضى دوريان ولترضىنى . إن ما قاله دوريان

صحيح ، فأنا لا أنطق بكلمة أثناء العمل ولا أستمع لكلام الغير ، ولا بد أن ذلك يضايق من أرسهم أشد المضايقة . هلا رجوتك أن تبتني ؟

— وهل أخلف ميعادي في نادي أوليانز ؟

ضحك الرسام وأجاب :

— هذه مسألة سهلة . عد إلى مكانك يا هاري ، وأنت يا دوريان خذ مكانك على القاعدة ولا تصغ كثيراً إلى كلام اللورد هنري فإن له تأثيراً خبيثاً في جميع أصدقائه لم ينج منه إلا أنا .

وسار دوريان جرای إلى القاعدة كأنه شهيد يسير إلى حتفه ، وأخذ مكانه عليها ، وزجر امتعاضاً كأنه يشكو أمره إلى اللورد هنري الذي راق في نظره . ورأى دوريان أن اللورد هنري وبازيل طرفاً بقبض . كم كان صوت اللورد هنري حلوا . وبعد لحظات كان دوريان جرای يسأل اللورد هنري قائلاً :

— هل صحيح ما يقوله بازيل عنك يا لورد هنري من أن لك تأثيراً خبيثاً

في الناس .

— التأثير الصالح لا وجود له بامستر جرای ، فكل تأثير يتنافى مع الأخلاق ، أعني إذا أردت أن تحكم حكماً عملياً .

— لست أفهم .

— إن تأثيرك في شخص ما معناه أنك تسيغ روحك عليه ، مما يملأ رأسه بأفكار ليست أفكاره ويملا قلبه بعواطف ليست في طبعه ويجعل من ردائله ردائل مستعارة من الغير ، وبذلك يصبح صدى يردد ترنيمة رجل آخر ، أو ممثلاً يلعب دوراً لم يكتب له . إن غاية الحياة تقدم الذات وما خلق كل منا إلا لينمي ملكاته ويصون طبيعته على الوجه الأكمل . ولكن الناس في هذه الأيام يخافون من أنفسهم ، وينسون أن واجب الإنسان الأول هو واجبه نحو نفسه ، فتراهم يطعمون الجياع ويكسون العراة وأرواحهم جائعة طارية . ولا بد من أحد أمرين ، فأما أن شعبنا قد فقد شجاعته أو أن الشجاعة

لم تكن من صفاته في يوم من الأيام فنحن عبيد الخوف : الخوف من المجتمع وهو جوهر الاخلاق ، والخوف من الله وهو جوهر الدين . ومع ذلك ... كان الرسام مستغرقاً في عمله فلم يتتبع الحديث ، ولكنه لاحظ أن وجه دوريان جرای يسطع ببريق جديد لم يره من قبل . قال :
— أدر رأسك قليلاً يا دوريان .

قال اللورد هنري مستأنفاً حديثه بصوت خافت رخيم وهو يعبر عن قصده بيده كعادته منذ أن كان تلميذاً في كلية إيتون :

— ومع ذلك فاعتقادي أن الأيام لو قيضت لنا رجالاً واحداً يحيا حياته كاملة ، فيصور كل إحساس يحيش في نفسه ويعبر عن كل فكرة تمر بخلدّه ويحقق كل حلم يداعب خياله ، لعادت البهجة إلى الحياة مرة أخرى وانتشلتنا هذه الصراحة من كابوس القرون الوسطى الذي لازال نشقى به . أجل . لو قيضت لنا الأيام مثل هذا الرجل لعدنا إلى المثل الأعلى في حضارة اليونان ، حضارة هيلاس ، بل لتجاوزنا اليونان وحضارتهم الخصبه الجميلة . ولكن أشجع رجل بيننا يرتعد أمام نفسه فرقاً . إن إنكار الذات الذي يفسد علينا الحياة هو بقية أليمة من تراث الهمجية الأولى حين كان رجل الغاب يمزق جسده بيده ، وها نحن ندفع نحن زهدنا في الحياة ، فكل نازع نكبتة في نفوسنا يجرم في أفئدتنا ويسم فينا ينابيع الحياة . إن الجسد يخطئ مرة واحدة ثم تغسل عنه خطيئته ، لأن التجربة تطهره ، ولا يبقى بعدها إلا لذة الذكرى أو غصة الندم الجميل . ولا نجاة من الغواية إلا بالاستسلام لها . فإن قاومت الغواية ذبأت روحك من شوقها إلى المحظور ، وما حظر المحظور إلا رباؤها ، وبكت نهماً إلى الحرام ، وما حرم الحرام إلا بأسها وإشفاقها . يقولون إن الأحداث الكبرى تبدأ في عقل الإنسان ، وأنا أقول إن الجرائم الكبرى تبدأ في عقل الإنسان كذلك ، بل تبدأ في الإنسان لا سواء . وحتى أنت يا ماستر جرای ، بشبابك المنفتح كالوردة الحمراء وطفولتك النقية كالوردة

البیضاء ، حتى أنت یا مستر جرای قد جمعت بك شهوات ارتعد امامها
ضميرك ، وعصفت بك خواطر ملأت قلبك رعباً ، وعرفت في يقظتك
ومنامك أحلاماً كلما ذكرتها ضرج الخجل خديك بالدماء .

فقاطعه دوريان جرای في لعنة قائلاً :

— كفى ! كفى ! لقد بلبت أفكاري . أعتقد أن هناك رداً على كل
ما تقول ولكنني عاجز عن إيجادہ . الزم الصمت ودعني أفكر .

وظل ما يقرب من عشر دقائق ثابتاً في مكانه فاجر الفم يلمع في عينيه ضوء
غريب . وكان يحس إحساساً مبهماً بأنه يدخل تحت تأثير ما ، ولكنه أحس
كذلك بأن النفوذ الجديد الذي يسيطر عليه لم يأت من الخارج وإنما خرج من
أعماق نفسه . فلقد هزت الكلمات القليلة التي قالها صديق بازيل وترأ خفياً
في فؤاده لم يهتر من قبل شيء ، وأيقظت فيه أعجب المشاعر . ولا شك في أن
الورد هنري تعتمد بعض الشيء أن يحير دوريان ، ولكن كلماته جاءت عرضاً
وبغير تحضير سابق .

ولم تكن هذه المشاعر جديدة على دوريان جرای ، فقد كانت الموسيقى
توقظ مثلها فيه ، ولـكم ملائمة بالقلق والحيرة . ولكن الموسيقى خرساء
لا تفصح ، وهي لا تخلق في نفوسنا عالماً جديداً مرتباً متماسك الأجزاء بل
تخلق فيها عالماً من الفوضى . أما الألفاظ فسلطانها عظيم وتصويرها دقيق
وتعبيرها قاس ، ومن رام الفرار منها لاحقته أينما ذهب . ولكنها رغم ذلك
كله ذات سحر لطيف ، ولها من النغم العذب مألعود وللـكمان وهي تحبس
كل شارد من العواطف في إطار من حديد . فياننا من الألفاظ ! ليس
أصدق من الألفاظ تعبيراً عن الحقيقة .

كم من أشياء مرت بدوريان جرای وعجز عن فهمها أيام صباه . ولكن
هاهو يفهمها الآن . وهذه الحياة تصطبغ بخاة أمام ناظريه بالألوان النارية
العنيفة . وخيل إليه أنه يمشی بين السنة اللهب دون أن يكتبوى بنارها ،

وباليته اکتوى . أما اللورد هنرى فقد كان يتأمله وعلى شفّيته ابتسامة ذات مغزى . وكان يعرف متى يتوقف على الكلام ويستعين ببلاغة الصمت . ثم ثار فضوله وعجب لما رآه من تأثير فجائی لکلماته ، وتذكر ذلك الكتاب الذى قرأه وهو فى السادسة عشرة من عمره وتعلم منه ما لم يعلم من أسرار الحياة خال بباله أن دوريان جرای يمر الآن فى تلك التجربة ذاتها . ولم يكن ما قاله اللورد هنرى إلا سهماً انطلق بغير تصويب ، فهل أصاب السهم الهدف ؟ ياله من هدف جذاب !

ولم يتنبه هولورود إلى السكون الذى خيم على الحجرة فقد كان مشغولاً بالرسم يلون الصورة بألوانه الجريئة التى تضى على عمله رقة وأناقة هما فى الواقع مظهر من مظاهر القوة ، فى الفن على الأقل . قال دوريان جرای :

— لقد أعبى طول الوقوف يا بازيل ، والهواء هنا يخنق انفاسى ، فلا بد أن أخرج إلى الحديقة لأرتاح قليلاً .
فأجاب الرسام :

— عفواً يا صديق ، فقد أنساني الرسم كل شيء . إن وقتك اليوم يا دوريان أجل من وقتك فى أى يوم مضى ، فلم تبد منك أدنى حركة . كذلك أمكننى أن أنقل التعبير الذى كنت أطلبه ، أقصد ذلك البريق فى عينيك وذلك الانفراج الخفيف فى شفّتيك . ولست أعرف بمحدثك هارى ولست حديثه بلا جدال قد أكسب محياك تعبيراً لانظير له . أكان يطيريك طيلة هذا الوقت ؟ مهما يكن من شيء فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول فهو يأتى الكلام جزافاً .

قال دوريان :

كلا . لم أسمع منه كلمة إطراء واحدة ، ولذا تجدنى أميل إلى الشك فى كل ما قاله .

قال اللورد هنرى معترضاً وهو ينظر إليه بعينيه الناعستين الحالمتين .

— بل أنت تؤمن بصديق ما أقول ، وأنت تعلم ذلك . إن الحرارة هنا خانقة فلنخرج معا إلى الحديقة . آتينا شراباً مثلجاً به شيء من الشليك يا بازيل .
— بالتأكيد يا هاري . أمامك الجرس فاطلب خادمي باركر ومره بما تشاء ، أما أنا فباق هنا لأنني هذه الصورة ، وأرجوك ألا تعطل دوريان في الحديقة طويلاً إذ لا بد لي منه ثانية فأنا أحس برغبة في العمل لم أحس بها من من قبل . يالها من صورة رائعة ، فما أسعدني بها ! لسوف تكون أبدع ما رسمت حين تتم ، بل لا أغالي إن قلت إنها أبدع ما رسمت في وضعها الحالي .
وخرج اللورد هنري إلى الحديقة فوجد دوريان جرای يدفن وجهه بين أزهار اليليج المنعشة يستاف عيبرها كأنه نبيند كريم . ودنا ، نه ثم وضع يده على كتفه وقال في صوت خافت :

— ها قد عرفت طريقك إلى الخلاص يا دوريان ، فما يظهر الروح إلا الحواس وما يظهر الحواس إلا الروح .
خجل الفتى وارتد قليلاً . وكان عاري الرأس فعبثت أوراق الشجر بشعره المتموج وتشابكت خيوطه الذهبية . وبدأ في عينيهِ ارتياح عظيم كأنه نائم أوقف فجأة من منامه . وارتجف أنفه الدقيق ونبض في شفقيه القرمزيتين عصب دفين فتركهما ترتعشان بلا انقطاع . واستأنف اللورد هنري حديثه قائلاً :

— نعم يا مستر جرای ، هذا سر من أسرار الحياة ، بل سر من أسرارها الكبرى ، أعني شفاء النفس عن طريق الحواس وشفاء الحواس عن طريق النفس . وأنت نموذج من نماذج الخلق رائع ، وشوقك إلى معرفة الحياة أكبر من معرفتك بها ، ولكن معرفتك بالحياة أكبر مما تظن .

فأظلم وجه دوريان جرای وأشاح برأسه عن اللورد هنري . فلقد بدأ على الرغم منه يتعلق بهذا الرجل المديد القامة الرشيق التكوين الواقف إلى جواره ، وأثار اهتمامه بحياه الأسمر الحالم وملاحمه المتعبة . أما صوته الخفيض الكسلان فقد كان يسحر الحजर ، ويداه الناصعتان الناعمتان كان لهما سحر زهرة

غريبة ، وكانتا تتحركان بلا انقطاع كلما تكلم حركة تشبه إيقاع لحن رتيب فيكاد سامعه أن يفهم ما تقولان . ولكن دوريان رغم ذلك كله خامره الخوف منه ، وإن أخجله أن يخاف . وكيف لا يخاف من هذا الغريب الذي يقرأ عليه صفحة نفسه كأنها كتاب مفتوح ويهتك أمامه ماخى عليه من أسرارها . لقد عاشر دوريان جرای بازيل هولوردد فلم يسمع منه إلا كلمات الإطراء ، ثم دخل في حياته فجأة رجل وصف له الحياة ففك له لغزها . ولكن مم يخاف ؟ لو أنه كان صبياً غريباً أو بنتاً قليلة الحيلة لجاز له أن يخاف . أما وهو ليس بهذا ولا تلك فلا مبرر لخوفه على الإطلاق . قال اللورد هنرى :

— هيا بنا إلى الظل نجلس فيه . هذا باركر قد أتانا بالشراب ، ولو مكثت في هذا الجو المحرق طويلاً لالتفتك الشمس ولم يعد بازيل يجد فيك ما يستحق الرسم . فحذار من الشمس يا مستر جرای ، فالسمرة لاتناسبك . فأجاب دوريان ضاحكاً وهو يجلس على مقعد في طرف الحديقة :

— وما أهمية ذلك .

— بل أهميته جوهرية بالنسبة لك .

— وكيف ذلك ؟

— لأن شبابك لانظير له ، والشباب هو كل ما يستحق أن تتمناه لانفسنا في الحياة .

— ولكنى لا أحس بشبابى يالورد هنرى .

— هذا طبيعي ، وأنت لاتحس بشبابك لأنك تملكه ، ولن تحس به إلا إذا فقدته ، ولسوف تفتقده يوم يضيع منك . ستفتقده حين يزول جمالك ويمتلئ وجهك بالفضون . ستفتقده حين يحفر الهم أخاديه في جبينك الجاف ويكوى الأسمى بنيرانه شفتيك . أنت تفتن الدنيا أينما ذهبت الآن ، فهل يدوم لك ذلك ؟ ما رأيت وجهاً قط في جمال وجهك يا مستر جرای ، ولا تعبس فهذه حقيقة مقررة . والجمال لون من ألوان النبوغ ، بل الجمال أعلى

قدراً من النبوغ ، وهذه أيضاً حقيقة مقررة . فإن كنت تشك في ضوء
 الشمس أو في الربيع أو في القمر الفضي حين ينعكس خياله على المياه المظلمة
 أو في أشباه هذه الحقائق الأولية فلك أن تشك في صدق ما أقول . إن الجمال
 يحكم العالم بأذن من الله ، ولا ينازعه في دولته شيء في الوجود ، فمن حبه
 الطبيعة به جلس على عرش القلوب . أراك تبتسم لهذا الكلام ، ولكنك إن
 تبتسم حين يزول عنك جمالك ، أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحي ، ولعلمهم
 صادقون فيما ذهبوا إليه ، ولكن الجمال مهما كان سطحيًا فلن تصل تفاهته
 إلى تفاهة الفكر . ولو سألتني الرأي لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب ولقد
 يكون الجمال قشرة ظاهرية ولكن الظواهر هي كل شيء في الحياة ، ومن
 لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئاً عن لغز الحياة . فلغز
 الحياة هو ما وراء وليس مالا نراه . نعم يا مستر جرای ، إن الآلهة تحبك ،
 ولكن لاتنس أن الآلهة تسترد ماتمنح ، ولم يبق أمامك إلا سنوات معدودات
 تستطيع فيها أن تحيا حياتك على أكل وجه . حين يذوى شبابك يذوى معه
 جمالك ، وسوف تجد يومئذ أن أيام مجدك قد مضت وتفهم معنى الهزيمة ،
 أو تقتنع من كل هذا السلطان العريض بذكرى مجدك الزائل وهذا أشد
 مرارة من الهزيمة . إن كل شهر يفوت يقترب بك من هذا المصير الأليم .
 فالزم نفسك عليك شبابك ويغار من ورودك ورياحينك ، وحين يصرك
 الزمن يشحب لونك ويتكسف خدك وينطفئ البريق الذي يلمع الآن في
 عينيك ، وتتعلم كيف يكون الشقاء . فأنعم بشبابك مابق لك . أيامك ذهبية ،
 فلا تبعتها ذهب أيامك مستمعاً إلى نصائح الوعاظ الثقلاء أو آخذاً بيد العائرين
 أو مكرساً حياتك للجهال والسفهاء ، فهذه أهداف عصرنا وهو مريض ،
 وهذه مثله العليا وهي زائفة . عش وأنعم بالحياة المتفتحة فيك واستفد من
 كل اختبار يمر بك وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئاً . فعصرنا بحاجة
 إلى دين جديد ، إلى وثنية جديدة ، إلى إحياء عبادة الجمال التي انطوت تحت

أنقاض اليونان . ولتكن أنت رمز هذه الفاسفة الجديدة ، فالدنيا وما عليها طوع بئانك حتى ينطوى ربيعك الناضر . لقد أدركت لأول وهلة حين لقيت أنك تجهل حقيقة نفسك وتجهل ما ينتظرك من أفراح وها أنا أفصل لك أمرك لأن قوة خفية فيك جذبتني إليك فأشفقت أن يضيع منك كل هذا الشباب المكنوز ، وهو خليق بأن يضيع . إن الأزهار الساذجة النامية على البطاح تذبل مع الخريف ولكنها تتجدد في مقدم الربيع ، وهذه الشجرة الصفراء التي تتوهج الآن أمام عينيك سوف تسترد ما عليها من نضار في مثل هذه الأيام من العام القادم ، وسوف تكسو النجوم الحمراء أدواح الداليا بعد شهر واحد وتلمع تلك النجوم في ليل أوراقها الخضراء سنة بعد أخرى ، أما نحن فشبابنا المهرق لا يعود ، وأشواقنا تخبو وأفراحنا تقتر بعد أن كانت تهزنا هز الأعاصير في سن العشرين . كذلك تهن أبداننا وتنطفئ حواسنا ونؤول إلى دمي كريهة لانفع فيها ، دمي تحن إلى ما فات وقد كانت ترتعب في القديم من نداء السعادة ، وتتأوه على الغوايات الحلوة وقد كانت لا تجرؤ على إطاعتها أيام الشباب . خي الشباب إنه كل مافي الدنيا من صور النعيم .

وكان دوريان جرای يستمع إليه عاجباً فسقطت من يده باقة اليلج على الأرض المرصوفة بالأحجار الصغيرة . واندفعت نحوها نحلة ملئت قليلاً ثم بدأت تدب في اليلج الملفوف . ووفق يتأمل هذه الظاهرة التافهة باهتمام عظيم كما تفعل عادة حين يضطرب لأمر جليل ، أو حين تهزنا عاطفة جديدة لانستطيع التعبير عنها ، أو حين تلح علينا فكرة رهيبة وتبني إلا أن نخضع لها . ثم طارت عن اليلج النحلة وشاهدها دوريان جرای تقتحم زهرة وتختفي في أعماقها ، ورأى الزهرة ترتجف ثم تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار . وظهر الرسام فجأة بباب الاستديو وأشار لهما بالعودة فتبادلا النظرات وابتسما وسمعا يقول :

— أنا في الإبتظار ، والضوء الآن جميل فعودا وتناولوا شرايكا هنا .
فنهض الرجلان وسارا متكاسلين في ممشى الحديقة . وطارت بجوارها
قراشتان إحداها بيضاء والأخرى خضراء ، وسمعا عصفوراً يغرد في شجرة
الكثري عند طرف الحديقة . وقال اللورد هنري :

— أسعيد أنت بلقائي يا مستر جرای ؟

— نعم ، أنا الآن سعيد بلقائك ، ولكن هل سأظل هكذا دائماً ؟

— لا تقل « دائماً » يا مستر جرای ، فكلمة « دائماً » كلمة فظيعة تجعلني
أرتجف فرقاً . والنساء مولعات بها إلى حد كبير ، فهن يفسدن كل علاقة
جميلة برغبتهن في أن تدوم هذه العلاقة إلى الأبد . إن كلمة « دائماً » كلمة
لامعنى لها . والفرق الوحيد بين النزوة العارضة والعاطفة الدائمة هو أن
النزوة العارضة أطول عمراً من العاطفة الدائمة .

وفيما هي تدخلان الاستديو أمسك دوريان جرای بذراع اللورد هنري
وقال في شجاعة أخجلته :

— إذا كان الأمر كذلك فلتكن صداقتنا نزوة عارضة لا عاطفة دائمة .

ثم أخذ مكانه من جديد أمام الرسام :

وارتجى اللورد هنري على مقعد كبير وأنشأ يتأمله عن كثب . وخيم على
المكان صمت طويل ، فما كان يسمع إلا حفيف الفرشة على اللوحة ، وبين
وقت وآخر كانت تسمع خطوات هولورود وهو يتراجع ليمتحن عمله من
بعيد . وفي راووق الضوء المتدفق خلال الباب المفتوح سبحت ذرات التراب
وبدت كدقائق التبر ، وتأرجح كل شيء بعطر الورود .

وتوقف الرسام عن العمل ربع ساعة أو يزيد . وأدمن النظر طويلاً إلى
دوريان جرای ثم إلى الصورة وهو يفيض فرشته الضخمة في تفهم واضح ،
وأخيراً صاح قائلاً :

— لقد اكتملت الصورة .

وانحنى كثيراً ، وكتب اسمه في ركنها الأيسر بحروف كبيرة حمراء ودنا اللورد هنرى من الصورة ليمتحنها بنفسه فوجدها آية من آيات الفن لا تبارى ، ووجدها نسخة تطابق صاحبها تماماً . قال :

— أهنتك يا بازيل من صميم قاي ، فهذه أجل صورة رسمت في العصر الحديث . تعال يا مستر جرای لترى نفسك .

كان الفتى مسترسلاً في أحلامه فأفاق منها ، ونزل من القاعدة وقال في صوت خافت :

— هل انتهت الصورة حقاً ؟

فأجاب الرسام :

— نعم انتهت تماماً ، فشكراً على حسن وقوفك اليوم .

قال اللورد هنرى :

— الشكر لى يا بازيل ، فلولاى لما أحسن الوقوف . أليس كذلك

يا مستر جرای ؟

لم يجب دوريان بل مر أمام صورته بغير اكتراث ثم التفت إليها فلما وقع بصره عليها رجع خطوة إلى الوراء واشتعل خداه لحظة من فرط السرور وفاضت عيناه بالبشر كأنه يقف على حقيقة جماله للمرة الأولى . وثبت في مكانه كالسحور لا يعي شيئاً مما يدور حوله ، اللهم إلا صوت هولوورد فقد جاءه كاللغظ المطموس . لقد أشرق عليه وجهه الصبوح فبدهه جماله كأنه وحى عظيم وكانت تلك أول مرة يخالجه فيها هذا الإحساس ، فقد كان من قبل لا يقيم وزناً للكلام بازيل هولوورد ويحسب إطراءه إياه مجاملة لطيفة من مجاملات الأصدقاء . وتذكر دوريان جرای إطراء بازيل هولوورد . كم أصغى إليه وكم ضحك منه وكم نسيه ! إن إطراء بازيل هولوورد لم يترك في نفسه أى أثر . والآن أقبل اللورد هنرى وتوّن ورثم أمامه ترنيمه الشباب وحذره من الزمن الغدار الذى ينسخ الشباب ، فاهتز فؤاده لكلماته . وفيما كان دوريان

جراى يتأمل نضارته تملأ الملوحة . فهم مغزى تلك الكلمات ، واقتنع بأنها تعبر عن الواقع المأموس . فلسوف يأتى يوم يتشقق فيه وجهه وتنطفئ عيناه ويغدو قدح المياس عوداً يابساً ويهرب القرمز من شفثيه والذهب من شعره الجميل ، وتمسخ الحياة جسده وقد كان خليقاً بها أن تجدد روحه . أجل . لسوف يصير إلى مخلوق شائه كربه .

وحين خطر له هذا الخاطر أحس بالألم يعزق أوصاله كأنه طعن المدى وارتجف كل عصب فى بنيانه وازرقت مقلته وتفرقت فيهما الدموع وخيل إليه أن بدأ من جليد تمس قلبه الدافئ . أما الرسام فلم يفهم لهذا الصمت معنى ، وأتى له أن يعرف ما كان يدور برأس الفتى من هواجس ، فقال حزينا :
— ألا تعجبك الصورة ؟

فقال اللور هنرى :

— وكيف لا تعجبه ؟ بل كيف لا تعجب العالم كله ؟ إنها آية من أنعم آيات هذا الجيل بإبازيل ، ولا بد أن أشتريها . اطلب أى ثمن يروقك فهو لك .

— إنها ليست ملكا لى ياهارى ؟

— من صاحبها إذا ؟

— دوريان جراى بطبيعة الحال .

— ياله من فتى محدود .

فقال دوريان جراى وعيناه لا تنصرفان عن الصورة :

— بل إني لفتى تاعس ! نعم . إني فتى تاعس ! سوف يتقدم لى العمر وأصبح مخلوقا بشعاً تنفر منه العيون . أما هذه الصورة فستظل أبداً ناضرة الشباب ، ولن يزيد عمرها عن هذا اليوم من شهر يونيو . ليت الأمر كان بعكس ذلك ! ليت الصورة تكبر وأخذ أنا فى شبابه ! إني لأنزل عن أعز ما أملك لثم هذه الصنقة ، وليس فى العالم كله ما أضن به ليتحقق لى هذا الحلم . هذه روحى أزل عنها مختاراً ليكون لى ما أريد .

ضحك اللورد هنرى وقال عابثاً :

— لا أحسب هذه الصفقة في مصلحتك يابازيل ، فالخطوط التي يرسمها الزمن ستفسد ولا شك عملك الجميل .
فأجاب هولوردد :

— طبعاً أنا أمانع في ذلك بكل ما أملك من قوة .

عندئذ التفت دوريان جرای إليه وقال متفرساً فيه :

— هذا لا يدهشني منك يابازيل ، فأنت تقدم فنك على أصدقائك ، وما مقامي عندك إلا مقام تمثال من البرنز ، بل لعل تمثال البرنز أثمن عندك مني .

خملق الرسام فيه من فرط دهشته ، فما كان ينتظر منه أن يقول هذا الكلام . إن دوريان جرای الذي يعرفه لا يفكر على هذا النسق . أفهذا جزاؤه منه ؟ ترى ماذا حدث له ؟ وصعد الدم إلى وجهه بازيل هولوردد واستولى عليه غضب شديد فالتهم خداه . ولكن دوريان مضى في حديثه قائلاً :

— نعم . إن موقعي عندك لأبخس من موقع هرمن العاجي هذا أو هذه الغزالة الفضية التي تحرص عليها حرصك على الحياة ، وحبك لهما لن يبلى على الزمن ، فكم يدوم حبك لي ؟ سيدوم حبك لي ما دامت لي نضرتي ، وحين تظهر في وجهي أول بادرة من بواذر الهرم سأخرج من قلبك جملة . لقد أدركت الآن أن الإنسان يفقد كل شيء يوم يفقد جماله ، مهما كان حفظه من الجمال . صورتك علمتني ذلك يابازيل ، ولقد أصاب اللورد هنرى في كل ما قال ، فالشباب هو كل ما يستحق أن تتمناه لأنفسنا في هذه الحياة ، ولسوف أقتل نفسي حين أعرف أن شبابي قد ذهب .

عند ما سمع هولوردد هذا الكلام شحب لونه وأمسك بيد دوريان جرای وصاح به :

— ماذا دهالك يادوريان ! ما كنت أرجو فيك أن نقول مثل هذا الكلام ، فما أخلصت لأحد إخلاصى لك ولن أخلص . أصبحت تغار من الحمادات يادوريان ؟ دع عنك هذه الأوهام ، فانت أصفى معدنا من كل هذه الأشياء !

— إني أغار من كل شيء جماله لايموت ، أغار من الصورة التى نقلتها عني . فكيف يبقى لها جمالها وأفقد أنا جمالى برغى ؟ إن كل لحظة تمضى تقتطع منى شيئاً وتضيف إليها شيئاً ، فليت الأمر كان على عكس ذلك . واهالى ! ليت الصورة تتغير وأبقى أنا على حالى . ماذا دفعك إلى رسمها ؟ إنها ستسخر منى حين يأتى الألوان .

• وفاضت عيناه بالدموع ونزع يده من يد هولوورد وألقى بنفسه على الأريكة ودفن وجهه فى وسائدها كأنه يتلو الصلوات . فقال الرسام فى مرارة :
— أنت المسئول عن هذا ياهارى .

— بل هذا دوريان جرای الحقيقى .

— ليس هذا صحيحاً .

— علام تلومنى إذا ؟

قال الرسام بصوت متقطع :

— كان خليقاً بك أن تتركنا حين سألتك أن تنصرف ياهارى .

فأجابه اللورد هنرى قائلاً :

— ولكن سألتنى أن أبقى .

— إسمع ياهارى . أنت ودوريان أعز أصدقائى ، ولن أستطيع أن

أغاصمكما معاً فى وقت واحد . لقد جعلتائى أبغض أجل شيء أنتجته فى حياتى ، ولذا سأحطم هذه الصورة . إن هى إلا خيش وألوان ولن أدعها تدخل بيننا فتفسد حياتنا .

فأما سمع دوريان جرای هذا الكلام رفع رأسه الذهبى من الوسادة ونظر

إليه صاحب الخلد دامع العين قرآه يسير نحو النافذة ذات الأستار العالية حيث المائدة التى يجمع فيها أدواته . ماذا عساه يفعل ؟ إنه يبحث عن شئ ، فأصابه تحسس شيئاً بين الأنايب الفارغة والفرش الجافة . إنه يبحث عن المدية الفولاذية الحادة التى يستخدمها فى مزج الألوان ، ولقد وجدها . وها هو بهم بتمزيق الصورة .

فوثب دوريان حراى من الأريكة وقد اختنقت فى صدره زفرانه وهجم على هولوورد واتزع المدية من يده وقذف بها إلى طرف الاستديى صائحاً :

— كلا . كلا يا بازيل ! هذا والقتل سواء !

قال الرسام ببرود بعد أن أفاق من دهشته :

— اشكرك يا دوريان على هذا التقدير ، وإن جاء متأخراً . ما كنت أظنك ستقدر الصورة .

— لا تتحدث عن التقدير يا بازيل بل تحدث عن التقديس فأنا أعبدتها عبادة لأنها قطعة من نفسى . وهذا هو إحساسى الصادق .

— إذا كان الأمر كذلك فسأتركك حتى تحف أولاً ، ثم أضع عليك الورنيش لتلمع ، ثم أحبسك فى إطار ، ثم أرسلك أخيراً إلى بيتك . وحين نصل إلى بيتك تستطيع أن تفعل بنفسك ما تشاء .

وبعد أن فرغ من كلامه مشى إلى الجانب الآخر من الغرفة ودق الجرس وقال :

— أتحب أن تتناول قليلاً من الشاى يا دوريان ؟ وأنت يا هارى ، هل لك فى فنجان من الشاى ، أم تراك تحترق هذه المتع البسيطة ؟
فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

— وكيف أحتقر المتع البسيطة يا بازيل وهى عزاؤنا الباقى كلما مللنا المتع الكبيرة ! ولكن كفى مشاحنة ، فأنا لا أحب أن أرى المناظر المؤثرة إلا على

المسرح ، ولم أر أسخف منكماً إنساناً . ما أبعدكم عن العقل ، فأى أحق هذا الذى وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل ؟ إن هذا التعريف سابق لأوانه كثيراً ، فالإنسان قد يكون متعدد الملكات ولكن العقل ليس من ملكاته ، وهذا ما يجنبني فيه . إن احتدادكم بشأن الصورة قد ساءنى ، ومن الخير يا بازيل أن أحتفظ أنا بالصورة فهذا الولد الطائش ليس بحاجة حقيقية إليها .

فصاح دوريان جرای قائلاً :

— إسمع يا بازيل ، لو أعطيتها لأحد سواى فلن أغتفر لك ذلك ، ثم إنى لا أسمح لأحد بأن يصفنى بأنى ولد طائش .

— أنت تعلم يا دوريان أن الصورة ملك لك ، أهديتك إياها قبل أن تخرج إلى الوجود .

— وأنت تعلم يا مستر جرای أن سلوكك لم يخل من الطيش وعهدى بك أنك لا تغضب إذا ذكرك أحد بمحادثة سنك .

— لقد كان يجب أن أغضب هذا الصباح يا لورد هنرى .

— آه من هذا الصباح ! لقد فات هذا الصباح وانطوى من عمرك بعضه . وطرق الخادم الباب مستأذناً فى الدخول ثم دخل حاملاً صينية عليها أطيب المأكولات ووضعها على مائدة صغيرة بها نقوش يابانية ، وارتفع صوت الأطباق والفناجين ، والماء المغلى بخاره المكتوم يتصاعد من الإناء القديم الذى يحتويه فيصفّر صغيراً مسموعاً . ودخل خادم آخر بالصحن الصينية ، وتقدم دوريان جرای ليصب الشاي فى الفناجين على حين سار الرجلان فى تناقل صوب المائدة وكشفاً أغطية الأواني ليريا ماخبي تحتها من ألوان الطعام . وأخيراً قال اللورد هنرى :

— أقترح أن نذهب الليلة إلى مسرح وأعتقد أننا سنجد مسرحاً مفتوحاً لقد وعدت أن أتعشى هذا المساء فى مطعم هوايت ولكنى أستطيع أن أتغاضى عن هذا الموعد ، فهو موعد مع صديق قديم لا أكثر ، وسأرسل له

برقية أعتذر فيها بأن سمحتى منحرفة أو أقول فيها إنى ارتبط بموعد آخر ، وهذا أفضل ، لأنه سيجد فى صراحتى مفاجأة لطيفة تنسبه للإساءة .

وقال هولوردد :

— أنا أمقت ملابس السهرة ، فارتداؤها يضايقنى ومنظرها لا يطاق .

أجاب اللورد هنرى :

— هذا صحيح . إن ملابس السهرة فى القرن التاسع عشر فظيعة ، فلونها

قائم مقبض ، ولم يبق لنا من الألوان الجذابة فى الحياة الحديثة إلا لون الرذيلة .

— يحسن ألا تذكر هذه الأمور على مسمع من دوريان جرای .

— أى دوريان تقصد ؟ دوريان الذى يصب الشاى لنا الآن . أم دوريان

الذى نراه فى الصورة ؟

— كليهما .

قال الفتى :

— أود أن أصحبك إلى المسرح يالورد هنرى .

— فلنذهب معاً إذاً . وأنت يا بازيل ، هلا أتيت معنا ؟

— كلا ، فعلى يمنعنى .

— فلنذهب بمفردنا إذاً ، أنت وأنا يا مستر جرای .

— ذلك يسرنى جداً .

فعض الرسام شفتيه وسار نحو الصورة حاملاً فنجاناً فى يده وقال فى أسى :

— أما أنا فسأبقى مع دوريان الحقيقى .

تقدم الفتى صوبه وقال :

— أهذا الذى نراه فى الصورة دوريان الحقيقى ؟ أهذه صورة صادقة منى ؟

— نعم ، هذه صورة صادقة منك .

— ما أجملها صورة يا بازيل !

فتنهذ هولوردد وقال :

— أنت تشبهها في المظهر على الأقل ، ولقد تتغير أنت ولكنها لن تتغير ،
وفي هذا بعض العزاء .

قال اللورد هنرى :

— ما هذا اللغو الكثير الذى يردده الناس عن الوفاء ! إن الحب نفسه
مسألة فيسيولوجية ولا دخل للإرادة فيها . أرى الشبان يحاولون الوفاء
فيعجزون عنه وأرى الشيوخ يحاولون الخيانة فيعجزون عنها . هذا كل
ما نستطيع أن نقوله في الموضوع .

قال هولورود :

— لانهذه إلى المسرح الليلة يدوريان ، بل ابق معى للعشاء .

— لا أستطيع .

— لماذا ؟

— لأنى وعدت اللورد هنرى أن أرافقه .

— ولكن اللورد هنرى لن يقدر فيك الوفاء بوعودك ، فهو يخلف
وعوده باستمرار . أرجوك أن تبقى معى .

فضحك دوريان جرای وهز رأسه دلالة الرفض .

— أضرع إليك أن تبقى معى .

تردد الفتى قليلاً ونظر إلى اللورد هنرى فألفاه واقفاً بجوار مائدة الشاى
يتأملها وهو يتسهم . وأخيراً قال :

— لا بد أن أذهب يا بازيل .

فأجاب هولورود وهو يضع فنجان الشاى على الصينية :

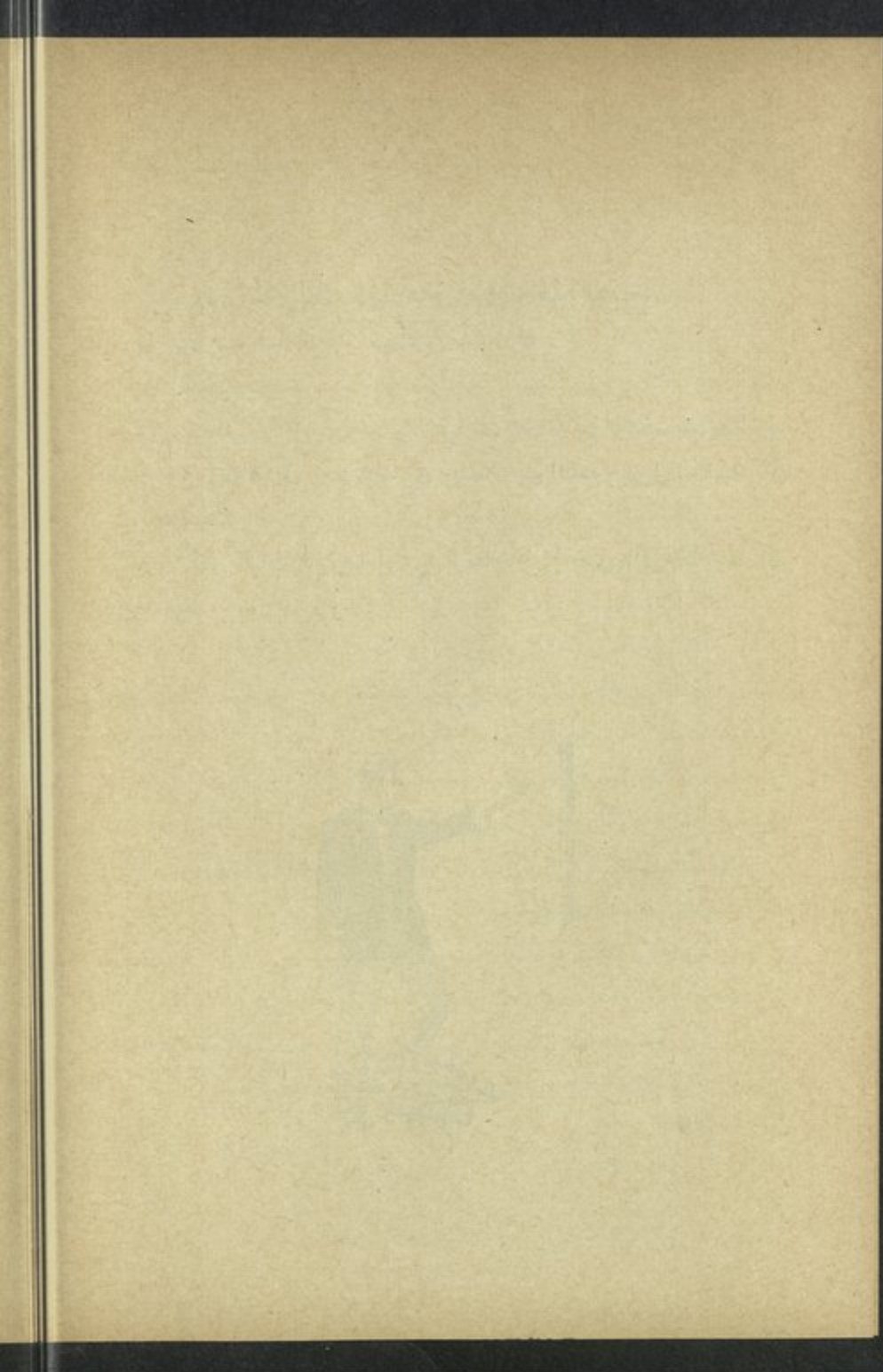
إذا كان الأمر كذلك وجب أن تسرع فالوقت متأخر ولا بد أن تستبدل
ملابسك . إلى اللقاء يا هارى . إلى اللقاء يدوريان ، ولا تغب ملويلاً . تعال غداً

— بالتأكيد .

— أرجوك ألا تنسى .

- لن أنسى بالطبع .
 — إسمع يا هاري !
 — نعم يا بازيل ؟
 — تذكر رجائي إليك حين كنا في الحديقة هذا الصباح .
 — أي رجاء هذا ؟ لقد نسيت .
 — أنا أثق فيك
 — ولكنني لا أثق في نفسي . هيا بنا يا مستر جرای فعررتي تنتظر في
 الخارج وفي إمكانني أن أصل بك إلى بيتك . إلى اللقاء يا بازيل . لقد كان
 يومنا حافلاً .
 ولما أقفل الباب دونهما ارتقى الرسام على إحدى الأرائك وتمسكه
 حزن شديد .





الفصل الثالث

*

خرج اللورد هنرى وتون من منزله فى شارع كيرزون فى الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم التالى وسار إلى نادى أولباني ليزور عمه اللورد فيرمور ، وهو شيخ أعزب ، طيب القلب ، خشن المعاملة ، تناقضت فى وصفه الآراء ، فمن يجهلونه يصفونه بالخسة والانانية لأنهم لا يستفيدون منه شيئاً . أما عارفوه من أبناء البيوتات فيصفونه بالسخاء لأنه يطعم كل من يسألونه . وقد كان أبوه سفيرنا فى مدريد حين كانت إيزابيلا صغيرة وبريم لم يولد بعد ، ولكنه استقال من السلك السياسى فى لحظة من لحظات الضيق لأن وزارة الخارجية ضنت عليه بسفارة باريس ، وهو منصب كان يعده حقاً من حقوقه الطبيعية ، يؤهله له طيب منبته ، وكسله ، وجمال أسلوبه فى الخطابات الرسمية ، ونهمه الشديد لأطياب الحياة . أما الابن فقد كان يومئذ سكرتيراً لأبيه واستقال باستقالة رئيسه مما عده الناس حماقة فى التصرف . فاما أن ورث اللقب بعد بضعة شهور وأصبح اللورد فيرمور ، خصص كل ملكاته لدراسة فن الأرستقراطية العظيم ، فن البطالة . وكان يملك منزلين فسيحين ولكنه آثر أن يستأجر شقة فى لندن ليتجنب عناء الإشراف على منزل فسيح ، وتعود أن يتناول واجباته فى ناديه . وقد وجه اللورد فيرمور بعض التفاته إلى إدارة مناجم الفحم التى يملكها فى الميدلاندز وكان يعتذر عن اشتغاله بالصناعة ، وهو أمر مبتذل لا يغتر فى جنتلمان ، قائلاً إن للفحم مزية واحدة لا غناء عنها فى أى مجتمع سليم ، هى أنه يمكن الجنتلمان من استخدام الخشب فى مدفاته ، وهو ترف لا تعرفه السوق

مستهلكة الفحم . وكان في السياسة محافظاً حتى يصل المحافظون إلى الحكم فيخرج عليهم متهماً بإياعم بأنهم عصبية من المجددين . أما عن أخلاقه الشخصية فقد كان بطلاً في نظر خادمه الخاص لأن خادمه كان يتجبر عليه ، وكان كابوساً في نظر أفراد أسرته لأنه كان بدوره يتجبر عليهم . وكان يقول في كل مناسبة إن البلاد تنحدر إلى الحضيض . أما مبادئه الرجعية فقد كانت بالية وأما حقه الموروث على كل جديد فلم يعدم من يدافع عنه .

ودخل اللورد هنرى الغرفة فوجد عمه جالساً يدخن سيجاراً ويطلع صحيفة التايمز متذمراً . قال السيد العجوز :

— ماذا جاء بك يا هنرى في هذا الوقت المبكر . لقد كنت أحسب أن أمثالك من الوجهاء لا يستيقظون قبل الساعة الثانية ولا يقابلون الناس قبل الساعة الخامسة .

— أوكد لك يا عمي أن شوقى إليك هو الذى دفعنى إلى المجئ . لقد جئت لأطلب منك شيئاً .

فقال اللورد فيرمور عابساً :

— أظنك جئت تطلب مالا . اجلس واروى القصة من أولها إلى آخرها . إن شباب هذا الجيل يرون أن المال هو كل شيء في الحياة . قال اللورد وهو يصلح من عروته :

— هذا صحيح . وحين يتقدم بنا العمر ندرك صحة ذلك . ولكنى ما جئت لأطلب منك مالا ، فما يطلب المال إلا شخص يسدد ديونه ، وأنا لا أسدد ديونى مطلقاً . فالاستدانة رأس مال الابن الأصغر ، والحياة جميلة برأسمال كهذا . ثم إنى أتعامل مع تجار دار تمور ولهذا أسلم من المضايقة . إنما جئت لأطلب معلومات ، أقصد معلومات تافهة لا معلومات نافعة بطبيعة الحال .

— في استطاعتى أن أخبرك بكل ماورد في الدليل العام يا هنرى ، وإن

كان الدليل العام مشحوناً بالأكاذيب في هذه الأيام . لقد كانت الأمور خيراً مما هي الآن حين كنت في السلك . ولكن بلغني أخيراً أنهم يعتقدون امتحاناً لطالبي الالتحاق في هذه الأيام ، وهذا خطأ ياسيدي . فالامتحانات من أولها إلى آخرها كذبة كبيرة ، والجنّتان .

فقال اللورد هنري في تراخ :

— جئت أسألك عن مستر دوريان جرای وهو لم يرد في الدليل العام يا عمي .

فقال اللورد فيرمور وهو يعقد حاجبيه الكشيفين :

— ومن يكون مستر دوريان جرای هذا ؟

— هذا ما جئت أسألك عنه يا عمي . أنا أعرف من يكون ، فهو حفيد آخر لورد كلسو و أمه سليلة ديثيرو . أمه هي الليدي مرجريت ديثيرو ، وقد جئت لأعرف شيئاً عنها ، فحدثني عنها وعن زوجها . أنت عرفت أكثر أبناء جيلك ، فلعلك عرفت فيمن عرفت . وقد قابلت مستر دوريان جرای في الأيام الأخيرة فأثار اهتمامي .

قال اللورد فيرمور مسترجعاً الماضي البعيد :

— حفيد كلسو ! حفيد كلسو ! دعني أذكرك . حقاً ما أغباني ! نعم ، كنت أعرف أمه معرفة جيدة بطبيعة الحال ، وأعتقد أنني حضرت الإحتفال بتعميدها . لقد كانت مرجريت ديثيرو آية من آيات الجمال ، وأنارت غيرة الرجال حين فرت مع شاب مفلس لا يساوي شيئاً . نعم ، ياسيدي ، فرت مع جندي في فرقة المشاة أو ما يشبه ذلك . وأنا أذكر القصة كلها كأنها حدثت البارحة . نعم ، أذكر كيف قتل ذلك الشاب المسكين بعد زواجه ببضعة شهور في مبارزة مدبرة . وقد سمعنا يومئذ بإشاعة مخزية تقول إن كلسو قد كرى سفاحاً بلجيكيًا ليهين زوج ابنته أمام الناس . نعم ، ياسيدي : كراه بالمال ليقته فأجهز عليه كما تجهز على حمامة ودیعة ، وأخفيت

الحقيقة عن الناس ولكن أقسم لك أن أصدقاء كلسو قاطعوه زمناً طويلاً نتيجة لذلك الحادث . وقد بلغنى أنه رد ابنته إلى كنفه ولكنها رفضت أن تبادله الحديث حتى ماتت ، وقد ماتت بعد شهور قليلة . نعم ، ياسيدى ، لقد كانت قصة محزنة ، ولم أكن أعرف أنها ماتت عن ولد فقد نسيت الآن هذه التفاصيل . ما حال هذا الغلام ؟ إن كان قد ورث صورة أمه فلا بد أن يكون فتى وسيماً .

فقال اللورد هنرى مؤمناً على كلامه :

— إنه آية من آيات الجلال .

واستأنف السيد العجوز كلامه قائلاً :

— أرجو أن يجد هذا الفتى من يعنى به ، وإذا كان كلسو قد أحسن التصرف في ماله فسيجد هذا الغلام شيئاً كثيراً في انتظاره . كذلك كانت أمه من أهل الثراء ، فقد ورثت كل أملاك جدها في سلبى . وكان جدها يمتك كلسو ويحترقه لأنه كان كلباً قذراً . أذكر أنه هبط مدريد حين كنت بها فكان مصدر خجل دائم لى . وقد سألتنى الملكة مراراً عن ذلك النبيل الإنجليزى الذى كان في شجار مستمر مع الحوزية بسبب أجورهم ، وكانت فضيحة الموسم ، فلم أجرؤ على الظهور في البلاط شهراً كاملاً . أرجو أن يكون قد عامل حفيده خيراً مما كان يعامل الحوزية .

فأجاب اللورد هنرى :

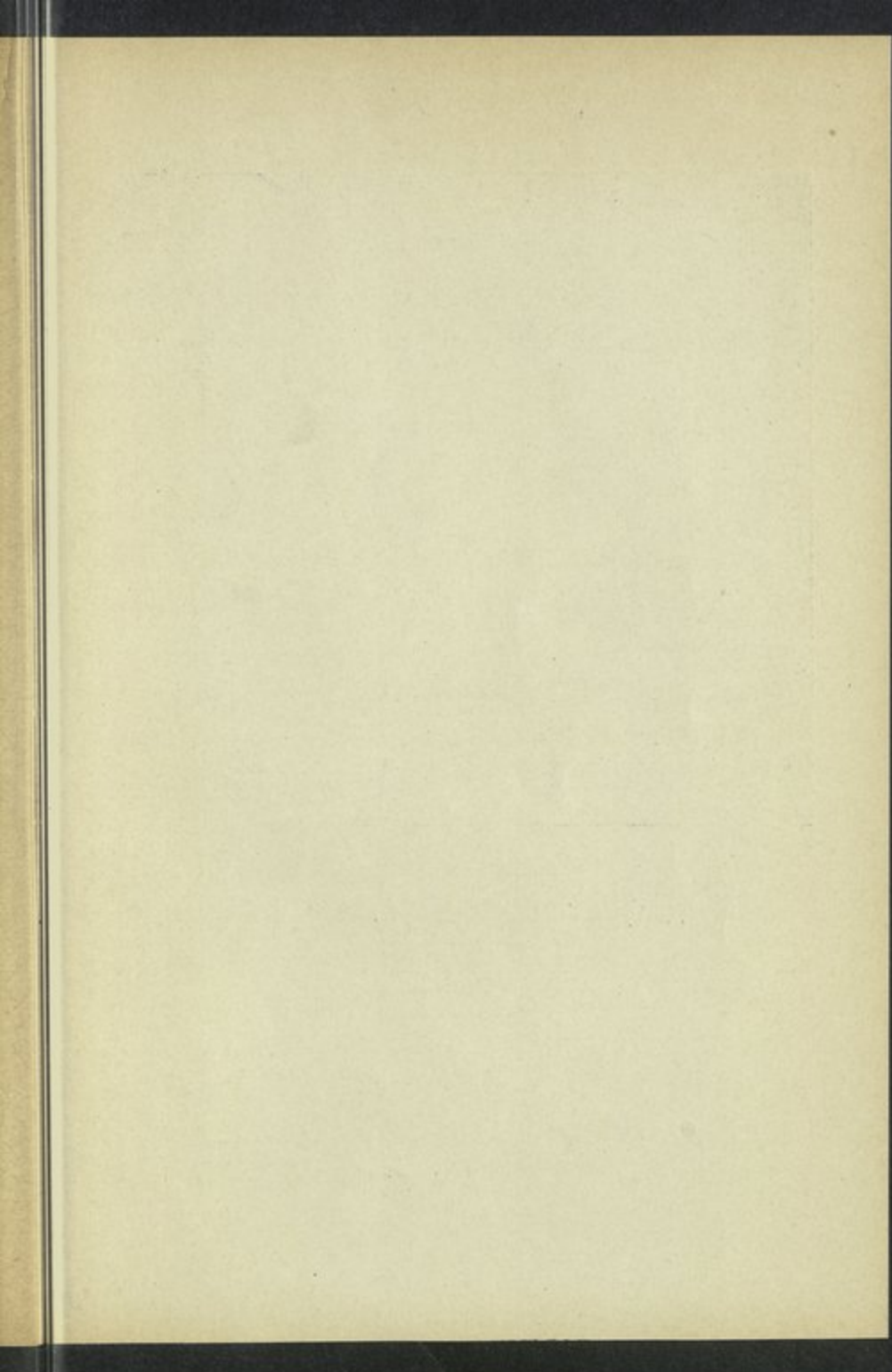
— لا أعرف عن هذا الموضوع شيئاً . ولكنى أظن أنه سيصبح من أهل الثراء حين يبلغ سن الرشد ، وإن كنت أعلم أن سلبى تقع في أملاكه لأنه ذكر لى ذلك بنفسه . أكانت أمه جميلة حقاً ؟

— نعم : لقد كانت مرجريت ديثيرو تحفة في الجلال ياهارى ، ولم أفهم قط ما الذى دفعها إلى ذلك المسلك الشاذ ، فقد كان في وسعها أن تزوج من تشاء من الرجال . فكاملنجتون مثلاً كان مجنوناً بحبها ولكنها كانت



صفحة ٣٤

رونظر اللورد إليه مليا . نعم . لاشك أنه كان آية في الجمال . . .



فتاة تميل إلى الخيال شأن سائر نساء أسرتها ، ويألفن من نساء رائعات ! أما رجال الأسرة فقد كانوا طغمة من الأوباش . يألفن من نساء رائعات . وقد جثا كارلنجتون أمامها مرة كما أخبرني بنفسه . فضحكت منه . أقول حدث هذا وقت أن كانت جميع بنات لندن يطاردهن ، وبمناسبة الكلام عن الزواج الشاذ يهاوى ، ما هذا اللغط الذي أسمعته عن رغبة دار تمور في أن يتزوج بأمرىكية . ألا يجد في انجلترا كلها فتاة واحدة تصلح له ؟

— إن الزواج بأمرىكيات هو آخر تطور في الذوق الانجليزي ياعمى .

فضرب اللورد فيرمور المائدة بقبضة يده وصاح :

— أنا أراهن بكل ثروتي على الفتاة الانجليزية .

— لكن الناس يراهنون الآن على الأمريكيات .

فأجاب عمه :

— لقد بلغني أنهن متقلبات .

— أعتقد أن الخطوبة الطويلة تجهدهن ، ولكنهن يجلين في سباق

الحواجز ، ففتاح قلوبهن السرعة ، ولا أعتقد أن دار تمور سيصادف نجاحاً كبيراً .

قال السيد العجوز ساخطاً :

— بنت من تكون هذه الفتاة ؟ ما أسرتها ؟ أها أمرة ؟

فأجاب اللورد هنرى وهو يتأهب للانصراف :

— إن الأمريكيات يجدن إخفاء نسبهن كما تجد الانجليزيات إخفاء ماضيهن .

— أغلب الظن أن أهلها يشتغلون بعمل الجامبون .

— من مصلحة دار تمور أن يكونوا كذلك ، فقد قيل لى إن عمل

الجامبون أربح مهنة في أمريكا بعد السياسة .

— أجميلة هي ؟

— إنها تسلك سلوك فتاة جميلة كما تفعل أكثر الأمريكيات ، وهذا

سر فتتهن .

— إذا كانت أمريكا حقاً جنة النساء كما نسمع دائماً من الأمريكيات فلماذا يخرجن من هذه الجنة .

فقال اللورد هنرى .

— ولكن أمريكا جنة النساء فعلاً ، وهذا بالذات ما يحملهن على الهرب منها كما هربت أمهن حواء من جنتها . والآن لا بد لى من الانصراف وإلا وصلت متأخراً للغداء فوداعاً يا عمه ، وشكراً على مازودتنى به من معلومات ، فأنا أحب أن أعرف كل شىء عن أصحابي الجدد وأحب أن أجهل كل شىء عن أصحابي القدماء .

— وأين تتناول غداءك اليوم يا هارى ؟

— عند عمتي أجانا . فقد دعوت نفسى ومستر جراى إلى مأدتها ، فمستر جراى آخر اكتشاف اكتشفته عمتي .

— إذا فأرجوك أن تبلغ عمتك أن تعفينى من نداءات البر التى توجهها إلى فقد ضايقها صدرى . إن هذه السيدة المباركة تحال أن عملى فى الحياة هو كتابة الشيكات لأعمالها الخيرية .

— سأبلغها ذلك قاعى وإن كنت أعرف أن كلامى لن يثمر ، فأهل البر يفقدون كل شعور إنسانى .

وصدرت من السيد العجوز أصوات غير واضحة معناها أنه يوافق اللورد هنرى فى رأى . ودق الجرس ليستدعى خادمه ، أما اللورد هنرى فصار مخترقاً ممراً سقفه ذو أقباء حتى بلغ شارع برلنجتون ثم سار فى اتجاه ميدان باركلى .

هذه إذا قصة دوريان جراى . إن اللورد فيرمور قد رواها له فى غير تنسيق ، ولكن أى قلب لا يضطرب لهذه الفاجعة العنيفة ، وأى خيال لا يتحرك أمام هذه القصة الغريبة ! لقد كان يحسب أن عصر الخيال قد مات ، ولكنه أدرك أن الخيال لا يزال حياً ، حتى فى القرن التاسع عشر . فيهاها

من مأساة مروعة . هذه امرأة جميلة تغامر بكل شيء لترضى شهوة جامحة .
ويا لها من أسابيع مشهودة تفيض بالسعادة وتنتهى بجريمة وحشية . ويا لها
من شهور طوال من العذاب الصامت تنتهى بميلاد طفل شقي بين الأحزان .
هذه أم تموت فى ريق العمر فتترك وليدها فى كنف رجل مسن منزو لا تعرف
الرحمة إلى قلبه سييلا ليسومه مر العذاب . لقد كان لدوريان جرای ماض غير
مألوف ، ماض خليق به ، فلا بد لهذا الجمل القدمن قصة فذة تمهد له ، والجمل
لا ينبت إلا فى بيت الأحزان . إن الطبيعة عرفت آلام المخاض حين تفتحت
فيها أول زهرة ، فكيف بدوريان جرای ذى الجمال القهار ! لقد جلس أمامه
فى الليلة السالفة يتناول معه العشاء فى النادى ، وكان فاعراً فاه مملقاً عاجباً ،
يغمره مزيج من الخوف والطرب ، وسقط عليه من الشموع نور أحمر ضرج
خده الوردى بورد جديد ، فبدأ كاله فائن مشدود . لقد كان الحديث معه
أشبه شيء بالنزف على كان حنون ، لأن أوتار قلبه كانت تهتز لكل كلمة يقال .
ما أشبه الخضوع لأفكار الغير بالعبودية ، وما أشبه إخضاع الغير لأفكارنا
بالاستعباد . إن التأثير فى الغير يكسب الانسان إحساساً بالقوة لا نظير له فى
الحياة . فما أجل أن تمتد الروح إلى الخارج وتسكن جسداً آخر ، ولولاحظات
معدودات . وما أجل أن يسمع المرء آراءه ترتد إليه كرجع الصدى دافئة
بنفس الشباب حلوة بإيقاعه الحنون . وما أجل أن يمتزج الطبع بالطبع امتزاج
السائل السحرى بالسائل السحرى أو امتزاج العطور . إنها لذة لا تعد لها لذة ،
ولعلمها كل ما بقى لنا من مباهاج الحياة فى هذا العصر السوقي المحدود ، هذا
العصر الغليظ الذوق الرخيص الأهداف الساعى وراء أفراس الجسد وحدها .
ولقد كان هذا الفتى الذى عرفه مصادفة فى استديو بازيل هولورود نموذجاً
عالياً لشباب الجيل ، ولو لم يكن لا يمكن أن يصاغ منه نموذج عال لشباب الجيل
على أية حال . فالفتنة ملك يديه وطهارة الصبا والجمال الذى اقتبس منه رخام
الأولين . إن دوريان جرای طينة لدنه فى يد من يصوغها . ولقد يكون منه

مارد شاهق أو دمية تلعب بها الأطفال ، فواها لهذا الجمال يوم يزول . ثم إن هناك بازيل ، وبازيل في ذاته دراسة نفسية ممتعة ! لقد كان بازيل صاحب أسلوب في الفن جديد ، وصاحب نظرة إلى الحياة جديدة ، وتلك النظرة استوحاها من إنسان ملهم لا يدرى أنه ملهم . ولقد كانت روحه فيما مضى روحاً صادقة نافرة تسكن الدغل المظلم وتمشى خفية بين الحقول ، وها هي الآن تتجلى فجأة في وضوح الضحى كأنها حورية من حور الغاب لا تجزع من شيء لأنها صحت على رؤيا عالم عجيب ، عالم فيه كل شيء صاف وكل شيء يرمز لفكرة مثالية لا تتحقق إلا به . وما أعجب هذه الرؤيا ! أو لم يصف لنا أفلاطون ، فنان الفكر ، هذه الرؤيا في القديم ؟ أو لم يجسدها لنا بوناروتي في رخام ملون متماسك كأنه قريض شاعر عظيم ؟ ولكن هذا كان ممكناً في الماضي ، أما في هذا العصر فهو المعجزة الكبرى . فليكن اللورد هنري لدوريان ، جرای إذا ما كانه دوريان جرای لبازيل هو لوورد ، وليسيطر على نفسه سيطرته على نفس الفنان . ولقد أصاب في ذلك بعض النجاح وسوف يتملك ذلك الروح البهي في قبضته كما يتملك الساحر الجان في قبضته . إنه ابن الحب والموت وهو نسب في طرفيه عظيم .

ثم توقف اللورد هنري فجأة عن المسير وأنشأ يتأمل المساكن فأدرك أنه قد تجاوز بيت عمته كثيراً ، فابتسم لشروود ذهنه وعاد إليه . وحين دخل القاعة الموحشة أنبأه كبير الخدم أنهم يتناولون الغداء ، فسلم قبعته وعصاه ودخل حجرة الطعام ، فلما أن رآته عمته صاحت به وهي تهز رأسها مؤنبه : — أراك قد جئت متأخراً كعادتك .

فأسعفه خياله بعذر من الأعذار المألوفة ، ثم احتل مكانه في المائدة إلى جوارها وأجال في المدعوين بصره فرأى دوريان في طرف المائدة وشاهده ينحني في خجل محيياً إياه وقد بدا عليه السرور لمراه . وكانت دوقة هارلي تجلس قبالة وهي سيدة محبوبية طيبة القلب حلوة الشمائل ولكنها كانت

قطعة نخمة من العماراة الازحة التي يراها مؤرخو هذا العصر في الدوقات فيسمونها صححة وعافية ويرونها في النساء العاديات فيسمونها بدانة واستكراشاً . وعن عينيها جلس السير توماس بيردون وهو عضو من أعضاء البرلمان راديكالى المذهب يتبع رئيس حزبه في الحياة العامة ويتبع أمهر الطهاة في الحياة الخاصة فتراه يأكل على موائد المحافظين ويشارك الأحرار نظرياتهم في الحياة تمشياً مع المثل السائر المعروف . وعن يسار الدوقة جلس مستر إرسكين وهو سيد مسن من أهل تريدلى لطيف المعشر واسع الثقافة لا يعيبه إلا عادة خبيثة واحدة هي صمته المستمر ، وقد اعتذر عن هذا الصمت مرة لليدى أجاثا بأنه استنفد كل ما فى جعبته من الكلام قبل أن يبلغ الثلاثين . أما جارة اللورد هنرى ذاته فكانت مسز فاندلور وهى صديقة من أقدم صديقات عمته أجاثا لها صفات القديسات ولكنها زرية الهيئة تذكر بكترك بكتاب من كتب التراتيل مهلهل الغلاف . وإلى جوار مسز فاندلور جلس اللورد فوديل وهو كهل فاشل فى عمله رغم ذكائه المتقد ، يذكر رأسه الأصلع ببيان وزارى فى مجلس العموم ، خلا من كل تنميق . وكانت جاراته تتحدث إليه فى جد وحماسة وهى غلطة لا تغتفر يتورط فيها ذوو النوايا الطيبة ولا ينجو منها أحدهم مهما اجتهد .

قالت الدوقة وهى تحيى اللورد هنرى بأشارة من رأسها :

— نحن نتحدث عن دار تمور المسكين يا لورد هنرى ، فهل تعتقد أنه

سيتزوج من تلك الأمريكية الساحرة كما يقال ؟

— أنا يا سيدتى الدوقة أعتقد أنها عازمة على أن تخطبه

فصاحت الليدى أجاثا :

— هذه نكبة ؛ أليس هناك من يتدخل ؟

قال السير توماس بيردون فى صلف واضح :

— لقد بلغنى من مصدر عليم أن أباهما يملك متجرّاً للبضائع الجافة .

— من رأى عمى أنه يتاجر فى لحم الخنازير المحفوظ .

فسألت الدوقة رافعة يديها الكبيرتين في تعب :

— وماذا تكون هذه البضائع الجافة ؟ نعم ، ماذا تكون ؟

فأجاب اللورد هنرى وهو يتناول سماته .

— البضائع الجافة هي القمصن الأمريكية .

فبدت الحيرة على وجه الدوقة لأنها لم تفهم معنى النكتة . وهمست لليدى أجانا في أذنها قائلة :

— لا تلتقي بالا يا صديقتى لما يقوله اللورد هنرى خديشه هزل متصل .

وقال عضو البرلمان الراديكالى :

— لما استكشفت أمريكا . . .

واسترسل في سرد بعض التفاصيل المملة وأراد أن يستنفذ الموضوع

فاستنفذ صبر سامعيه . وتنهدت الدوقة وباشرت حقها في المقاطعة فقالت :

— ليت أمريكا لم تستكشف قط ، فالأمريكيات لازلن يزاحمن بناتنا في

سوق الزواج حتى كسدت بضاعتهم ، وهذا ليس من الإنصاف فى شيء .

قال مستر إرسكين :

ومن يدرينا أنها استكشفت ؟ فأنا مثلاً أعتقد أننا لا نعرف عن أمريكا

إلا أنها قارة موجودة .

فأجابت الدوقة قائلة :

— هذا غير صحيح ، فقد رأيت نماذج من سكانها بنفسى ، ولا بد أن

أعترف بأنهم رائعون الجمل صاحبات أناقة يشترين كل ملابسهن من باريس

وكم تمنيت أن يكون لى المال الذى يعود على بكل هذا الترف .

كانت عند السير توماس تشكيلة كبيرة من الفكاهات القديمة فقذف

الحاضرين بواحدة منها . قال :

— يقولون إن أبرار الأمريكيين يذهبون إلى باريس بعد موتهم .

فسأله الدوقة قائلة :

— عجباً ! أين يذهب إذا أشرار الأمريكيين .

قال اللورد هنرى فى صوت خافت :

— يذهبون إلى أمريكا .

فعبس السير توماس بيردون وقال لليدى أجاثا :

— أرى أن ابن أخيك يا سيدتى متعامل على هذا البلد العظيم . لقد زرت أمريكا بلداً بلداً فى سيارات أعدھا لى مديرو الشركات ، فهم قوم يعرفون كيف تكووق الجمالة . وأؤكد لك يا سيدتى أن فى زيارة أمريكا ثقافة للزائرين .

فاعترض مستر إرسكين على ذلك بقوله :

— وهل من الضرورى أن أرى شيكاغو لتتم ثقافتى ؟ يا لها من رحلة مضيئة .

قال السير توماس مشيراً بيده :

— إن مستر إرسكين قد جمع العالم على رفوف مكتبته ، أما أمثالنا من الرجال العمليين فنحن نفضل أن نرى الدنيا لا أن نقرأ عنها . وأعتقد أن الأمريكيين شعب جدير باهتمامنا ، فهم أهل تفكير مستقيم ، بل إن التفكير المستقيم أول صفاتهم . نعم ، يا مستر إرسكين ، إن الأمريكيين أهل منطق لا يخطئ ، وأؤكد لك أن العقلة ليست من صفاتهم .

فصاح اللورد هنرى قائلاً :

— هذه مأساة ، فالقوة الصارمة يمكن احتمالها أما المنطق الصارم فلا سبيل إلى احتماله ، وليس من العدل استخدامه .

قال السير توماس محتداً :

— لست أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى .

قال مستر إرسكين مبتسماً :

— أنا أفهم ما ترمى إليه يا لورد هنرى .

قال السير توماس :

— إن التعبير عن الأشياء بنقائضها جميل في بابه ولكن . . .
فقطاعه مستر إرسكين قائلاً :

— لست أرى فيما قاله اللورد هنرى تعبيراً عن شيء بنقيضه ، ولكن ربما كنت مخطئاً في فهمي . مهما يكن من شيء فالتناقض طريق الحقيقة . فإذا أردنا أن نتأكد من صدق شيء وجب أن نراه من جميع وجوهه . وجب أن نرى الحق يلعب أمامنا كالبهلوان الذي يسير على جبل مشدود .
قالت الليدي أجاثا :

— ويلنا منكم معشر الرجال ، فكم تحبون الجدل ! أقسم أني لا أفهم كلمة واحدة مما تقولون . أما أنت يا هاري فأنت مستاء منك أشد الاستياء لأنك تحاول أن تصرف مستر دوريان جرای عن الاهتمام بالفقراء ، وأؤكد لك أن في امتناعه عن الاشتراك في أعمال البر خسارة لا تعوض ، فقراء الإيست إندسيمرون به إذا رفته عنهم بالمقطوعات الموسيقية .
فابتسم اللورد هنرى ونظر إلى دوريان جرای فلقى في وجهه ما يشجعه فقال :

— لأنني أريده أن يرفه عني أنا بالمقطوعات الموسيقية .
اعترضت الليدي أجاثا قائلة :

— ولكن الفقراء في هوايت تشايل في شقاء لا يوصف .
فقال اللورد هنرى وهو يهز كتفيه إستخفافاً :

— إن صدرى يتسع لكل شيء ولكنه يضيق بالشقاء . نعم ، أنا لا أعطف على الشقاء ، فالشقاء بشع ، الشقاء كربه ، الشقاء يكسر القلوب ، وأنا أرى أن اهتمام أهل هذا الجيل بالألم نوع من المرض ، فالواجب أن نهتم بألوان الحياة الزاهية ، بجماهاها ، بأفراحها . نغير لنا أن ننسى أوجاع الحياة .
قال السير توماس وهو يهز رأسه كأنه يدلي بتصريح خطير :

— ولكن الإيست إند مشكلة رغم كل ما تقول .

فأجابه اللورد الشاب قائلاً :

— لست أشك في ذلك . إنها مشكلة العبودية ونحن نحاول حلها بتسليّة

العبيد .

فنظر السياسي إليه نظرة فاحصة وسأله :

— إذا فأى تغيير تقترح إجراءه لحل هذه المشكلة ؟

ضحك اللورد هنرى وقال :

— أنا لا أقترح تغيير شىء في انجلترا إلا جوها ، ويكفينى من الإصلاح

مجرد التفكير الفلسفى فيه . ولكن إذا كان القرن التاسع عشر قد استنفد

كل ما يملكه من عطف على فقرائه حتى أفلس تماماً فأنا أقترح أن نلجأ إلى

العلم لعل العلم يقوم اعوجاجنا . إن مزية العواطف أنها تضللنا ، ومزية العلم أنه

خال من العواطف .

واجترأت مستر فاندلور على الاشتراك في المناقشة وقالت في حياء :

— ولكن مسئولياتنا خطيرة .

وأيدتها الليدى أجاثا قائلة .

— بل جد خطيرة .

فنظر اللورد هنرى إلى مستر إرسكين وقال :

— إن الإنسانية تمتم بنفسها أكثر مما ينبغى ، ويبدو أن هذه هي

خطيئتنا الأولى ، فلو أن رجل الكهف تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ .

قالت الدوقة في تنغيم مضحك :

— إن حديثك يتزل على قلبى برداً وسلاماً يا لورد هنرى ، فكلمنا جئت

لأعود عمتك عنفى ضميرى لقلّة اهتمامى بالإيست إند . أما وقد عرفت رأيك

فلن أخجل منها بعد الآن .

فقال اللورد هنرى :

— إن الخجل يناسب السيدات يا سيدتى الدوقة .

فأجابت

— نعم ، إذا كن فى مستقبل العمل ، أما مثيلا تى من العجائز فالخجل
قيهن دلالة سيئة . واهما على الشباب يا لورد هنرى ! هلا علمتنى كيف أستعيد
شبابى !

ففكر لحظة ثم سأها :

— أذكركن حماقة كبرى ارتكبتها فى شبابك يا سيدتى الدوقة !

قالت :

— أجل . بل أذكر حماقات وحماقات .

قال فى لهجة جادة :

— إرتكبتها إذاً من جديد ، فلن يستعيد إنسان شبابه إلا إذا ارتكب
حماقاته من جديد .

فصاحت الدوقة قائلة :

— هذه نظرية جميلة ، وسأعتمد إلى تطبيقها فوراً يا لورد هنرى .

قال السير توماس :

— بل هذه نظرية خطيرة !

وهزت الليدى أجاثا رأسها ولكن بدا عليها السرور . أما مستر إرسكين
فأنشأ يستمع إلى اللورد هنرى وهو يعضى فى حديثه قائلاً :

— نعم هذا سر من أسرار الحياة الكبرى . فنحن اليوم نفتك بنا وباء
نسميه التفكير السليم ، وهو يدب فى أعضائنا قليلاً قليلاً حتى يشلنا تماماً
فنموت ، وعندما نفقد كل شىء ندرك أن أخطاءنا هى الأشياء الوحيدة التى
لانتدم عليها فى الحياة .

فضحك القوم .

فلما رأى أن الفكرة أعجبتهم أعطاهم المزيد فيها . ووافق يلعب بها ويخرج

منها شتى التخريجات ثم يستطرد وما توشك أن تفلت من يده الفكرة حتى يتلقفها من جديد . وهكذا اجتهد فيها حتى وضع عليها كل توابله . وهكذا اجتهد فيها حتى طلاها بهريق الخيال وزودها بأجنحة التعبير السحري . وما أن فرغ من بيانه حتى أصبح تمجيد الحماقة بفضلها فلسفة ناضجة ، وأصبحت الفلسفة الناضجة بفضلها عذراء بقاء خضب النبذ ثيابها وتوج الغار رأسها تشاق إلى اللذة الحرام وترقص فوق تلال الحياة رقصة البنات المثالي في أساطير اليونان وتعنف باخوس على صحوه وآثرانه ، ووطئت قدمهاها البيضاوان حان الخيام حكيم الزمان وخاضتا في عصير العنب الذي فاض من حولها أنهارا ، وبلت ضفائرهما فقايع النبذ الأرجواني حين طفح زبد الاحمر على جوانب الدن السوداء وانحدر قطرة قطرة . وكان حديثه مرتجلا لا أثر للتحضير فيه ولكنه ملك القلوب . وفيما هو يتكلم أحس بعين دوريان جرای تحملقان فيه فذهب ذلك بجنانة وفتق ذكاه وجعله ينمق ويجود ويحسن التأويل لعله يوقظ وجدانه ويأسر فؤاده . وتتابع عباراته زاهية الألوان رخيمة الانعام خطيرة على السامعين . وفتن كلامه الحاضرين فنعى كل نفسه وراح يتبع هذا المزمار الطروب ويرقص على أنغامه الجذلة . كل هذا ودوريان جرای لا يحول عنه عينيه ، بل ثبت في مكانه كالمسحور يبتسم الرضا على شفقيه وتحملق الاحلام في عينيه .

وأخيراً أفاقوا على الحقيقة . وكانت الحقيقة التي قطعت عليهم هذا الجو المرح هي خادم الدوقة . دخلت الحقيقة من الباب ترتدى ثياب العصر وأعلنت أن عربة الدوقة تنتظرها ففركت الدوقة يديها تتكاف غصص اليأس وقالت : — يالآنكد ! لابد أن أنصرف لآلتى بزوجى فى النادى ومن ثم أنصحبه إلى اجتماع سخيى فى بيت واليس ليرأس الاجتماع ، ولو تأخرت عنه لغضب غضباً شديداً ، وأنا الآن فى حالة لأحتمل معها الشجار . فيجب أن أنصرف يا عزيزتى أجبانا . الوداع يا لورد هنرى . إنك لرجل ساحر ومفسد للأخلاق

ولست أدرى كيف أستقبل آراءك هذه . لا بد أن تأتي للعشاء معنا في أقرب فرصة ، أيناسبك يوم الثلاثاء ؟ ما رأيك في يوم الثلاثاء ؟
فانحنى اللورد هنرى بأدب جم وقال :
— إني لأبطل أى موعد في سبيل إرضائك يا سيدتى الدوقة .
فقالت :

— هذا كرم منك ، ولكنه خطأ عظيم ، مهما يكن من شئ ، فنحن في انتظارك . وخرجت الدوقة من الغرفة تتبعها الليدى أجاثا وسائر السيدات ، ولما استعاد اللورد هنرى مكانه انتقل مستر إرسكين إلى جواره وأمسك بذراعه قائلاً :

— إن كلامك يملأ المجلدات باللورد هنرى ، فاماذا لاتضع كتاباً .
فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

— إن شغفى بالقراءة يجعلنى أزهى فى الكتابة يا مستر إرسكين . لاشك أنى أحب أن أضع قصة يوماً ما ، قصة تشبه البساط العجيبى فى جمالها وغرابة تصميمها . ولكن الجمهور فى انجلترا لا يهتم إلا بالصحف وبالكاتب المدرسية وبدوائر المعارف . إن الإنجليز أفسد أهل الأرض ذوقاً من الناحية الأدبية .
قال مستر إرسكين :

— أعتقد أن هذا صحيح لسوء الحظ ، ولقد كانت لى أطماع أدبية منذ زمن طويل ولكنى طلقته . والآن يا صديقى الشاب ، هل لى أن أسألك إذا كنت حقاً تعتقد فى كل ما قلته لنا أثناء الغداء ؟
فابتسم اللورد هنرى وأجاب :

— لقد نسيت ما قلته تماماً . أكان كلامى معيباً حقاً ؟

— نعم ، كان معيباً إلى حد كبير ، وأنا أعدك رجلاً خطراً على المجتمع ، ولو أصاب الدوقة مكروه لاحتلتك جميعاً تبعه ذلك . ولكنى مع ذلك أتوق إلى استطلاع آرائك فى الحياة ، فالجيل الذى انتمى إليه جيل ممل . وإنه

ليسرنى أن تزورنى فى تریدلى يوم تزهّد فى لندن . وفى تریدلى تستطيع أن تشرح لى فلسفة اللذة التى تبشر بها بين كئوس النبيذ البورغونى النادر . — ذلك يسعدنى حقاً يا مستر إرسكين ، فى زيارة تریدلى شرف عظيم لى . وسوف أجد فيها مضيفاً كريماً ومكتبة رائعة .

فأخنى مستر إرسكين بأدب وأجاب :

— إن مكتبتى لن تكمل إلا بك . والآن يجب أن أستأذن عمّتك الفاضلة فى الانصراف ، لأن على أن أكون فى نادى الأثنيوم فقد حل موعد نوم الأعضاء .

— أتنامون جميعاً فى النادى يا مستر إرسكين ؟

— نعم . نحن أربعون عضواً ننام فى أربعين مقعداً وثيراً ، ونحن بذلك نضع نواة أكاديمية أدبية .

ضحك اللورد هنرى ونهض قائلاً :

— أما أنا فساخرج للترهه فى هايد پارك .

وفى ما هو خارج ضغط دوريان جرای على ذراعه وقال بصوت خافت :

— اسمح لى أن أرافقك .

فقال اللورد هنرى :

— ألم تعد بازيل هولورد بزيارته ؟

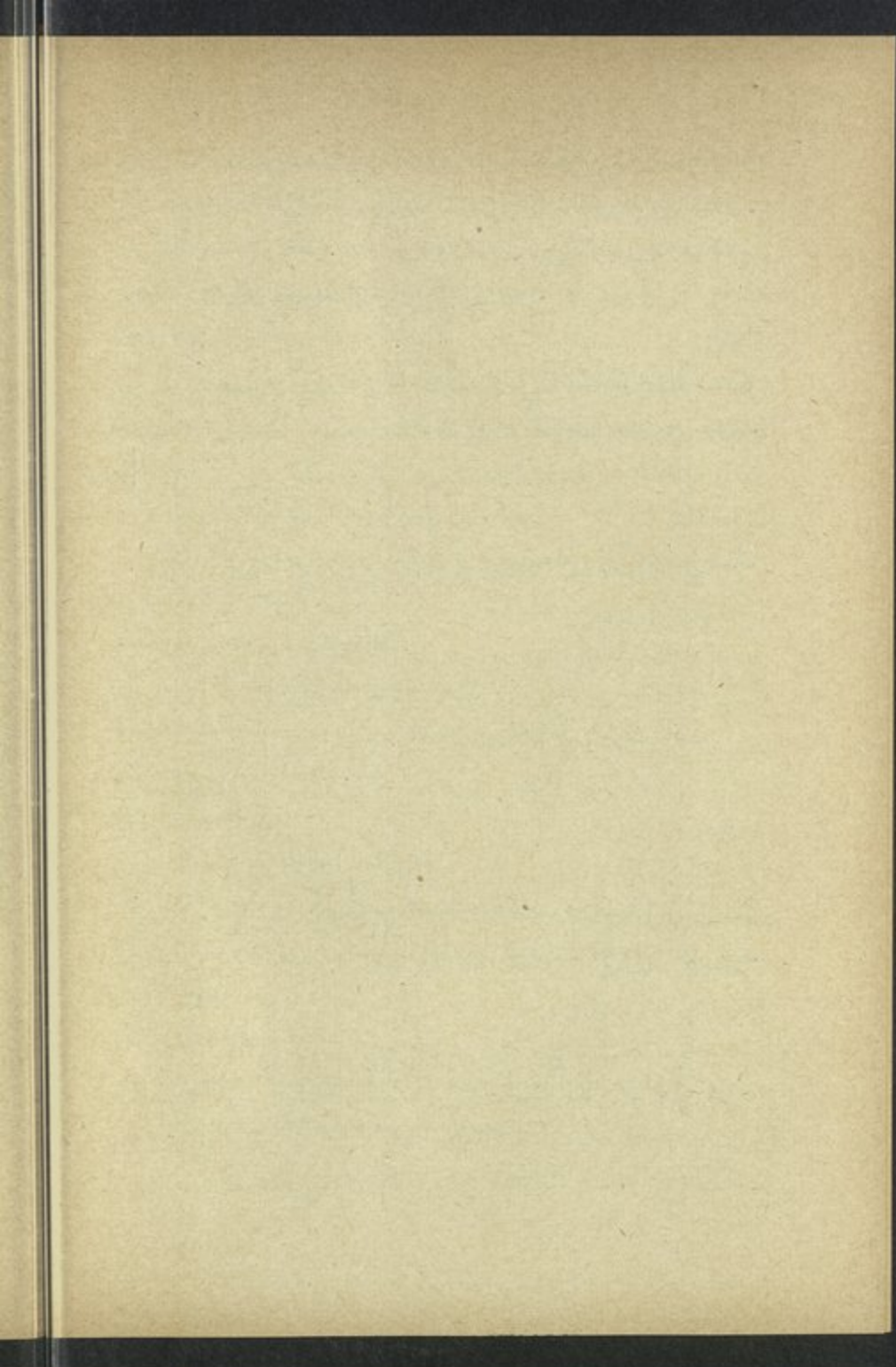
— هذا صحيح ، ولكننى أفضل صحبتك ، وشعورى يميل على أن أرافقك

فأسمح لى بذلك ، وعدنى بأن تتحدث إلى طول الوقت فما من أحد يجيد الحديث كما تجيده أنت .

قال اللورد هنرى مبتسماً :

— لقد تحدثت اليوم بما فيه الكفاية ، وكل ما أبغيه هو أن أستعرض

موكب الحياة ، فتعال لتستعرضه معى إذا أحببت .



الفصل الرابع

*

مر شهر من الزمان . وكان دوريان جراى جالساً فى استرخاء على مقعد كبير وثير بمكتبة اللورد هنرى فى بيته بحى مايفير . وكانت المكتبة حجرة صغيرة أنيقة على طريقها الخاصة ، تكسو جدرانها ألواح من البلوط عالية طلاؤها أخضر ويزدان سقفها السمنى وكورنيشها السمنى بنقوش من المصيص البارز ويعطى أرضها بساط من الجوخ الأحمر فوقه عدد من السجاجيد العجمية ذات الشرارب الحريرية الطويلة . وعلى مائدة صغيرة بالحجرة وقف تمثال صغير لـكلوديون وإلى جانب التمثال كانت هناك نسخة من كتاب « القصص المائة » جلد كلوئيس إيث فى الأيام الغابرة للملكة مرجريت دى فالوا ، وعلى السكتاب وشى من الأقاص الذهبية التى اتخذتها الملكة شارة لها . وقدرُصَّت على رف المدفأة بعض الأواني الصينية الكبيرة الزرقاء . ونفذ الضوء فى ذلك اليوم الصائف من النافذة فبدا لونه كلون البرتقال المنطفيء . ولم يكن اللورد هنرى قد عاد بعد إلى بيته ، فقد كان من مبدأه أننا نضيع العمر بالمواظبة ، ولذا بدا على دوريان جراى شيء من العبوس وهو يقلب صحائف نسخة من قصة « مانون ليسكو » محلاة بأجمل الصور وجدها على أحد رفوف المكتبة . وكانت بالحجرة ساعة دقاقة من طراز لويس الرابع عشر ظلت تدق دقاً منتظماً أثار أعصابه ، وخطر له مرة أو مرتين أن ينصرف ، ولكنه سمع أخيراً وقع أقدام فى الخارج ، وانفتح الباب فقال التفتى فى صوت خافت :

— لقد تأخرت كثيراً يا هارى !

ولكن صوتاً حاداً أجابه مصححاً :

— إن هارى لم يصل بعد يا مستر جراى .

فالتفت دوريان جرای إلى الباب بسرعة ، وحين أدرك خطأه بادو بالوقوف وقال :

— أطلب عفوك يا سيدتى ، فقد حسبت . . .

— نعم ، حسبت أن زوجى هو الداخل . اسمح لى أن أعرفك بنفسى .
فأنا زوجة هارى ، وقد عرفتك من صورتك لأنى رأيت صوراً منك كثيرة
وأظن أن زوجى قد جمع سبع عشرة صورة من صورتك .

— سبع عشرة صورة يا ليدى هنرى ؟

— هل أخطأت فى العدد ؟ لعله جمع ثمان عشرة . كذلك رأيتك معه
ليلة أمس فى دار الأوبرا .

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ورنّت إليه بعينين ناعستين وكانت
الليدى هنرى امرأة غريبة حقاً ، فثيابها تدل على اضطراب صالعتها واضطراب
لابسها معاً . وكانت بلا انقطاع عاشقة بلا عشيق مما أبقي على أوهامها عن
الحب . ثم إنها كانت تتعمد الإهمال فى ملبسها لتلفت الأنظار إلى جمالها
فتلتفت الأنظار إلى إهمالها ، وكان اسمها فكتوريا . وكانت تتردد على
الكنيسة بكثرة تدل على الجنون .

— إذاً فقد رأيتنى فى دار الأوبرا ؟ أظن أن ذلك كان ليلة
« لوهنجرين » يا ليدى هنرى .

— نعم ، كان ذلك ليلة « لوهنجرين » ، وأنا أحب فأجتر أكثر من
أى موسيقى آخر ، لأن الحانة عالية الضجيج ، وهذا يدع لى فرصة للكلام
أثناءها دون أن يسمع أحد شيئاً مما أقول ، وهذه مزية كبرى . ألا توافقنى
على ذلك يا مستر جرای ؟

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ثانية ، على حين أخذت أصابعها تعبت
بنصل من النصال التى يقطع بها الورق صنع من ظهر السلحفاة ، فابتسم
دوريان وهز رأسه قائلاً :



صفحة ٦٩

ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديق لفاتني أجل تجربة مرت بي في حياتي . . .

— يؤسفني أن أختلف معك في هذا الموضوع يا ليدى هنرى . فأنا لا أتكلم بتاتاً حين أسمع الموسيقى الجميلة . أما إذا كانت الموسيقى رخيصة فمن الواجب إسكتها بالكلام .

— ولكن هذا رأى من آراء هارى يا مستر جراى ، أليس كذلك ؟ إن آراء هارى تصلنى عن طريق أصدقائه ، ولولا ذلك لما عرفت منها شيئاً . ولا تظن يا مستر جراى أنى أكره الموسيقى الجميلة ، فأنا أقدمها ، بل أعبدها ، ولكنها تخيفنى . كذلك أقدم الموسيقيين بل أعبدهم ، ولكنكم شغفت بعازفى البيانو حتى أن هارى كان يذهبنى إلى أنى أعشقهم أزواجاً أزواجاً فى بعض الأحيان . ولست أعرف ما يحملنى على حبهم ، ولكن لعل منشأ حبى لهم أنهم أجانب ، فعازفو البيانو جميعهم من الأجانب ، أليس كذلك ؟ حتى الإنجليز منهم يصبحون بعد قليل أجانب ، أليس كذلك ؟ وأعتقد أن هذه مهارة منهم كما أنها تحية للفن الذى يخدمونه ، فهى تخرج به عن دائرة انجلترا الضيقة وتصبغه بصبغة عالمية . أنت لم تحضر أى حفلة من حفلاتى يا مستر جراى ، ولا بد أن تشرفنى مرة بزيارتك . وإذا حضرت حفلة من حفلاتى فلن نجد فى بيتى أزهار الأوركيد ، فهى غالية الثمن إلى حد لا يطاق ، ولكنك ستجد فيه كثيراً من الأجانب لأن الأجانب يزينون البيت ، وأنا أدعوهم باستمرار مهما غلا ثمنهم . ها قد جاء هارى ! اسمع يا هارى . لقد جئت لأستفسر عن شئ ولكنى نسيت الآن ما جئت لأستفسر عنه ، وقد وجدت مستر جراى هنا وتحدثنا عن الموسيقى حديثاً شهيماً ، وأعتقد أن آراءنا متشابهة تماماً . كلا . إن آراءنا ليست متشابهة تماماً بل مختلفة تماماً . ولكنى سررت ببقاءه على أية حال فقد كان مثال اللطف معى .

— أنا سعيد بذلك يا حبيبتى ، نعم ، سعيد . ولا تؤاخذنى يا دوريان إذ كنت قد تأخرت ، فقد قصدت شارع وار دور لأشتري قطعة من الدتلا الأثرية ، وضاعت منى ساعات طويلة فى المساومة . إن

الناس في هذه الأيام لا يعرفون قيمة شيء ، ويعرفون ثمن كل شيء .
ثم حل صمت ثقيل فقطعته الأيدي هنري بصحبتها الصبيانية
الفجائية وقالت :

— لا بد أن أنصرف الآن ، فقد وعدت الدوقة أن أرافقها في زهرتها .
إلى اللقاء يا مستر جرای ، وأنت يا هاري ، إلى اللقاء . وأعتقد أنك ستتناول
العشاء خارج المنزل ، فإذا كان الأمر كذلك فقد أراك في بيت
الليدي ثورنبري .

قال اللورد هنري :

— أرجح ذلك يا حبيبتي .

وخرحت الليدي هنري على عجل وتركت وراءها عطراً خفيفاً في جو
الغرفة ، فبدت كعصفور من عصافير الجنة هجر عشه طول الليل وبلله المطر .
وأغلق اللورد هنري الباب وراءها ثم أشعل سيجارة وارتمى على إحدى
الأرائك وقال وهو ينفخ الدخان في الهواء :

— أنصحك يا دوريان ألا تتزوج من شقراء .

— لماذا ؟

— لأن النساء الشقراوات عاطفيات .

— ولكنني أحب النساء العاطفيات .

— إذا فلا تتزوج أبداً يا دوريان ، فالرجال يتزوجون حين يقتلهم الملل ،
والنساء يتزوجن من باب الفضول ، ولكنهم جميعاً يندمون على ذلك .
— لا أعتقد أنني سأتزوج يا هنري ، فانا أحب ، وحي عاصف مدمر ،
ومن كان حبه عاصفاً مدمراً لا يحق له أن يتزوج . هذه حكمة أخذتها عنك
يا هنري ، وما أنذا أطبقها تطبيقاً عملياً كما أفعل بكل ما تقول .

وبعد صمت قليل سأله اللورد هنري قائلاً :

— ومن تكون هذه المحبوبة ؟

فأجاب دوريان جرای فی خجل :

--- إنها ممثلة .

فوز الأورد هنرى كتفيه استخفافاً وقال :

— هذه بداية ممثلة ، وقد كنت أحسب أنك ستأتى بجديد .

— لا شك أن حكمك كان يختلف لو أنك رأيتها يا هارى .

— وما اسمها ؟

— سيديل ثين .

— ما سمعت هذا الاسم قط .

— إنها الآن نكرة من نكرات المسرح ولكنها ستصبح عالماً من

أعلامه يوماً ما ، فهي فتاة نابغة .

— أنت تبالغ يا صديقى ، فالنبوغ ليس من صفات النساء . إنما النساء

تحف تزين الحياة ، فادمغتهن لا تشمل على فكرة واحدة ولكن حديثهن ساحر .

المرأة تمثل انتصار المادة على العقل والرجل يمثل انتصار العقل على الضمير .

— ما أقسى أحكامك يا دوريان !

— أنا أقدر ما أقول يا صديقى ، فأنا أشتغل الآن بتحليل نفسية النساء

وقد وجدت الموضوع أوضح مما كنت أتوقع ، فتحليلى دلنى على أن هناك

نوعين لا ثالث لهما من النساء : المرأة الطبيعية والمرأة المزججة . أما المرأة

الطبيعية فلها فوائد جمة ، ويكفى أن يراك الناك الناس تتعشى مع امرأة طبيعية

حتى يصفوك بالوقار . أما المرأة المزججة فسحرها عظيم ولكن لها عيباً

واحداً ، وهو أنها تستعمل المساحيق لتغير من سننها . لقد كانت جداتنا

يستعملن المساحيق ليجدن فن الحديث ، لأن أحمر الشفاه يلهب الذكاء ، وقد

انتهى ذلك العصر . أما اليوم فالمرأة لا يرتاح لها بال حتى تبدو أصغر من

بفتها بعشر سنوات على الأقل . أما عن فن الحديث فقد فقدته نساؤنا ، ولن

نجد الآن فى لندن كلها أكثر من خمس سيدات حديثهن كيشوق ، منهن

اثنتان لا يسمح لها بدخول الأوساط الشريفة . ولكن حدثني عن فتاتك
النايغة هذه . متى عرفتها ؟

— إن آراءك تخيفني يا هاري .

— دعنا من هذا الآن . متى عرفتها ؟

— منذ ثلاثة أسابيع تقريباً

— وأين عرفتها ؟

— سأروي لك حكايتها كاملة يا هاري ، ولكنني أطلب منك أن تكون
منصفاً ، وتذكر أنك السبب في كل ما حدث لأن حياتي تبدلت منذ عرفتك .
لقد أثرت في رغبة جامحة لمعرفة كل شيء ، وظلت أياماً بعد لقائنا الأول
يمدبني فضول شديد ، فما من مرة جلست في هايدپارك أو مشيت متسكعاً في
بيكاديلي إلا وكنت أتفحص الغادين والرائحين وأفكر في حياتهم الخاصة
كيف تكون . وكنت أسترجع إلى بعضهم وكان بعضهم يملؤني جزعاً وهكذا
انتشر في جو حياتي سم للذئذ وتفتحت حواسي لكل ما يرضيها . وحدث
ذات مساء أن خرجت نحو الساعة الخامسة أنشد المغامرة ، وأحسست أن
لندن ، مدينتنا البشعة الغبراء هذه بخلائقها الحاشدة وخطاياها الجميلة
وخطاياها الأشقياء كما وصفتها أنت مرة يا هاري ، أحسست أن هذه المدينة
قد خبأت لي في مجاهلها شيئاً . وجاء بيالي ألف خاطر وخاطر ، وأحسست
بالخطر يدنو فأذكي إحساسي بالخطر إحسامي بالحياة ، وتذكرت قولك لي يوم
تعشيننا معاً أول مرة إن سر الحياة الحقيقي هو البحث عن الجمال . ولم أكن
أطلب شيئاً بعينه بل مضيت أتجول شرقاً ثم ضللت طريقي في تيه معقد من
الشوارع المظلمة والميادين السوداء الجرداء . فلما بلغت الساعة الثامنة
والنصف وجدتهني أمام مسرح مهمل صغير مصابيح عالية وإعلاناته خالية
من الذوق ، ورأيت ببابه يهودياً يلبس صداراً لم أر مثله في حياتي ويدخن
سيجاراً قدراً ، وعلى صدره تدلت سلسلة كستها المواد الذهبية ولمعت ماسة

ضخمة وسط قيصره . وحين وقع بصره على رفع قبعته فى تذلل عظيم وهتف
بى قائلاً : « أترغب فى مقصورة يا سيدى اللورد ؟ » فجذبنى منظره لأنه بدا
كالوحش الضارى ، وتقذته جنبها كلاماً ثم وجدت طريقى إلى المقصورة
الامامية . ولعلك تسخر من مستلكى العجيب هذا ، ولكنى لا أعلم ماذا
حملنى على الدخول . ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديقى لفاتتنى أجل تجربة مرت
بى فى حياتى . ها أنت تضحك سخريه منى فما أقساك يا هارى .

— لست أضحك ، أقصد لست أضحك سخريه منك ، ولكن لا تقل
أجل تجربة مرت بك بل قل أول تجربة . فسوف تجد دائماً من تحبك ، وسوف
تطلب الحب لذاته دائماً . فالعواطف الصاخبة حكر لأمثالنا من المتبطلين وهى
المبرر الأوحى لوجود أرستقراطية خاملة . فلا تخش شيئاً يا دوريان لأن
المستقبل يحبب لك السعادة التى تنشدها ، وما هذه إلا البداية .
فقال دوريان جراى غاضباً :

— أتحسبنى تافه العاطفة إلى هذا الحد ؟

— كلا . بل أحسبك قوى العاطفة إلى حد كبير .

— ماذا تعنى ؟

— اسمع يا بنى إنما يؤمن بالتخصص أصحاب العقول التافهة . وما يسمونه
بالوفاء أسميه أنا الكسل الناجم عن العادة أو أسميه فقراً فى الخيال حسب
الحالة . إن الإخلاص فى الحياة العاطفية يشبه انتظام التفكير فى الحياة العقلية ،
وكلاهما أماراة الفشل . ما هذا الوفاء الذى يتحدث عنه الناس ! لا بد أن أحلله
يوماً من الأيام . إنه يقوم على غريزة الملكية وكم من شئ لا نجد بأساً من
لفظه لولا خوفنا من أن يلتقطه الآخرون ولكن امض فى روايتك فأنا
لا أحب أن أقطعك .

— أقول وجدتني جالساً فى مقصورة صغيرة قبيحة المنظر ووجدت
أمامى على المسرح مباشرة ستاراً عليه نقوش مبتذلة ، وأجلت بصرى فى

جنبات الدار من وراء ستار مقصورتی فوجدتها داراً حقيرة تزینها رسوم
سخيفة لـكوييد وما شاكل ذلك . وكانت الصالة والشرفات ملاءى بالنظارة
ولكن المقاعد الامامية كانت خالية تماماً . وكنت ترى بالعمات البرتقال ،
وشراب الليمون يجلس بين الحضور ، وكنت تسمع الحضور يقشرون الفول
فی جلبه لاحد لها .

— ما أشبه هذا المسرح بمسرح شكسبير !

— أعتقد أنه يشبهه من كل الوجوه ، ولكن نفسی ضاقت به ، ولم أدر
ما يجب علیّ أن أفعله ، ثم لمحت جثة لوحة كُتب عليها اسم الرواية . فإذا
تظنها كانت ياهارى ؟

— لعلها كانت رواية « الأبله » أو رواية « المغفلة البريئة » فأبأونا
كانوا يحبون هذا النوع من المسرحيات ، وأنا فی كل يوم أزداد اقتناعاً بأن
ما كان يصلح لآبائنا لم يعد يصلح لنا ، سواء أكان ذلك فی الفن أو فی السياسة .
والمثل الفرنسي يقول « الأجداد دائماً مخطئون » .

— ولكن الرواية كانت « روميو وجوليت » وهی من الروایات التي
تصالح لنا ياهارى . وأعترف لك بأن فكرة تمزيق شكسبير فی ذلك الحجر
القدر ضایقنی كثيراً ، بيد أنني قررت أن أشاهد الفصل الأول . وسبقت
التمثيل قطع موسيقية عزفتها فرقة مزعجة علی رأسها شاب يهودی ظل يدق علی
بيانو مهشم حتى كدت أنصرف من فرط غیظی . ولكن الستار ارتفع
أخيراً ، وبدأ التمثیل ، وخطر روميو علی المسرح فأذا به كهل بدین يشبه
برميل البيرة ، له حاجبان مضحكان وصوت أجش يصلح فعلاً لتمثيل الماسی .
ولم يكن مركوشيو بأحسن حالا من روميو ، فقد كان يقوم بدور مركوشيو
مضحك رخيص كثيراً ما زجّ بین سطور شكسبير فكاهات من عنده ، كما
أنه كان يعطل التمثیل أحياناً ليتبادل الفكاهات مع الجمهور . نعم ، كان روميو
ومركوشيو جديرین بالسخرية ، كما كان المنظر ذاته جديراً بالسخرية ، فقد بدا

بيت السيد كايوليت بشير ونا كانه بيت من بيوت الفلاحين . ولكن چوليت
كانت آية عجبا ياهارى ! كانت دون السابعة عشرة يشبه وجهها الصبح
المستدير الزهرة المفتحة ويشبه رأسها الصغير الدقيق إلهة من آلهة اليونان
ذات صفائر لا هي بالسوداء ولا هي بالشقراء . أما عيناها فقد كانتا ينبوعين
ينفضان بالعواطف السخية ، بل كانتا بنفسجتين يترجرج فيهما قطر الندى ،
وأما شفتاها فهما أوراق الورد . نعم ، كانت چوليت آية عجبا . وأنت القائل
إن مشهد الأمي لا يحرك فيك ساكنا ، وإن مرأى الجمال وحده هو الذي
يزلزل كيالك ويجمع في عينيك العبرات . فلتصدقني إذا ياهارى حين أقول
إني ماكدت أرى هذه الفتاة حتى استعيرت عيناى فحجبها عنى ضباب المقل .
كذلك كان صوتها آية عجبا ، بدأ خفيضاً حنوناً ، رخيم النبرات يكاد كل من
يسمعه يخال أنها تتكلم له وحده ، ثم ارتفع قليلا خسبته صوت ناي شجى
بعيد . فاما جاء مشهد الحديقة وما دار فيها من مناجيات الغرام البرئ
ارتعش صوتها من فرط السعادة فجاءنى كأغاريد البلابل فى مطلع الصباح .
ولكنه علا واضطرب حتى بلغ طبقة الجنون . وأنت تعلم ياهارى ما للصوت
من وقع فى النفس ، فصوتك وصوت سيميل فين لا سبيل إلى نسيانها ،
وكما أنمضت جفنى سمعتك تتكلم وسمعتها تتكلم ولكن شتان بين ماتقولان ،
ولست أدري أى الصوتين أتبع ! لست أرى ما يمنعنى عن حبها ، وإني لأحبها
من أعماق قلبى فهى كل ما بقى لى فى الحياة . وأنا أسعى لرؤيتها كل ليلة ،
فهى آنا تلعب روزاليند وآنا تلعب إيموجن ، ولقد رأيتها تموت فى قبر
دامس بإيطاليا وترشف السم من شفتى حبيبها ولقد رأيتها تجوس خلال غابة
آردين مستخفية فى زى صبي جميل يلبس تزلك وصداراً وقبعة أنيقة . رأيتها
وقد جثت فى حضرة ملك فاجر تهديه إكليلا من الأشواك يحز فى جبينه
وباقة من الأعشاب المرة تنغص عليه مذاق الحياة . كذلك رأيتها فى ثياب
ديدمونة الطاهرة وقد أطبقت على جيدها البض يد الغيرة السوداء . نعم ،

لقد رأيتها في كل زى وفي كل عصر . إن النساء التافهات لا ياهبن الخيال
لأنهن مشدودات إلى جيلهن بوثاق من حديد . ومهما أضيفت عليهن من
السحر فإن يتبدل فيهن شيء لأن طبيعتهن خالية من الأسرار ، لأن ابتسامتهن
مدروسة ثابتة لا تتجدد ، لأن حياتهن بركة ضحلة آسنة فصباحهن نزهة في
هايد يارك وعصرهن لغو حول فناجين الشاي ، لأنهن يتبعن أحاديث النماذج
في الزى وفي قواعد السلوك ، لأنهن دائماً في انتظارك ، فأى لغز في كل هذا
يجذبنا ويشير فضولنا ؟ أما الممثلات فهن من جبال مختلفة . أى هارى ! لماذا
لم تعاننى أن حب الممثلات هو أقيم ما في الحياة .

— لم أعلمك ذلك يادوريان لأنى أحببت منهن عدداً كبيراً .

— أظنك أحببت ذلك النوع ذا الشعر المصبوغ والوجه المدهون .

— وما ضرر الشعر المصبوغ والوجه المدهون ؟ إن سحرهما عظيم في
بعض الأحيان .

— ليتنى لم أحدثك في موضوع سيبييل فين .

— هذا مستحيل يادوريان ، فلن تستطيع أن تكتم عني شيئاً بعد الآن .

— هذا صحيح ياهارى ، فسلطانك على عظيم ، وهو يرغمنى على الإفشاء
لك بكل شيء . ولو أنى ارتكبت جريمة لقصدتك واعترفت بها أمامك ، لأنك
تفهمنى وتقدر عواطفى .

— إن أمثالك من الناس يادوريان هم النور الذى يجلو ظلام الحياة ، وأتم
لا ترتكبون الجرائم ، ومع ذلك فأنا سعيد بهذه المجاملة . إلى بعلمة الكبريت .
والآن إلى أى حد وصلت مع سيبييل فين ؟

فنهض دوريان جرای غاضباً وقال :

— هذا اجتراء منك ياهارى . إن سيبييل فين قدس حرام !

أجاب اللور هنرى فى حنان غريب :

— وهل غير الأقداس المحرمة يستحق أن نألمسه ؟ ثم إنى لا أفهم معنى

لغضبك ، فسيميل ثين ستكون ملسكا لك عاجلا أو آجلا ، وإن العاشق ليبدأ
غرامه بخداع نفسه ويختمه بخداع الآخرين ، وهذا هو ما يسمونه الحب .
أعتقد أنك على الأقل تعرفت بها .

— طبعاً تعرفت بها ، فبعد انتهاء التمثيل فى الليلة الأولى جاءنى اليهودى
وعرض أن يستصحبنى إلى غرف الممثلين ليعرفنى بجولييت فنارت نأرتى
وزجرته قائلاً إن جوليت قد ماتت منذ قرون ، وأن جثتها مدفونة فى قبر
من المرمر بغير ونا . ولما أن سمع هذا الكلام بدت على وجهه أمارات الحيرة ،
ولعله حسب أنى كنت نملأ .

— هذا طبيعى .

— قال : « أكتب فى الصحف ؟ » قلت : « بل لا أكتب فيها ولا
أقروها » فبدأ عليه غم شديد وأسر إلى قائلاً إن جميع نقاد المسرح يتآمرون
عليه وأنهم بلا استثناء قوم مرتشون .
— أعتقد أن رأيهم صحيحاً . ولكن مغفوره الرث يدل على أن ثمنهم
ليس كبيراً .

فضحك دوريان حراى وقال :

— ولكنى فهمت من كلامه أن ثمنهم أبهظه . مهما يكن من شىء فقد
رأيت أنوار المسرح تنطقى حين بلغنا هذه المرحلة من الحديث ، وكان لابد
لى من الانصراف ، فألح على أن آخذن سيجاراً كان يعتقد فى جودة نوعه
ولكنى آبيت . وفى الليلة التالية قصدت المسرح ثانية فلما رآنى انحنى حتى
كاد أن يقبل الأرض بين يدى وأنشأ يؤكد لى أنى حام من حماة الفنون كبير .
وكنت أتأذى من منظر هذا الرجل ولم يشفع له عندى إلا تفانيه فى حب
شكسبير . فقد قال لى ذات مرة فى شىء من الزهو إن إفلاسه أشهر خمس
مرات وفى كل مرة كان شكسبير هو السبب ، كأن فى ذلك شرفاً له .
— نعم ، إنه شرف مؤكد يا صديقى ، بل شرف عظيم . فعامة الناس

بفلسون طمعاً في نثر الحياة ، ومن جر الشعر عليه الخراب فهو بطل كريم .
ولكن متى كان أول لقاء بينك وبين الأنسة سيميل فين ؟

— كان ذلك في الليلة الثالثة ، وكانت تلعب دور روزاليند فالتقت إليها
بعض الأتزان لأظهر إعجابي بها واختصتني بنظرة أو خيّل إلى أنها اختصتني
بنظرة . وأخيراً لم يسعني إزاء إصرار اليهودي إلا أن أرافقه إلى غرف
الممثلين . ألا ترى أن رغبتى عن لقاءها كانت غريبة حقاً ؟
— كلا ، لست أرى ذلك ؟

— وما السبب ؟

— فلننس هذا الآن ولنؤجله إلى وقت آخر . إنما أحب أن أسمع بقية
حديثك عن هذه الفتاة .

— كانت خجولا لاحت لجلها ، رقيقة لاحت لرقتها ، تشبه الأطفال في
براءتها ، أما عينها فقد استجابتنا لإطرائى في دهشة ساحرة حين ذكرت لها
رأى في مواهبها الفنية ، فعلمت أنها لم تكن تعرف قدر نفسها . وكنا كلانا
مضطربين يرنو أحدهما إلى الآخر في سداجة كأنه طفل غريب ، على حين وقف
اليهودي العجوز بباب الغرفة يتمدح بشمائلها ويتمدح بشمائلها ، ولا ينفك
يلقبني بسيدة اللورد حتى اضطررت أن أؤكد لسيميل فين أنى لست من أهل
الألقاب ، فقالت في سداجة . « أنت عندى أشبه بأمير منك بلورد وسأسميك
الأمير الساحر » .

— أقسم لك يا دوريان أن الآنسة فين تحسن المجاملة .

— إنك تسمى فهمها يا هارى ، فما أنا في نظرها إلا بطل من أبطال
المسرحيات . إنها تجعل الحياة جهلاً تاماً ، فهي تعيش مع أمها وهي عجوز فانية
رأيتها أول ليلة تلعب دور الليندى كاپوليت في « روميو وجوليت » ويبدو
لى أنها كانت أحسن حالا فيما مضى من الأيام .
قال اللورد هنرى وهو يعبت بخواتمه :

— نعم ، هذا الطراز من النساء ليس غريباً عني .
 — لقد أراد اليهودي أن يقص عليّ ماضيها ولكنني أفهمته أن هذا لا يهمني .
 — حسناً فعلت ، فأخسى الآخرين فيها دائماً ما يثير في النفس الامتعاض .
 — إن سيديل فين هي كل يهمني في الموضوع ، أما نشأتها فلا تعنيني .
 وهي عندي ملك هبط من السماء ، وأنا أسعى إليها كل ليلة لأراها على المسرح فيزداد كل ليلة بهاؤها .

— وهذا بالطبع يفسر انقطاعك عن العشاء معي في هذه الأيام . لقد جال ببالي أنك تمر في اختبار جديد ولكنني أتصوره من نوع آخر .
 — نحن نتغدى معاً كل يوم يا هاري فإن فاتنا ذلك جئتك في أعجاز الليل ، وقد رافقتك مراراً إلى دار الأوبرا .
 — ولكنك تتأخر في المجيء كثيراً .

— وما حيلتي في ذلك ؟ إنني أذهب كل ليلة لأراها تمثّل ، ولقد انصرف بعد فصل واحد ولكنني لا أنخلف ، لأنني أظنّها إلى رؤيتها كل مساء وكلما فكرت في الروح الصافية التي تسكن جسدها العاجي الجميل ارتجفت رهبة .
 — أأستطيع أن تتعشى معي الليلة يا دوريان ؟

فهز دوريان رأسه وأجاب :
 كلا ، فهي الليلة أيموجن ، وهي غداً جوليت .

— ومتى ستكون سيديل فين ؟

— هذا لا يحدث مطلقاً .

— إذاً فأقبل تهانئ .

— ما أقساك يا هاري ! إنها ليست شخصاً واحداً بل هي جميع بطالات الخيال تركّز في شخص واحد . إنك تسخر مني ولكنني أؤكد لك أنها فتاة موهوبة ، وأنا أحبها ولا بد أن أجعلها تبادلي حبّي . وأنت يا من قرأت رموز الحياة وطالعت أسرارها لاتهنئي عن حبها بل علمني رقية أستطيع أن أسر بها

فؤاد سيبيل ثين . أريد أن أثير الغيرة في قلب روميو . أريد أن أهنأ معها
ليشقي شهداء الغرام بهنأنا . أريد أن أهنأ معها لتحرق أنفاسنا الملتبهة رهيهم
البارد المتآكل . اللهم غفرانك ! إن حبي لها قد بلغ مبلغ الوثنية .
وفيما هو يقول ذلك كان شديد الاضطراب يقطع أرض الغرفة جيئة
وذهابا وقد اشتملت في خديه نار حامية .

وكان اللورد هنرى يتأمله في سرور خفي فقد رأى الصبي الخجول
المنكش الذي عرفه في استديو بازيل هولورود يتحول إلى فتى ذى شخصية
وإرادة . لقد نمت روحه كما تنمو الزهرة وتفتحت أوراقها حمراء كالسنة
الهييب . نعم . لقد أطلت روحه من مخبئها العميق حيث لا راها أحد
واندجحت في الجسد الملتهب بالاشواق ، فأصلتها أشواق الجسد نارا .
قال اللورد هنرى أخيراً :

— وعلام أزمعت ؟

تعال معي إلى المسرح أنت وبازيل هولورود ، لتشهدا تمثيلها ، وأنا واثق
من النتيجة تماماً فما من شك في أنكما ستقتعان بأنها فتاة موهوبة . وبعد
ذلك لا يبقى إلا أن نتشاهما من برائن اليهودى فهى مرتبطة معه بعقد مدته
ثلاث سنوات بقيت منها سنتان وثمانية شهور ، ولا بد أن أعوضه بالمال عن
فسخ العقد . وحين يتم لى ذلك استأجر لها مسرحاً فى الوسط إند وأظهرها
للناس بما يتناسب مع كفايتها ، وسوف يحن بها الناس جنونى بها .
— هذا تحال يا دوريان .

— نعم . سوف يحن الناس بها ، فهى تملك الشخصية الناحمة فضلاً عن
استعدادها الفنى وتمكنها من أصول التمثيل . ولقد قلت لى فى أكثر من
مناسبة إن عصرنا تسيره الشخصيات لا المبادئ .

— إذا كان الأمر كذلك فتى نذهب ؟

— اليوم يوم الثلاثاء ، فليكن موعدنا ليلة الغد فهى تمثل جوليت

— اتفقنا إذًا ، وليكن لقاءنا بمطعم بريستول في الساعة الثامنة وساتيك ببازيل .

— بل في السادسة والنصف يا هاري ، فلا بد أن نكون هناك قبل رفع الستار . نعم ، لابد أن تراها في الفصل الأول حين تقابل روميو .

— ماذا دهاك يا هذا ؟ إن شهود التمثيل في السادسة والنصف عمل لا تستسيغه النفس كأكل اللحم مع الشاي أو قراءة القصص الإنجليزية . فلنلتق في الساعة السابعة وإلا فلا ، فما من جنتلمان يتعشى قبل السابعة . أيننا يتصل ببازيل ؟

— مسكين بازيل ، فأنا أعامله أسوأ معاملة ، وقد احتجبت عنه أسبوعا كاملا ، وهذا جحود مني شديد لأنه أرسل إلى صورتي بعد أن وضعها داخل إطار جميل صممه بنفسه ، وأنا جد سعيد بهذه الصورة رغم أني أغار منها ، فهي تصغرنى بشهر كامل . ولعله حاق على من الأصوب أن تكتب أنت إليه بهذا الموعد ، وأنا أكره أن أواجهه وحدي وأضيق بكثير من حديثه لأنه لا ينفك يسدى إلى نصائح الأخلاقية .

فابتسم اللورد هنرى وقال :

— إن الناس يجودون للغير بما هم في أمس الحاجة إليه ، وهذا ما أسميه الكرم الذي زاد عن حده فانقلب إلى ضده .

— ولكن بازيل خير من عرفت من الرجال رغم أنه محدود الأفق بعض الشيء ، وقد أدركت ذلك فيه منذ أن عرفتك يا هاري .

— إن بازيل يضع كل صفاته الجذابة في عمله ، وبذلك لا يتبقى لنا منه إلا أحكامه الفاسدة ومبادئه القويمة ومنطقه السليم . وما عرفت فنانا قط جذاب الشخصية إلا وكان تافه الفن ، أما كبار الفنانين فأشخاصهم تفنى تماما في عملهم فلا يبقى للعالم من أشخاصهم ما يثير اهتمام أحد . والشاعر الفذ ، أقصد الشاعر الفذ بمعنى الكلمة ، رجل خلت حياته من الشعرية . أما صغار

الشعراء فيسحرون الدنيا بشخصياتهم العجيبة ، وكلما انحطت قوا فيهم ارتفعوا في عيون الناس ، حتى لتجد أن مجرد نشر ديوان من الشعر الركيك يجعل من صاحبه شخصية تأمر القلوب . فصغار الشعراء يمارسون الشعر الذي عجزوا عن قوله ، وكبارهم يقولون الشعر الذي خافوا من ممارسته في الحياة .

قال دوريان جرای وهو يصب شيئاً من العطر على منديله من زجاجة كبيرة على المائدة غطاؤها ذهب خالص .

— أصحیح ماتقوله یا هاری ؟ لابد أنه صحیح لأن كل ماتقوله صحیح .
والآن يجب أن انصرف . فأیوچین فی انتظاری . وداعاً ، ولا تنس موعد الغد .

ولما انصرف دوريان جرای أغمض اللورد هنرى جفنيه الثقيلين واسترسل في التفكير ، وكانت الصلة بينهما موضوع تفكيره . وجد اللورد هنرى أن اهتمامه بدوريان جرای أكيد لاشك فيه ، ومع ذلك فإن اهتمام دوريان جرای بشخص آخر لم يثر في نفسه لواعج الغيرة كما أثار من قبل في نفس بازيل هولورود ، بل أثار فيها الغبطة والسرور . وكان يجد لذة في دراسته فازدادت بذلك لذته . لقد كان اللورد هنرى شديد الإعجاب بمنهج التاريخ الطبيعي ولكنه كان يجد أن مادة هذا العلم مادة تافهة لا قيمة لها . لم يكفه تشريح الحشرات فبدأ بتشريح نفسه وأنهى بتشريح الآخرين ، وامتلأ إيماناً بأن الحياة الإنسانية هي كل ما يستحق الدراسة على وجه الأرض ، وأن كل ما عداها ثانوى إذا قيس بها . ولكن دراسة الحياة الإنسانية لا ريب تؤثر في صاحبها ، ولقد تعصف به عصفا شديداً . فن يتأمل النفس الإنسانية تنصهر في البوتقة بنار الألم آناً وبسعر اللذة آناً لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه كأن على وجهه قناعاً من زجاج جامد ، ولا يستطيع أن يمنع دخان العواطف المتأججة من أن يملأ شعاب رأسه بالأحلام البشعة المزعجة

والأوهام الكدرة السوداء . إن فى الحياة سموما عجيبة لاسبيل إلى معرفة خواصها إلا أن تتسم بها النفس ، وإن فى الحياة أمراضاً غريبة لن يفهمها بنو الإنسان إلا إذا زلت بهم ثم خرجوا منها ناقمين . ولكن ثمرة الاختبار شبيهة ، والحياة حلو مذاقها لمن عرف حقيقتها . وما ألد أن يتأمل الإنسان العاطفة الرقيقة نقسو حتى تصير كالصارم المشحوذ والعقل الغليظ يرق ونضفى عليه العاطفة جميل الألوان ، ويرى كيف يلتقيان وكيف يفترقان ! إن الثمن الذى ندفعه لنظفر بهذه التجربة بخس مهما علا ولوجدنا بالحياة ذاتها . فالإحساس أثنى ما فى الوجود ، وفى سبيل الإحساس يهون كل شئ .

كان اللورد هنرى يعلم أن كلماته المختارة ذات الجرس الجميل هى التى جعلت روح دوريان جراى تتجه إلى هذه الفتاة الصغيرة وتمثل أمامها فى خشوع ، وحين فكر فى ذلك أضاء فى عينيه بريق السرور . فكان يحسن بأنه خلق هذا الفتى خلقاً جديداً بعد أن كان محض حليلة أنيقة تكمّل جمال الصالونات وأنه ألصقه قبل الألوان . إن عامة الناس ينتظرون حتى تكشف الحياة لهم عن خباياها ، أما الأقلون ، وهم الأصفياء ، فيرون خبايا الحياة قبل أن يسقط عنها الحجاب . وما هذه وظيفة الفن بل وظيفة الأدب على وجه التخصيص لأنه يتصل رأساً بالعقل وبالعاطفة . ولكن الحياة تجود من أن لآخر بشخصية فذة معقدة تؤدى وظيفة الفن ، وهذه الشخصية الفذة المعقدة هى فى ذاتها أثر فنى صاغته يد « الحياة » ، وما الحياة بأقل قدرة على الخلق من الشعراء أو الرسامين أو المثالين . فلا عجب أن تخلق الحياة النماذج البشرية الرائعة .

نعم ، إن الفتى قد نضج قبل الألوان ، وها هو ذا يجنى الثمار وهو بعد فى باكورة الربيع ، تضطرم فيه حرارة الشباب ويجرى دمه الدفاق . ولكن دوريان جراى قد بدأ يعنى ما يحدث له . ولذا كان تطوره منعة كبرى لمن يتبعه عن كسب . فهو جميل المحيا ، جميل الروح ، وهو فتنة للناس ، فسيان

أن تطيب نهايته أو تسوء . فما كان أشبهه بشخص سحري في مسرحية سحرية نرى أبطالها يرفلون في حلق السعادة فلا نهتز لأفراحهم ، ثم تنزل بهم الكروب فتشجينا أحزانهم وتبدو لنا جراحهم كالورود الحمراء .

عجبا للروح وعجبا للبدن ! عجبا للبدن وعجبا للروح ! إن الروح لا تخلو من المادية ، والمادة تعرف لحظات الوجد الروحي . ولقد تسمو الحواس وتصفو ، ولقد يظلم العقل ويكفهر ! وهل منا من يعلم أين تنتهى نوازع الجسد وأين تبتدى نوازع الروح ؟ إن التعاريف التى يتفضل بها علينا علماء النفس تعاريف أولية لا تنهض على أسس مكينة ، ونحن مع ذلك لا نستطيع أن نقتصر لفريق منهم على فريق . والسؤال الذى سألته الإنسان منذ القدم لا يزال بلا جواب . ترى الروح شبح يسكن الجسد ، بيت الخطيئة ؟ ترى الجسد كائن فى الروح كما قال جيوردانو برونو ؟ إن فصل الروح عن المادة لغز قد حير البابا كما أن زواج الروح بالمادة لغز بلبل أفهامنا .

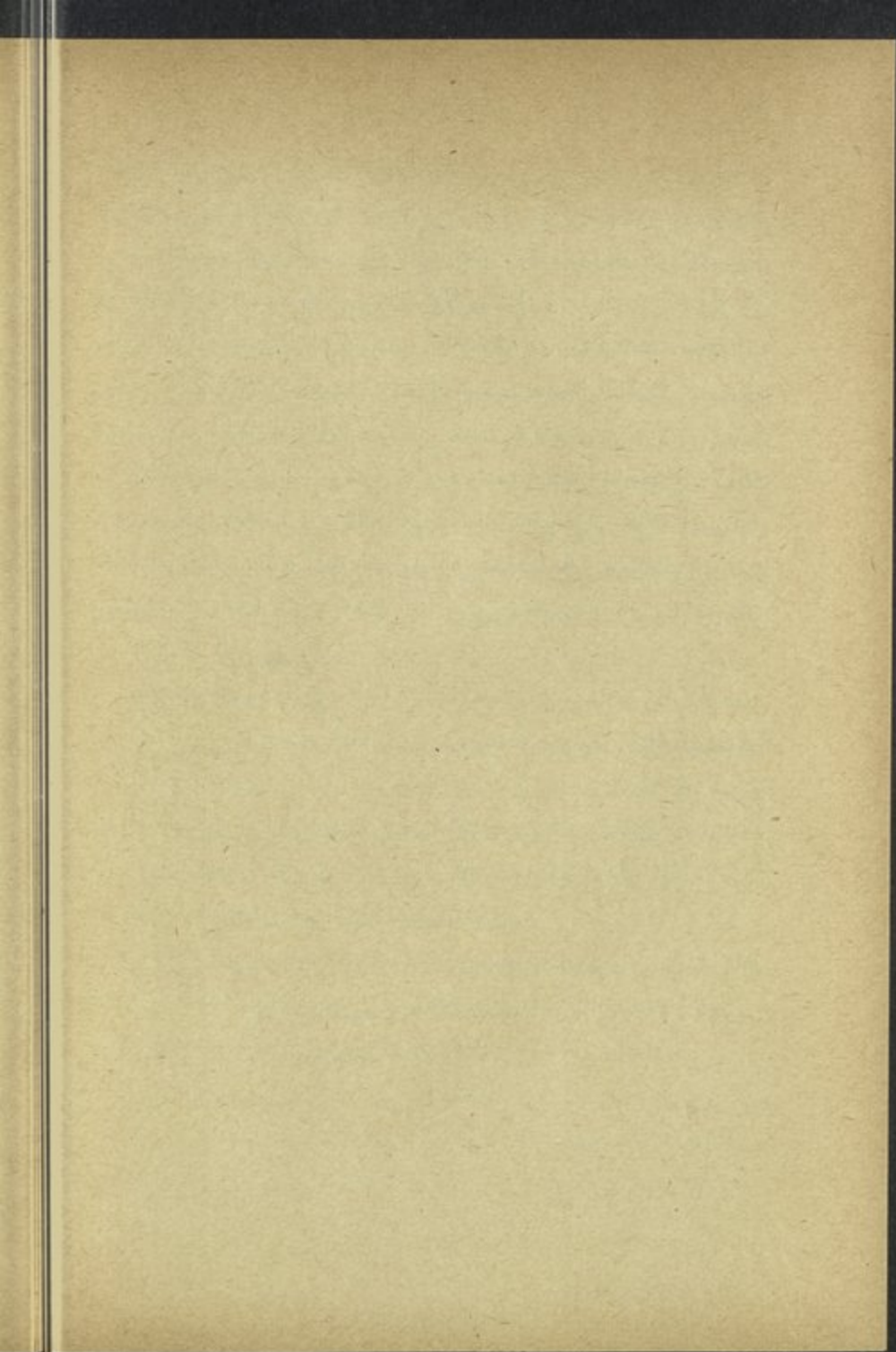
ثم بدأ يتساءل عما إذا كان فى وسع الإنسانية حقاً أن تجعل من علم النفس علماً بالمعنى الموضوعى الكامل ، علماً يفسر لنا كل نبضة من نبضات الكائن الحى . فمحن إلى هذه اللحظة نخطئ فى فهم أنفسنا ولا نصيب فى فهم الآخرين إلا قليلا ، وليس للاختبار أية قيمة أخلاقية بيننا ، فهو لا يتجاوز أن يكون كلمة نطلقها على ما نرتكبه من أخطاء . أما علماء الأخلاق فقد دأبوا على تصوير الاختبار على أنه تحذير للمستقبل من أغلاط الماضى ، وتقويم لا بد منه فى تكوين الشخصية ، وتنويه لنا بما يجب أن نتبعه وما يجب أن نتجنبه فى الحياة . ولكن الاختبار ليست له قوة غائبة فهو عمل سلبى يوجد دون أن نسعى إليه كالضمير الذى يتكون فىنا سواء بسواء ، وكل ما تعلمناه من هذا الدرس هو أن مستقبلنا لا يختلف ألبتة عن ماضينا ، وأن الخطيئة التى ارتكبتها مرة على مضض نرتكبها مرارا فى شوق وإقبال .

وكان اللورد هنرى يؤمن بأن المنهج التجريبي هو المنهج الوحيد الذى

نستطيع أن نحلل به العواطف تحليلاً علمياً . ولا شك أن دوريان جرای كان موضوعاً صالحاً للتجربة فهو رهن إشارته في كل وقت ، وهو يتوقع من هذه التجربة التي يجربها عليه أغني الثمار . خب دوريان جرای لسيبيل فحين كان ظاهرة نفسية لها خطرهما ، ولا جدال في أن دافع الفضول كان عنصراً هاماً في هذا الغرام الغريب وأن الشوق إلى اختبار الحياة ساقه إليه سوقاً . ولكن الاكتفاء بهذا الوصف تبسيط لهذه العاطفة المركبة . لقد تحولت بفعل الخيال اشواق الجسد التي تعذب يفاعته إلى شيء لا أثر للجسد فيه فهو إذا يتوهم هذه الروحانية توهماً ، وهذا يجعلها أبلغ خطراً . كذلك تولدت فيه عواطف ، عواطف كم استبدت بنا وكم خاتلنا أنفسنا في حقيقتها ومنشئها . فإن أتفه العوامل التي تحركنا ههنا العوامل التي نعيها ونستقصيها ، وما أكثر ما يحدث أننا نجري التجارب على أنفسنا حين نظن أننا نجربها على الآخرين .

وفيما كان اللورد هنري سابحا في تأملاته هذه طرق خادمه الباب ثم دخل ليذكره بأن وقت العشاء قد أوف وأن عليه أن يستبدل ثيابه استعداداً لحياة المساء . فنهض وأجال بصره في الشارع فوجد أن الشفق قد ضرج النوافذ العليا في المنازل المقابلة بذهب أحمر ، فتوهج زجاجها كأنه ألواح من معدن مصهور . وبدت السماء حمراء كالوردة الذابلة فتذكر الحياة الحمراء التي يحياها صديقه ، وعجب للنهاية كيف تكون .

وحين عاد إلى بيته بعد منتصف الليل وجد برقية تنتظره على مائدة القاعة ففضها وقرأها ، فإذا بها من دوريان جرای وإذا بها تنبئه بأن دوريان جرای قد عقد خطبته على سيبيل فحين .



الفصل الخامس

٤٢

دفنت سيبييل فين وجهها في حجر أمها العجوز الفانية ، وكانت أمها العجوز الفانية تجلس في مقعد كبير لم يكن بالغرفة مقعد سواه ، ظهرها لبصيص النور الذي تسال كالمطفل في تلك الغرفة الموحشة ، وهمت الفتاة قائلة :
— ما أسعدنى يا أماه ! إني سعيدة وينبغى أن تقاسمى سعادتى .

فأفاقت مسرقة ومسحت بيدها البيضاء على رأس ابنتها وقالت :
— أنا لا أذوق السعادة يا سيبييل إلا حين أراك تمثيلين ، فلا تفكرى فى شيء خارج عملك ، لأن مستر إيزك رجل من أهل المروءة وقد أقرضنا مالا كثيراً . فتجههم وجه الفتاة ورفعت رأسها قائلة :

— ولكن ما قيمة المال يا أماه ؟ إن الحب أهم من المال .
— لا تنسى أن مستر إيزك أقرضنا خمسين جنياً لنسدد بها ديوننا ولنشتري الكساء اللازم لأخيك جيمس ، وهذا ليس بالمبلغ الهين . إن مستر إيزك شهيم كريم .

فنهضت الفتاة ومشت نحو النافذة وقالت :
— لست أرى فيه صفات الجنتهامان ، وهو يتحدثنى بأسلوب بغيض . قالت العجوز فى تذمر :
— وماذا يكون حالنا بدونه ؟

فهمزت سيبييل فين رأسها وقالت ضاحكة :
— لم تعدبنا حاجة إليه يا أماه ، فالأمير الساحر سيدبر لنا أمرنا بعد اليوم . ثم سكنت وتورد خذاها واضطربت أنفاسها وارتعشت شفتاها

وانفرجتا . لقد هبت عليها ريح الجنوب الساخنة فألهبتهما وعبثت إبطيات
ثوبها الجميل . قالت في بساطة :

— أنا أهواه !

فأجابتها امها في إصرار البغاء :

— يالك من طفلة حمقاء ! يالك من طفلة حمقاء !

وتحركت أصابعها المعوجة الناحلة وتحركت معها خواتمها ذات الفصوص
الزائفة . وكانت إشارتها مضحكة لغرابتها فضحكت الفتاة ثانية ، وكان
صوتها الفرد يشبه صوت عصفور حبيس . وضحكت عيناها كذلك وعبرت
عن سعادتها ببريق ، ثم غضت الفتاة طرفيها كأنها تريد أن تخفى عن امها سرّاً .
ثم فتحت عينيها فإذا هما مخلصتان بندى خفيف هو ندى حلم عبر .

وتكلمت امها المعجوز بشفتين باليتين من مكانها في المقعد البالي خفاً
صوتها كصوت ربة الحكمة وذهبت تنصح ابنتها بالألا تجاوز بشئ وتعدّد
لها الأقوال المأثورة التي تحض على طلب السلامة من كل ما تتعلمه في كتاب
الحبن ويقرّه المجتمع باسم التفكير السليم ، فلم تلق الفتاة بالألشئ مما سمعت ،
فقد كانت في شغل بغرامها القوي وانطلقت روحها في كل مكان تبحث
عن الأمير الساحر لتعود به وتسكنه أبراج خيالها ، وقد عادت به ، وقد سكن
أبراج خيالها ، وقد أحرقت قبالاته شفتيها ، وقد أدفأت أنفاسه جفنيها .
ولكن ربة الحكمة لم تلبث أن غيرت نهجها في التفكير ، وشرعت
تتحدث عن وجوب التعرف على حقيقة هذا الفتى ؛ فلئن كان من أهل
اليسار وجب تدبير الزواج . واستمعت سببيل طويلاً إلى حديث المادية
السافرة ، ورأت المثل العليا تمزق في غير رحمة . ولكنها رغم ذلك ابتسمت
وهي ترقب شفتي امها الباليتين تتلوان عليها هذا الحديث .

وكان صمتها مزدهجاً بالخواطر فأحست حاجة إلى الكلام ، ولما أن
ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف قالت :

-- أماء ! لم يحبني كل هذا الحب يا أماء ؟ أما أنا فأعلم لم أحبه ، فهو إروس رب الغرام تجسد لي . فإذا يحمل فتى مثله أن يحب فتاة مثلي ؟ كلا يا أماء أنا لا أستحق أن أكون موضع حبه ، ومع ذلك فأنا لا أحس بأني مخلوق تافه رغم رفعة مكانته في المجتمع وضعة مكاني . وإني لفخور بنفسى ، جد فخور . حدثيني يا أماء ، هل أحببت أبى كما أحب أنا الأمير الساحر ؟ فشجب وجه العجوز الذى لطخته المساحيق ونزل بها الألم فجأة وارتجفت شفتاها ، فبادرت سيبيلى إليها وطوقت جيدها بذراعيها وقبلتها قائلة :

— اصفحى عنى يا أماء ، فأنا أعلم كم يوجعك ذكر أبى ، ولكنك تتعذبن من فرط إعزازك لذكراه . لا تبتئسى فأنا اليوم سعيدة كما كنت أنت منذ عشرين سنة فليت سعادتى تدوم !

— أنت يا بنيتى ما زلت صغيرة ولا تفهمين معنى الحب . ثم إنك لا تعرفين عن هذا الفتى كثيراً أو قليلاً ، بل أنت لا تعرفين ما اسمه ومن يكون ، فالمسألة من ألفها إلى يائها محزنة ، وقد كان خليقاً بك أن تظهرى بعض العطف لى فاخوك جيمس راحل إلى استراليا ونفسى مثقلة بالهموم . ومع كل ، فإذا كان صاحبك هذا من أهل اليسار كما تزعمين . . .

— أناشدك ألا تحطى سعادتى يا أماء .

فنظرت إليها مسرئين وعانقتها عناقاً مسرحياً ، وهى عادة لازمتها فى حياتها الخاصة كما تلازم عامة الممثلين . وفيما كانا على هذا المحو انفتح الباب ودخل منه فتى ممتلىء البنية ذو شعر خشن أصفر ثقيل عيناه ويداه على شئ من الضخامة ، وفى حركاته غلظة واضحة . ولم يكن هذا الفتى قد نال من التهذيب ما نالته أخته سيبيلى ، حتى أن المرء لا يتصور أن بينهما صلة دم . وتفحصته مسرئين بنظراتها فازداد وجهها إشراقاً فقد تخيلت أنه يمثل جمهور النظارة ، وارتاح فؤادها إلى المشهد . قال الفتى فى مزيج من العطف والتذمر :

— هلاً ادخرت بعض قبلاتك لى يا سيبيلى ؟

فأجابت الفتاة :

— ولكنك تكره أن يقبلك الناس يا جيم . ما أشبهك بدب عجوز !
ثم أسرعت إليه وعانقته . ففطر جيمس ثين في وجه اخته في حنان وقال :
— هيا بنا للترهه معاً يا سيبيل ، فلعل هذه آخر مرة أرى فيها هذه
المدينة القبيحة لندن ، ولست براغب في العودة إليها بعد رحيلي .
وتنهدت مسرّعين وهي تمسك بثوب من أثواب المسرح مهلهل وبدأت
ترقع الثوب . لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى المشهد ليتمم ماله من طابع
مسرحي .

— لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا ولدى .
— هذه هي الحقيقة وأنا أعنى ما أقول .

— هذا الكلام يوجعني يا ولدى وأعتقد أنك سوف تعود من استراليا
بعد أن تجمع مالا كثيراً ، فالحياة في المستعمرات ليس فيها حياة اجتماعية
أو شيء يستحق أن يوصف بهذا الوصف على ما أعتقد . ولذا ستعود إلى
لندن بعد أن تجمع المال الكثير وتجد لنفسك فيها مكاناً .
قال الفتى :

— وما قيمة الحياة الاجتماعية ؟ أنا لا أحب أن أعزف عن هذه الحياة
شيئاً ، وكل ما أبغيه هو أن أجمع بعض المال حتى أبعدكم عن المسرح ، فإني
أبغضه بغضاً شديداً .

فضحكت سيبيل وقالت :

— ويحنا منك يا جيم ! ما أقساك علينا ! ولكن أتحب حقاً أن نخرج
معاً للترهه ؟ إن فعلت ذلك أدخلت السرور على قلبي . لقد كنت أحسبك
تنوى توديع بعض أصدقائك كتوم هاردي الذي أهداك تلك البنية القبيحة
وندلاً نجتون الذي يسخر منك كلما رآك تدخنها . وإني أشكر لك قضاءك
آخر ساعاتك معي ، فأين تحب أن تذهب ؟ هيا بنا إلى هايد بارك .

— كلا يا سيبييل ، فأنا زرنى المنظر ولا يتنزه في هايد بارك إلا الوجهاء .

قالت سيبييل وهي تمسح سترته :

— دعك من هذا الكلام الفارغ يا جيم .

فتردد لحظة ثم قال في النهاية :

— هيا بنا إذا ؛ ولكن عجلى بارتداء ملابسك .

تفرجت من الغرفة وهي ترقص وصعدت إلى الطابق العلوى وهي تغنى
فلاً صوتها أرجاء البيت ، وسمع جيم قدميها الصغيرتين تضربان سقف الغرفة .
وطبق يمشي جيئةً وذهاباً ثم التفت إلى امه الجالسة في المقعد الكبير لا تبدي
حراكاً وسألها قائلاً :

— هل أعددت أمتعتي يا أماه ؟

كانت مسرّعة تصلح من الثوب فلم تتوقف عن العمل وأجابه بأنها قد
أعدت كل شيء . وكانت الأم في الشهور الأخيرة تضطرب كلما وجدت نفسها
وحيدة مع ولدها الحازم الخشن الطباع . وكما تلاقت عيونهما اضطربت
نفسها وجلالاً لأنها كانت تشك أحياناً في أنه يعرف شيئاً عن سرها . وكان
جيمس فين كثير الصمت فزاد ذلك الموقف حرجاً ، وبدأت تتذمر من صمته
كعادة النساء اللاتي يجدن في الهجوم خير وسيلة للدفاع ويجدن في الاستسلام
أضمن وسيلة للاقتصار . قالت الأم :

— أرجو أن تجد السعادة التي تنشدها في حياتك الجديدة هذه ، حاة
الملاحة والأسفار ، وتذكر دائماً أنك اخترت لنفسك هذا المصير ، فقد كان
في إمكانك أن تلتحق بمكتب محام ، والمحامون طبقة لها مكانة في المجتمع عالية ،
ومن كان منهم يعمل في الريف يختلط بأرقى الأسر .

فأجاب الفتى قائلاً :

— ولكنني أمقت المكاتب وأمقت الكتبة ولقد أصبت فيما قلت من
أننى اخترت هذا المصير بنفسى . وكل ما أرجوه منك أن تسهرى على سيبييل

ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وأن تدفعني عنها الشرور . نعم ، يا أماء ، اسهرى على سيبييل وادفعني عنها الشرور .

— هذا كلام عجيب يا ولدى ، فأنا ساهرة على سيبييل فعلا ولا محل لخافك .

— بلغنى أن سيداً يزور المسرح كل ليلة ويقصد إلى غرف الممثلين ليراها . ألا ترين فى هذا ضرراً ؟

— هذه أشياء لا تفهمها يا جيمس ، فقد جرت العادة فى مهنة التمثيل أن نجد من الجمهور كل رعاية ، ونحن نسر بهذه الرعاية ونعدها مقياس النجاح . ولقد كنت فى صباى أقبل باقات الزهر من المعجبين ، ولكن تلك الأيام انقضت ولم يعد الناس يقدرون التمثيل حق قدره . أما سيبييل فأنا أجهل الآن إذا كانت جادة فى صلتها بهذا الشاب أم غير جادة . ولكنى لا أرتاب فى أن هذا الشاب جنتامان لا غبار على سلوكه ، فهو جم الأدب معى ، ومظهره يدل على أنه من أهل اليسار ، والأزهار التى يرسلها الى أحنك حميلة حقاً .
قال الفتى فى خشونة :

— ولكنك تجهلين اسمه .

فأجابت الأم فى هدوء :

— هذا صحيح ، فهو لم يبع باسمه الحقيقى لها ، وأنا أرى أن هذا يضيف إلى جمال الموقف ، فلعله من أبناء الطبقة الأرستقراطية .

فعض جيمس ثبن شفته وصاح بأمه قائلاً :

— اسهرى على سيبييل يا أماء ، اسهرى على سيبييل .

— أنت تحزننى كثيراً بهذا الكلام يا ولدى فما انقطعت قط عن العناية بسيبييل ولكنى لا أرى ما يمنع أن ترتبط سيبييل بهذا السيد برابط الزواج إذا كان من أهل اليسار . وأغلب ظنى أنه من أبناء البيوتات ومظهره يدل على ذلك ، ولقد يكون فى هذا الزواج فرصة ذهبية لسيبييل . وأرى أن زواجهما

سيكون غاية في الانسجام خيال هذا الفتى نادر حقاً ، يئده كل من رآه .
أخذ الفتى يتحدث إلى نفسه بصوت خافت وينقر زجاج النافذة بأصابعه
الغليظة . فلما التفت ليقول لأمه شيئاً افتتح الباب ودخلت منه سيبيل قالت :
— مالى أراك واجين ؟ ماذا حدث ؟

فأجاب الفتى قائلاً :

— لم يحدث شيء إطلاقاً ، وسؤالك لا معنى له . فمن الطبيعي أن يعمد
الإنسان إلى الجد من وقت إلى آخر . إلى اللقاء يا أماه ، وسأعود للعشاء في
الساعة الخامسة . لا تهتمى بأمتعتي فكل ملابسى مرتبة ماعدا التمضتان ،
فأجنت الأم في وقار أنهكتها الشيخوخة وقالت :
— إلى اللقاء يا ولدى .

ولكن لهجته أحنقتها ، فما كان له أن يحدث اخته بهذا الحُفاف ، كما أن
نظراته أخافتها . واقتربت شفتا الفتاة الورديتان من خدها الذابل وطبعتا
عليه قبلة أرسلت فيه الدفء . فجالت الأم بنظرها في سقف الغرفة كأنها
تبحث عن جمهور من النظارة وقالت في لهجة مسرحية مضطربة :
— بنتاه ، يا بنتاه !

وكان الفتى يبغض الأسلوب المتكلف الذى تصطنعه امه في الحديث فنقد
صبره وقال يستعجل اخته :
— هيا بنا ياسيبيل .

وخرجا إلى الشارع فوجدوا النسيم يداعب ضوء الشمس ، وسارا في طريق
يوستون الموحش ، وكان المارة يعجبون لمراى هذا الفتى العابس الغليظ
البنيان الرث الثياب الذى يرافقه غادة رشيقة مهذبة رقيقة . وبدا جيمس فين
لعيون المارة كبستاني جلف في يده باقة من أجل الورود .

وكان وجه جيم يتجههم بين حين وآخر لفضول المارة فقد كان يكره أن
يحملق الناس فيه كرها لا مزيد عليه ، كرها كالكره الذى يملك أوساط

الناس لأنظار المتطفلين ، كرها كالسكره الذي يتملك العباقرة في نهاية حياتهم
لأنظار المعجبين . على أن سيبييل لم تحس بالآثر الذي كانت تحدثه في نفوس
العابرين لأن قلبها كان متبها معمودا . وكان الحب الذي يملأ قلبها يشيع في
شفقتها بشراً وإشراقاً . لقد كانت تفكر في أميرها الساحر ولم تشأ أن تعارذ
عنها خياله الجميل فلم تجعله موضوع الحديث بل طفقت تلغو عن السفينة التي
سيبحر عليها جيم ، وعن الذهب الذي سيجده جيم في انتظاره حين يصل إلى
استراليا ، وعن سيدة القصور الجميلة التي سينقذها جيم من براثن حراس
الاحراش . فجيمس لن يبقى بحاراً طول حياته . كلا ! لن يبقى جيمس بحاراً
طول حياته ، لأن همته لن تسمح له بذلك . لن تسمح له همته أن يبقى طول
حياته حبساً على ظهر سفينة قبيحة تتقاذفها الأمواج العاتية وتمزق قلوها
الرياح الممطرة السوداء وتهشم صواربها الأنواء ! إن جيمس سوف يقصد
ربان السفينة حين تبلغ السفينة ملبورن ويستودعه الله في أدب كثير ثم يترك
السفينة وربانها ويقصد فوراً إلى مناجم الذهب ، وقبل أن ينتهي الأسبوع
سيعثر ولا شك على سبيكة ضخمة من الذهب الخالص ، سبيكة لم يعثر إنسان
على مثلها من قبل ، ويحملها إلى الساحل في عربة يحرسها ستة من رجال
الشرطة ، وسوف يهاجمهم حراس الاحراش ثلاث مرات فيردوا عنها ثلاث
مرات بين قتيل وجريح ولأند بالفرار . أو لعل جيمس لا يقصد إلى مناجم
الذهب أصلاً ، فهي بقاع مقفرة يسكنها السكران ويقتل الناس فيها بعضهم
بعضاً في الحانات ، ويستخدمون أخش الألفاظ . لعله يصبح راعياً أنيساً من
رعاة الأغنام ، وفيما هو عائد إلى بيته ذات مساء يرى رجلاً من قطاع الطرق
يختطف سيدة جميلة من سيدات القصور ويطير بها على جواده الأسود
فيطارده حتى ينقذ السيدة ويعود بها إلى آهله سالمة . وسوف تحبه سيدة
القصور من أعماق قلبها ، وسوف يحبها هو من أعماق قلبه ، وسوف
يتزوجان ثم يعودان إلى لندن حيث يقمان في دار نعمة هي بهجة الناظرين .

ولكن ينبغي عليه أن يكون حسن السلوك وألا يدع للغضب سلطاناً على نفسه أو يبدد ما جمعه من المال في حماقة . وسوف تكون السيدة أكبر منه بعام واحد ، ولكنها تعرف عن الحياة الكثير فتحثيه بتجاربها وتقيه بحكمتها . كذلك سوف يكتب لها جيمس خطاباً مع كل عربة يريد ، وكذلك سوف يذكر أن يتلو صلواته كل مساء قبل أن ينام . وسوف يحرسه الله لأن الله يحب الناس . وسوف تصلى هي من أجله كذلك ليحرسه بدل المرة مرتين . وبعد أن تنقضي سنوات قليلة سيعود إليها هي النفس واسع الثراء . كان الفتى يستمع إلى حديثها في وجوم دون أن يجيب عليها بشيء ، فقد كان حزين النفس لفراق أهله .

ولم يكن هذا كل ما أحزن نفسه . لقد كان يحس رغم قلة تجاربه في الحياة بالخطر الذي يتهدد سيبييل . فهذا الوجيه الشاب الذي يناجى احتة بغرامه لا يمكن أن يكون سليم الطوية . لقد كان من طبقة السادة وهو لهذا بمقتته . وهو يحقد عليه بالغريرة دون أن يجد مبرراً لذلك ، يحقد عليه حقداً طبيعياً متصلاً قوياً . كذلك كان يعرف ما فطرت عليه امه من الغرور وحب المظاهر ، وهذا ما جثم خوفه على سيبييل ومستقبلها . إن الأطفال يبدأون حياتهم بإعزاز الوالدين ثم يكبرون فيزنوا فضائل الوالدين وردائلهما ، ولقد يغفرون لهم ذنوبهم أحياناً .

لقد فكر في امه كثيراً ! وكان يقلقه شيء أراد أن يسألها عنه . نعم ، شيء أفضّ مضجعه الليلي الطوال . لقد سمع يوماً ذات ليلة اتهامسون عنهما في سخرية وهو في انتظارها بباب المسرح الخلفي فتلاطمت في رأسه الأفكار السوداء ، وعادت تلك الهمسات الساخرة إلى ذاكرته فأوجعته كأنها الشياطين هوت على وجهه دون رحمة . وعبس من جديد وعضته البرحاء فعض شفته السفلى . قالت سيبييل :

— لقد كنت منصرفاً عني يا جيم ، فلم تسمع كلمة واحدة مما قلت

على حين كنت أنا أضع أجمل المشروعات لحياتك المستقبلية . تكلم يا فتى
وقل شيئاً :

— وماذا تنتظرين مني أن أقول ؟

فابتسمت وقالت :

— قل مثلاً إنك ستكون فتى باراً وأنتك لن تنسانا .

لكنه هز كتفيه استخفاً وأجاب :

— بل نسيانك إياي أقوى احتمالاً من نسياني إياك .

فصعد الدم إلى وجهها وسألته قائلة :

— ماذا تعني يا جيم ؟

— لقد بلغني أن لك صاحباً جديداً . من يكون هذا الرجل ولماذا

أخفيت عليّ أمره ؟ اعتقد أنه لا يضر لك خيراً .

فصاحت به :

— كفى يا جيم ! لا تقل فيه كلمة سوء فأنا أحبه .

قال الفتى :

— وكيف تحبين رجلاً تجهلين اسمه ؟ من يكون هذا الفتى ؟ إن من

حق أن أعرف .

— اسمه الأمير الساحر ؛ ألا يعجبك هذا الاسم ؟ أنت لا تعرفه أيها

الولد الطائش ، ولو أنك رأيته لوجدت فيه صورة الكمال ، وسوف تقابله

يوماً ما بعد عودتك من استراليا وسوف تولع به . إن كل من يعرفه يولع به

أما أنا فأحبه . ليتك تأتني إلى المسرح هذا المساء ، فسوف يكون هناك ،

وأنا الليلة جوليت ، وسوف أجيد التمثيل إبادة ما بعدها إبادة . وكيف

لا أجيده وأنا عاشقة ألعب دور جوليت ! وسوف يجلس قبالي وأمثل

لأرضيه وحده . لسوف أجيد حتى أسحر أعضاء الفرقة أو أخيفهم مني .

فألح سبيل الكمال وسوف يصبح ذلك البأس إيزاك بصعاليكه ومتسكعيه

فی الحان قائلاً : « تعالوا واشهدوا ! إن سیبیل فین ممثلة من ممثلات الجیل ! »
 لقد آمن مستر إیزاک بمواهبی إیماناً أعمی حتی الیوم ، ولسوف یری مواهبی
 تتكشف أمامه کرؤیا من رؤی الفردوس ! إنی لأحس بذلك من أعماقی ،
 وكل ما أنا فیه قبس منه فهو ضیائی ، قبس من أمیری الساهر ، أمیری
 وحیبی وملهمی بمعانی الجمال . إنه غنی بكل شیء ، وأنا فقیرة فی كل شیء .
 ولكن الفقر لن یغیر من أمرنا شیئاً . یقولون إن الفقر إذا دخل من الباب
 خرج الحب من الشباك ، أما أنا فأقول إن الفقر إذا دخل من الباب دخل
 الحب من الشباك . إن أمثالنا تحتاج إلى تنقیح یا جیم . إن أمثالنا وضعت
 فی زمهریر الشتاء ونحن الآن فی صیف الحیاة ، بل أنا الآن فی الربیع ذی
 البراعم والعطور والسماء الضحوك .

قال الفتی فی وجوم :

— إن صدیقك هذا من طبقة الأشراف ، ألیس كذلك ؟

فقالت بصوت عذب :

— بل هو أمیر کریم .

— إنه یرید أن یستعبدك .

— وأنا أقبل هذه المبودیة طائعة مختارة .

— احذریه یا سیبیل .

— کیف أحذره وأنا أثق فیه ثقة عمیاء ، وکیف أنخوف منه بعد أن

أخذت منه صنمی .

— هذا الحب جنون یا سیبیل .

فضحكت سیبیل وأمسكت بذواعه قائلة .

— جیم ، یا حبیبی ، إنك تتكلم كأَنَّك شیخ طاعن فی السن وما أنت إلا

حدث صغیر . وسوف یأتی یوم تذوق فیه الهوى بنفسك فتعرفه علی حقیقته .

فدع عنك هذا الوجوم یا جیم . ألا یسعدك وأنت راحل إلى استراليا أن

تعرف بأنك ستركني أسعد نفساً مني في أي زمن مضى ؟ لقد قست الحياة علينا معاً ، بل حطمتنا تحطيماً . أما الآن فالأمور على خير مايرام . فأنت نازح إلى عالم جديد ، وأنا قد وجدت عالماً جديداً . هيا بنا نجلس على هذين المقعدين ونأمل سراً الناس غادين وراحين .

وجلسا ترقبهما أنظار الناس ، وكانت أزهار التوليب في الجانب الآخر من الطريق تهتز في الهواء وتضيء كالنجوم الماتية . واهتزت في الهواء كذلك سحابة معلقة بيضاء وبدت الشمسيات الزاهية الألوان التي يحملها السادة كأنها فراش جسيم .

وحملت سيبيل أختها على أن يتحدث عن نفسه وعن آماله وأمانيه ، وكان يتكلم في مشقة وأناة . وتبادل الأخ والأخت الكلام في عناية كأنهما لاعبان يتبادلان الكرة . أما سيبيل فقد اختنقت بأفراحها ولم تستطع الإفصاح عما بها ، وكان كل ماظفرت به من أخيها ابتسامة ارتسمت على فمه الحزين . ومرت بهما عربة مكشوفة . وجأة لحق سيبيل الأمير الساحر ذا الشعر الذهبي والفم البسّام داخل العربة . لقد كان دوريان جرای يتنزه مع سيدتين ،

ونفضت سيبيل من مكانها وصاحت قائلة :

— هوذا ! هوذا !

قال جيم فين :

— من ؟

أجابت وهي تتبع العربة ببصرها :

— الأمير الساحر .

فنهض الفتى وأمسك بذراعها في خشونة وقال :

— أين هو ؟ أين هو ؟ لا بد أن أراه !

ولكن مركبة الدوق يريويك مرت أمامهما في تلك اللحظة وحجبتهم عنهما ،

فلما أخلت أمامهما الطريق كانت عربة دوريان قد انطلقت خارج هايد بارك .

قالت سيميل في أسف :

— لقد خرج ، فليتك رأيته يا جيم .

— نعم ، ليتني رأيته ، فإني أقسم أمام الله أني قاتله لو مسك بسوء .
فارتاعت الفتاة ولكن الفتى أعاد عليها كلماته فنفذت كالمدي إلى قلبها .
وبدا الناس يحملقون فيهما ، وكانت على مقربة منهما سيدة أخذت تضحك
منهما كالأطفال . قالت الفتاة :

— هيا بنا يا جيم . هيا بنا .

وشقت طريقها بين المتزهين يتبعها أخوها وأحس جيم بالراحة بعد أن
أسمعها وعيده ، وحين بلغا تمال آخيل التفتت إلى أخيها تكلمه وقد زخر
قلبا بالعطف عليه فضحكت وهزت رأسها وقالت له :

— إنك لازلت صبياً أحمق يا جيم . إنك لازلت صبياً شرساً أحمق
لأكثر ولا أقل ، وأنت لانفهم معنى ماتقوله . كل ما هنالك أنك تغار منه
وهذا سر سخطك عليه . فليتك تجرب الحب يا جيم ، إن الحب يهذب طبائع
الناس ، وما قلته الآن يدل على سواد قلبك .

فأجاب جيم :

— بل أنا أفهم معنى ما أقول فانا في السادسة عشرة من عمري ولقد
لاحظت أن امننا لانسهر على سلامتك . إنها لانفهم كيف تكون التربية
الصالحة وإني لأفضل العدول عن السفر إلى استراليا لأضع حداً لهذا الخطر
وأحميك من الغواية ، ولولا أن أوراقى قد تم توقيعها فعلاً لبقيت معك .

— لانفهم كل هذا الإغتمام يا جيم ، فالخطر الذى نتحدث عنه وهم من
نسج خيالك ، وأنت الآن تبدو كبطل من أبطال تلك المسرحيات العنيفة
السخيفة التى كانت امننا مولعة بتمثيلها ، فلن أحاسبك على ما قلت ولن أفسد
بالشجار هنائى الآن بعد أن رأيت الأمير الساحر . وأنا أعلم أنك لن تؤذى
إنساناً أعزه أنا ، أليس كذلك يا جيم ؟

فأجابها قائلاً :

— نعم ، فلن أمسه بسوء طالما أنك تحببنيه .

قالت :

— سأحبه حتى الموت .

— وإلام سيحبك هو ؟

— سيحبني حتى الموت كذلك .

— من الأخير له أن يخلص لك دائماً .

فنفرت منه خوفاً ، ولكنها عادت فضحكت وأمسكت بذراعه ، فقد تذكرت أن جيم لم يكن سوى صبي غريب .

وبلغا ماربل آرتش في ركن هايد پارك ولوحا لآمنيبوس فوقف الآمنيبوس وحملهما إلى نقطة قريبة من بيتهما المتواضع في طريق يوستون . وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، وكان على سيميل أن تستريح نحو الساعتين قبل أن تبدأ التمثيل . وألح جيم عليها في أن تستريح وأراد أن يودعها قائلاً إن تلك اللحظة كانت أنسب لحظة للوداع فأمهما لم تكن حاضرة ، ولو قد كانت لجعلت من الوداع مشهداً مؤثراً كعادتها في كل شيء وهو يمقت المشاهد المؤثرة مقناً شديداً . وتوابع الأخ والأخت في غرفة سيميل ، وكان قلب الفتى يلتهب بالغيرة ، وكانت عيناه تومئتان بشر مستطير فقد توهم جيم أن هذا الدخيل ماجاء إلا ليفرق بينهما فتار في نفسه فقد قاتل . ولكنه ضعف أخيراً حين عانقته اخته وذهبت تعبت بأصابعها في شعره ، ورق فؤاده فقبلها قبلة الحنان الصادق ، وحين نزل على الدرج كانت الدموع تفرق في عينيه .

وكانت أمه تنتظره في الطابق الأرضي فلما رآته بدأت تلومه على تأخره فلم يجبها بشيء بل جلس إلى المائدة ليتناول زاده القليل . وطن الذباب حول المائدة ودب على المفروش الملوّث وكان يسمع عجيح الآمنيبوس وضجيج



صفحة ٨٦

لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى الشهيد ليتمم ماله من طابع مسرحي

ال
أ

م

و

ف

ت

ال

ع

ف

م

أ

ت

و

أ

و

ع

و

العربات الرأتمات الغاديات في الخارج فيزداد إحساسه بفوات الزمن ، وعلم أنه لا بد راحل بعد قليل .

وبعد لحظة دفع بالطبق بعيداً عنه ووضع رأسه بين يديه ، وأحسن أن من حقه أن يعرف الحقيقة . لقد كان الشك يأكله أكلاً ، ولو أن شكه كان في موضعه لوجب على أمه أن تطلعه على الحقيقة من قبل . وكانت أمه ترقبه في خوف عظيم . كانت تتحدث إليه على نحو آلى دون أن تفقه كثيراً مما تقول ، وكانت أصابعها تعبث طيلة الوقت بمنديل مزق حتى دقت الساعة السادسة فنهض ومشى إلى الباب ، لكنه التفت إليها وأنشأ يتأملها وتلاقت عيونهما فقرأ في عينيها معاني الاستعطف الشديد فغضب غضباً شديداً . قال : — لدى سؤال اود أن أطرحه عليك يا أماد .

فتأملت عيناها في أنحاء الغرفة لا تستقران على شيء ، ولم تجب بكلمة . فاستأنف الفتى حديثه قائلاً :

— صارحيني بالحقيقة ، فمن حتى أن أعرف كل شيء . أكنت متزوجة من أنى ؟

فتنهدت في ارتياح . ها قد جاءت اللحظة العصبية التي كانت تخشاها الأيام والليالي . جاءت أخيراً . ولكنها لم تشعر بالرعب القاتل الذي كانت تنتظره . حقاً لقد خاب أملها شيئاً ما ، فقد كانت تتوقع موقفاً حرجاً كمواقف المسرح ، وهي ولوع بمواقف المسرح . ولكن السؤال جاء بسيطاً لا تنميق فيه ، بسيطاً إلى حد الابتذال ، وكان لا بد من جواب بسيط كذلك . نعم ، لقد كان السؤال خشناً لا يدل على لباقة ، جاء بلا تمهيد فذكرها ببروفة غير موفقة . أجابت في بساطة :

— كلا .

وعجبت لبساطة الحياة . وعجبت لما في هذه البساطة من غلظة . قال الفتى وهو يجمع قبضتيه :

— إذا فقد كان أبي وغدا .

فهزت رأسها وأجابت :

— لقد كان مقيداً بامرأة أخرى ، وكنت أعلم ذلك عنه ، ولكننا تبادلنا الحب ولو أنه عاش لجعل لنا معاشاً منتظماً . لا تقل فيه سوءاً يا بني فهو أبوك على كل حال ، ولقد كان فوق ذلك سييداً كريماً . نعم ، لقد كان أبوك من أسرة كريمة .

نخرجت من فيه اللعنات وقال :

— أنا لا أفكر في أمري ، ولكن أفكر في أمر سيبييل . فهذا الذي يحبها أو يزعم أنه يحبها سييد كريم كذلك ، ولعله من أسرة كريمة . فما أشبه اليوم بالبارحة .

ومرت لحظات أحست فيها المرأة العجوز بذل عظيم ، فطأطأت رأسها ومسحت دموعها بيد ترجف وقالت :

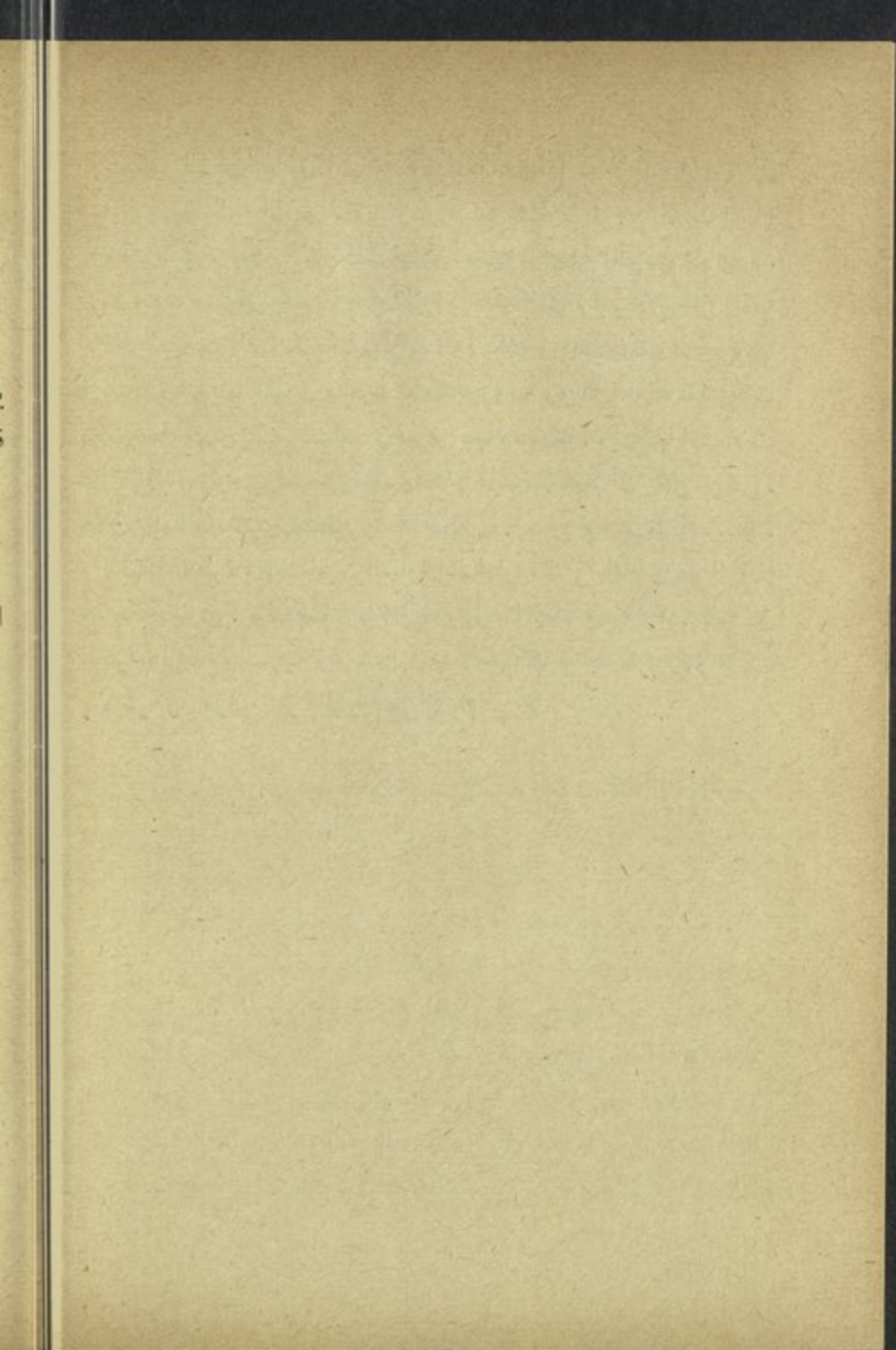
— إن لسيبييل أمّاً تحميها ، أما أنا فلم تكن لي أم .

فتأثر الفتى أيما تأثر ، واقترب منها وقبلها ثم قال :

— لقد آلمتك يا أماء بالكلام عن أبي فاصفحي عني ، وأرجو أن تعتقدني أنني اضطررت إلى ذلك اضطراراً . والآن ينبغي أن أرحل فواعاً ، ولا تنسى أنه لم يعد لديك الآن إلا شخص واحد تمهرين عليه ، وثق أنه لو أصاب سيبييل مكروه بسبب هذا الرجل فإني لمطارده في أركان المعمورة الأربع وإني لقاتله أشنع قتلة . أقسم بذلك أمام السماء .

وانتعش الجو حول مسزفين فقد كانت ترتاح إلى المواقف المسرحية وها هو ذا ولدها يرغى ويزبد ويهدد ويتوعد ويشير بيديه إشارات حائقة . لقد ألقت هذا الجو على المسرح وكانت تحتقن كلما خرجت منه ، فلما سمعت ولدها يتحدث على هذا المنوال عادت إلى حالتها الطبيعية وأحست نحوه بإعجاب شديد لم تحس به من قبل ، ولقد كانت تود أن يستمر الموقف على هذه

الدرجة من التوتر لولا أن ابنها وضع له حداً . فالحقائب لا بد من حملها إلى الخارج ، والكوفيات والمناديل وما أشبه ذلك لا بد من البحث عنها ، والوقت ضيق ، وقد تم كل ذلك فعلاً وأعقبته مساومة الخوذي على أجره . ولقد منيت مسزئين بخيصة أمل أخيرة . فقد كانت ترجو أن تكون لحظة الوداع غنيقة بدموعها غنيقة بالحمرات . ولكنها وجدت نفسها تلوح لابنها في النافذة بمنديلها الممزق والعربة تبتعد به رويداً رويداً ، نعم ، لقد أفلتت منها فرصة كبرى كانت تستطيع أن تعرض فيها ملكاتها . ولكنها استعاضت عما فاتها بأن شرحت لسيديل مبلغ وحشتها المستقبلية بعد أن رحل جيمس . فالآن لم يعد لها سوى شخص واحد تسهر عليه ، ويا لوحشتها المستقبلية . وأعجبها الفكرة ، فاستظهرت العبارة استظهاراً ، لعل الحاجة تدعو إليها في مناسبة أخرى . ولكنها لم تشب بكلمة إلى ما سمعته من وعيد . لقد كان الوعيد واضحاً لا ريب فيه ، قوياً ، أكيداً ، ولكنها لم تجد ما يبرره وأحست بأنه سيكون موضع سترشم في يوم من الأيام



الفصل السادس

*

كان بين اللورد هنرى وبازيل هور وولد ودوريان جرای موعده بمطعم
برستول في ذلك المساء . فلما دخل هولورود إلى الحجرة الصغيرة التي أعد
فيها الطعام لثلاثتهم قال اللورد هنرى :

— لعلك سمعت آخر الأنباء يا بازيل .

فأجاب الفنان وهو يسلم معطفه وقبعته لخادم المطعم الذي انحنى أدباً :
— كلا ، يا هارى ، ما سمعت شيئاً ، فما الخبر ؟ أرجو ألا تروى على أخبار
السياسة فأنا لا أهتم بها . ولست أجد بين أعضاء مجلس العموم شخصاً
واحداً يستحق أن أرسمه ، وإن كانت كثرتهم المطلقة تحتاج إلى ترميم كثير .
قال اللورد هنرى وهو يتأمل صاحبه ليرى فعل كلماته في نفسه :

— إن دوريان جرای قد عقد خطبته على فتاة .

ففزع هولورود وأظلم وجهه وقال :

— هذا مستحيل !

— بل هذا صحيح .

— ومن تكون هذه الفتاة ؟

— ممثلة .

— هذا كلام غير معقول ، وعهدى بدوريان أنه أرشد من أن يرتكب

حماقة كهذه .

— أليس من الرشد أن ترتكب الحماقات بين حين وآخر يا بازيل ؟

— ولكن الزواج ليس من الحماقات التي نستطيع أن نركبها بين حين

وآخر ، يا هارى .

أجاب اللورد هنرى فى تراخ :

— هذا صحيح ، ولكنه لا ينطبق على أمريكا . على أنى لم أقل إنه قد تزوج فعلا . كل ماقلته إنه قد عقد خطبته على هذه الفتاة ، والفرق عظيم بين أن تخطب الفتاة وأن تتزوج منها . فأنا لن أنسى أنى متزوج مع أنى نسيت أيام الخطبة . بل إنه ليخيل إلى أنى لم أمر فى دور الخطبة كسائر الناس . — ولكن ألا يروى أنك أنى تتزوج دوريان على نبل محمده وعلو مكانته وسعة جاهه من فتاة أقل منه فى كل شىء ؟

— إذا سمع دوريان منك هذا الكلام فهو لا يبدى ماض فى عزمه . فالحماسة التى تركبها تأتى عادة من الدوافع النبيلة فىنا . — أرجو أن تكون هذه الفتاة طيبة القلب ، ويسوءنى أن أرى دوريان مشدوداً بوئاق من حديد إلى مخلوق بغيض يهوى به إلى الحضيض العقلى والمخلقى .

فقال اللورد هنرى وهو يشرب بعض القرموت وعصير البرتقال :

— إنها جميلة ، والجمال أعلى من طيبة القلب . نعم . لقد قال لى دوريان إنها جميلة ، وهو قلما يخطئ فى تقدير هذه الأمور إن الصورة التى رسمتها له كان لها أثر عجيب فى تنمية إحساسه بالجمال لا يقل عن أثر تعاليمى ونحن الليلة ذاهبون لرؤيتها ، هذا إذا لم يخلف دوريان ميعاده .

— أنت جاد فيما تقول ؟

— طبعاً يا بازيل . لم أكن أكثر جدّاً فى أى وقت منى الآن .

وشرع الرسام يقطع الغرفة جيئة وذهاباً ثم عض شفته ألماً وقال :

— ولكن أموافق أنت على هذا الزواج يا هارى ؟ محال أن توافق فما هو إلا نزوة عارضة .

— لم أعد أوافق أو أعترض فى هذه الأيام يا بازيل ، فقد وجدت أن هذه فلسفة سخيصة تواجه بها الحياة . نحن لم نأت إلى هذا العالم لنطلع

الآخرين على أحكامنا الأخلاقية صحيحة كانت أم فاسدة فأنا لا أكرث لما يقوله الدهماء وأنا لا أ تدخل فيما يفعله الخاصة . فإن جذبتني شخصية إنسان ما وجدت ما يستهويني في كل عمل يعمل وفي كل كلمة يقوها ، أيا كانا . فمثلا إذا أحب دوريان فتاة جميلة تمثل دور جوليت ورأى أن يخطبها إلى أهلها فلست أجد على ذلك اعتراضاً . ولو قد تزوج الإمبراطورة مسالينا لما ارتفع في نظري عما هو الآن . أنت تعرف أنني لست من أنصار الزواج ، فالكعبة الحقيقية في الزواج هو أنه يزيل أثرة الإنسان ، والأثرة شيء لازم يضاف على الشخصية قوة وسحراً ، ومن خلوا منها خلوا من الشخصية المستقلة ، ومع ذلك فإني أقول إن من الشخصيات ما يزداد بالزواج تعقداً ، فيستعيد أثرته المفقودة ، بل تصبح الأثرة جملة أنوات ، فلا يكفي بحياة واحدة يحياها وإنما تتعدد فيه الشخصية وتصبح حياته منظمة متمسكة ، وأحسب أن النظام والتماسك هما هدف الاختبار الإنساني . وأضيف إلى ذلك أن لكل اختبار قيمته في الحياة ، ومهما ساء ظننا في الزواج فلن نستطيع أن ننكر أنه اختبار من اختبارات الحياة . وأرجو أن يتزوج دوريان جرای من هذه الفتاة ويحرق لها الشموع ستة أشهر أو نحو ذلك ثم يزهدها ويتحول عنها فجأة إلى غانية أخرى . فإن فعل ذلك كان موضوعاً للدراسة شائقاً .

— أنت لا تعني كلمة واحدة مما تقول يا هاري ، وأنت أول من يعرف ذلك . ولو أن مكروها نزل بدوريان جرای لكنت أول من يأسف لحاله فأنت كريم النفس وإن تكلفت القسوة تكلفاً .

فضحك اللورد هنري وقال :

— إن منشأ احترامنا للآخرين هو خوفنا من ألا يحترمنا الآخرون ، وأساس التفاؤل هو فرعنا من الكوارث لا أكثر ولا أقل . وإذا أحسنا الظن بجارنا نسبنا إليه من الفضائل ما قد يعود بالفائدة علينا ، فنحن نقرض مدير البنك لعله يقرضنا بعض المال ونصف قاطع الطريق بالبطولة لعله يتجاوز

عما في جيوبنا . إنما قصدت كل كلمة قلتها يا بازيل ، وأنا أحتقر التفاؤل
احتقاراً لا مزيد عليه . أما ما ذكره من أن حياة دوريان قد تتحطم فيدخل
في باب الهراء ، لأن الحياة لا تتحطم إلا إذا توقفت عن النمو . وإذا ما أردت
إفساد نفس فعليك بإصلاحها . أما الرباط المقدس فغلطة حمقاء ، وهو بديل
سوء لروابط أخرى بين الرجال والنساء أجدى عليهم وأعظم سلطاناً على
نفوسهم ، روابط أويدها أنا بكل ما بي من قوة ، لأنها تعبر عن روح العصر
الذي نعيش فيه . ولكن كفى لغواً فما هو ذا دوريان قادم بنفسه علينا
وسيزودك بما أجهد من أخباره .

قال الفتى وهو يصافح صديقيه الواحد بعد الآخر :

— أمطرا على التهاني يا عزيزي هاري وأنت يا عزيزي بازيل ، فما أسعدني
الآن . لقد تمت المسألة كلها نجاة ولكن هذه سنة الحياة فكل ما فيها من
متع حقيقية تأتينا على غرة منا ، ومع ذلك فإنها تبدو لي كأنها الشيء الوحيد
الذي كنت أبحث عنه طول حياتي .

وفيما كان يتكلم كان الدم يجري في وجنتيه من فرط السرور فزاده ذلك
جمالاً على جمال .

قال هولوردد :

— أتمنى لك السعادة المتصلة يا دوريان ، ولكني لا أغتفر لك إخفاء
خطبك عني مع أنك أطلعت هاري عليها .

ووضع اللورد هنري يده على كتف الفتى وقال :

— وأنا لا أغتفر لك تأخرتك في العشاء . فلنجلس لنرى ماذا أعد لنا
الطاهي الجديد ، وفي هذه الأثناء تسرد أنت علينا كيف تم كل شيء .

قال دوريان وهم يجلسون إلى المائدة الصغيرة المستديرة :

— ليس عندي ما يستحق السرد . وكل ما حدث هو أنني حين تركتك
بالأمس يا هاري ، عدت إلى منزلي وارتديت ملابس المبهرة ثم تناولت عشاءً

في ذلك المطعم الإيطالي بإشارع روبرت الذي دللتني عليه ولما بلغت الساعة الثامنة قصدت إلى المسرح . وكانت سيبيل تمثل روزاليند وبطبيعة الحال كانت المناظر بشعة ، بل كان كل شيء بشعاً ما خلا سيبيل فقد تجملت في أنهي حال . ولما خطرت أمامي في زى صبي بدت آية من آيات الإبداع . كانت سترتها مخملاً أخضر ذا أكمام صفراء ، وكانت تلبس تزلكا رقيقاً ذا كني الصفرة وقبعة خضراء رشيقة عليها ريش مثبتة في جوهرة كريمة ، وكان يغطي كتفيها معطف نصفى مخطط بالأحمر الداكن ، فبدت لي أجمل ما تكون ، وأشبهت في دقة تكوينها ذلك التمثال الإيطالي الصغير الذي يحلى استوديو بازيل . وبدا وجهها وسط شعرها كوردة بيضاء وسط أوراق الشجر الكثيفة ، ثم مثلت فأبدعت ولسوف تزيانها الليلة فيتحقق لكما ما أقول . إنها فنانة موهوبة ملكت على حواسي وأنا جالس في المقصورة الحفيرة ، فأنستى أني كنت في لندن وإني أعيش في منتصف القرن التاسع عشر ، وجملتي على جناح الخيال مع محبوبتي إلى غابة نائية لم ترها عين بشر . وبعد انتهاء التمثيل قصدت إلى غرف الممثلين وتحدثت إليها . وفيما نحن جالسان رأيت في عينيها بريقاً جديداً لم أعهد فيه ، واقتربت شفقتاي من شفقتها وقبلتها . أما إحساسي في تلك اللحظة فلا سبيل إلى وصفه . لقد خيل إلي أن حياتي كلها قد ركزت في ذرة واحدة من السعادة التي ما بعدها سعادة ، وأخذت تنتفض بين يدي كأنها نرجسة بيضاء تنتفض أمام ريح خفية ، ثم جثت على ركبتها وقبلت يدي . ما كان ينبغي أن أقول لكما ذلك ولكن قوة فاهرة تسوقني إلى الإفشاء بكل شيء . ومهما يكن من أمر فخطبتنا لا تزال سرا لا يعرفه أحد ، حتى أمها ذاتها ، ولست أدري كيف يستقبل أوصيائي هذا النبأ ، ولكن مما لا شك فيه أن اللورد رادلي سوف يغضب غضباً شديداً . فان غضب فلست مقبياً لغضبه وزناً ، لأنني سأبلغ سن الرشد بعد عام واحد على كل حال . ألا ترى أني قد أحسنت صنعاً حين التمت فتاة أحلامي من عرائس الشعر

واخترت شريكة حياتي من بين بطلات شكسبير ؟ إن هاتين الشفتين اللتين
عليهما شكسبير فن الحديث قد همستا في أذني أسرار قلبها العميق ، ولقد
طوقتني روزاليند بذراعيها الجميلين ولقد قبلت ثغر جوليت فسكرت
على الرحيق .

قال هولوردد في ثورة :

— نعم يادوريان أعتقد أنك أحسنت صنعاً

وسأل اللورد هنري دوريان جرای قائلاً :

— أرايتها اليوم يادوريان ؟

فأجاب الفتى وهو يهز رأسه دلالة النفي :

— كلا . فقد تركتها في غابة أردن وسأجدها في بستان ثيروننا .

قال اللورد هنري وهو يشرب كأس الشمبانيا في تدبير عميق :

— قل لي يادوريان ، متى أشرت إلى الزواج صراحة ، وماذا أجابت حين

عرضت عليها الزواج ؟ أفنك قد نسيت كل ماجرى ؟

— كلا يا صديقي هاري ولكنني لم أبحث الزواج معها كما يبحث تاجر صفقة ،

بل إنني لم أطلب إليها الزواج بصورة رسمية . كل ما حدث هو أنني ذكرت لها

إنني أحبها فأجابت بأنها لا تستحق أن تكون زوجاً لي ، فما أشد تواضعها

يا هاري ! إن العالم كله لا يساوي عندي خردلة إذا قيس بها .

فقال اللورد هنري بصوت خافت :

— إن النساء عمليات إلى حد بعيد . نعم إن تفكيرهن أكثر عمالية من

تفكير الرجال . ففي مثل هذه المواقف كثيراً ما ننسى أن نشير إلى الزواج

ولكنهن يذكرننا دائماً به .

فأمسك هولوردد بذراعه قائلاً :

— كفي يا هاري . لا تحرض دوريان على الغدر فهو يختلف عن سائر الناس .

إن طبيعته الصافية تأتي عليه أن يتزل بأحد ضراً . وإنك لتغضبه بهذا الكلام

فأجاب اللورد هنرى بقوله :

— إن دوريان لا يغضب منى أبداً . لقد سألته هذا السؤال بدافع الفضول ، وهو الدافع الوحيد الذى يميز لنا أن نسأل الأسئلة . ومن رأى أن النساء هن اللاتي يخطبننا ، اللهم إلا عند أبناء الطبقة المتوسطة ، وتفسير ذلك ان الطبقة المتوسطة طبقة رجعية .

— فضحك دوريان جرای وهز رأسه قائلاً :

— لا سبيل إلى إصلاحك يا هارى ، ولكن قل ما تشاء فلن يغضبني كلامك ، ولو أنى أردت أن أغضب منك لما استطعت ذلك . إن الرجل الذى يمس سيبيل فين بسوء جبان دنىء ولسوف تشاركني رأى حين تراها . ثم إنى لا أفهم كيف يلوث إنسان الشئ الذى يحبه . فأنا أحب سيبيل ، ولذلك ترانى أود أن أضعها على قاعدة من ذهب سيبك وأن أشاهد العالم يتعبد للمرأة التى أملكها . وما الزواج ؟ أليس الزواج عهداً لا ينقض ؟ إنك تسخر من الزواج يا هارى ، ولكن موقفك خاطئ . أما أنا فأريد أن آخذ على نفسى عهداً لا ينقض ، ولسوف تجعلنى تقها فى وفياً على الميثاق ، ولسوف يجعلنى إيمانها بى أصفى نفساً وأبقى ضميراً . لقد بدانى حبها من حال إلى حال فإن مست يدها يدي أهنتى عن كل ما فى الدنيا ، أهنتى عنك وعن نظرياتك الجميلة السامة .

قال اللورد هنرى وهو يتناول قليلاً من السلطة :

— أى نظريات تعنى ؟

— أعنى نظرياتك فى الحياة وفى الحب وفى اللذة . بل أعنى كل نظرياتك

يا هارى .

فأجاب اللورد هنرى بصوت عذب بطئ :

— اللذة هى الشئ الوحيد الذى يستحق أن توجد فيه النظريات . ومع كل فأننا لا ادعى أن نظرياتى من عملى فهى من عمل الطبيعة . إن اللذة مقياس

الطبيعة ودليل رضاها فالسعداء دائماً أخیار واسكن الأخیار لیسو دائماً سعداء .

قال بازیل هولوررد :

— ولكن ماذا تفهم من كلمة الخیر .

وقال دوریان جرای وهو یغوص فی مقعده وینظر إلى اللورد هنرى من وراء الأزهار الحمراء التى تزين المائدة .

— نعم . ماذا تفهم من كلمة الخیر یا هارى ؟

فأجاب اللورد هنرى وهو یقبض على كأسه بأصابعه الشاحبة النحيلة :

— الخیر هو انسجام الإنسان مع نفسه . والفوضى هى اضطراب

الإنسان للانسجام مع الغير . إن حياة الإنسان هى كل ماله فى هذا الوجود أما حياة الجیران فلیست من اختصاصنا وإن كنا نظهر الاهتمام بها من باب النفاق الاجتماعى أو من باب التدين الشدید . ثم إن للفردية غاية سامية هى ضمان التقدم ، ولقد أصبح المقياس الحديث فى الأخلاق قبول مقياس العصر الذى نعيش فيه ، أما أنا فاقول إن قبول مقياس العصر الذى نعيش فيه عمل مناف للأخلاق وخطأ لا یغتفر لأى رجل مثقف .

قال الرسام :

— ولكن من عاش لنفسه فقط دفع الثمن غالياً یا هارى .

— نعم ، فنحن الآن ندفع ثمن كل شىء غالياً حتى السلع التى نشترىها .

وأنى أعتقد أن المأساة الحقيقية فى حياة الفقراء هى أنهم لا یملكون إلا تضحياتهم یجودون بها للمجتمع . أما الخطایا فهى ترف لا یملكه إلا الأغنياء .

— لم أقصد أننا ندفع الثمن تقدماً یا هارى .

— إذا فكیف ندفعه یا بازیل ؟

— قصدت أن الثمن الذى ندفعه هو تأنيب الضمیر والآلام والإحساس

بالأخطا .

فهز اللورد هنرى كتفيه وقال :

— إن فن العصور الوسطى جميل حقاً ولكن أفكار العصور الوسطى أفكار بالية وعواطف العصور الوسطى عواطف لا مجال لها في العصر الحديث . نحن بالطبع نستطيع أن نستفيد منها في القصص الذي نكتبه ولكن هذا من خصائص القصص ، فكل ما نفيذه في الحياة نجد له مكاناً في القصص . أوكد لك أنه ما من رجل متحضر بأسف على لذة جناها وما من رجل متبرير يعرف اللذة كيف تكون .

قال دوريان جرى .

— اللذة عندي هي أن أتعبد لكائن ما .

فقال اللورد هنرى وهو يعبت ببعض الفواكه الموضوعة على المائدة :
— هذا أفضل من أن يتعبد الغير لك ، لأن ذلك مدعاة الضجر . إن النساء يعاملننا كما نعامل نحن الآلهة ، فهن يحرقن لنا البخور ويضايقننا بمطالبهن التي لا تنتهى .

وبدا الجد على وجه الفتى وقال :

— يخيل إلى أنهم يأخذون ما أعطين لا أكثر ولا أقل . لقد غرسن في قلوبنا الحب ، وأعتقد أن من حقهن أن يطلبن استرداد هذا الحب .

فقال هولوردد :

— أنا من رأيك يا دوريان . فهذا صحيح تماماً .

قال اللورد هنرى :

— ليس في الوجود ما هو صحيح تماماً .

فقاطعه دوريان قائلاً :

— ولكن لا بد أن تعترف يا هارى بأن النساء يعطين الرجال انفس شئ

في حياتهن الا وهو ذهب الشباب .

فاجاب اللورد هنرى :

— هذا جائز ، ولكنهن بلا استثناء يردن استرداد هذا الذهب مننا مفكوكا وهذا ما يحزن الإنسان . إن النساء كما وصفون ذكي من أذكاء فرنسا يلهن فينا الرغبة في القيام بروائع الأعمال ثم يمنعننا عن تنفيذ هذه الرغبة .

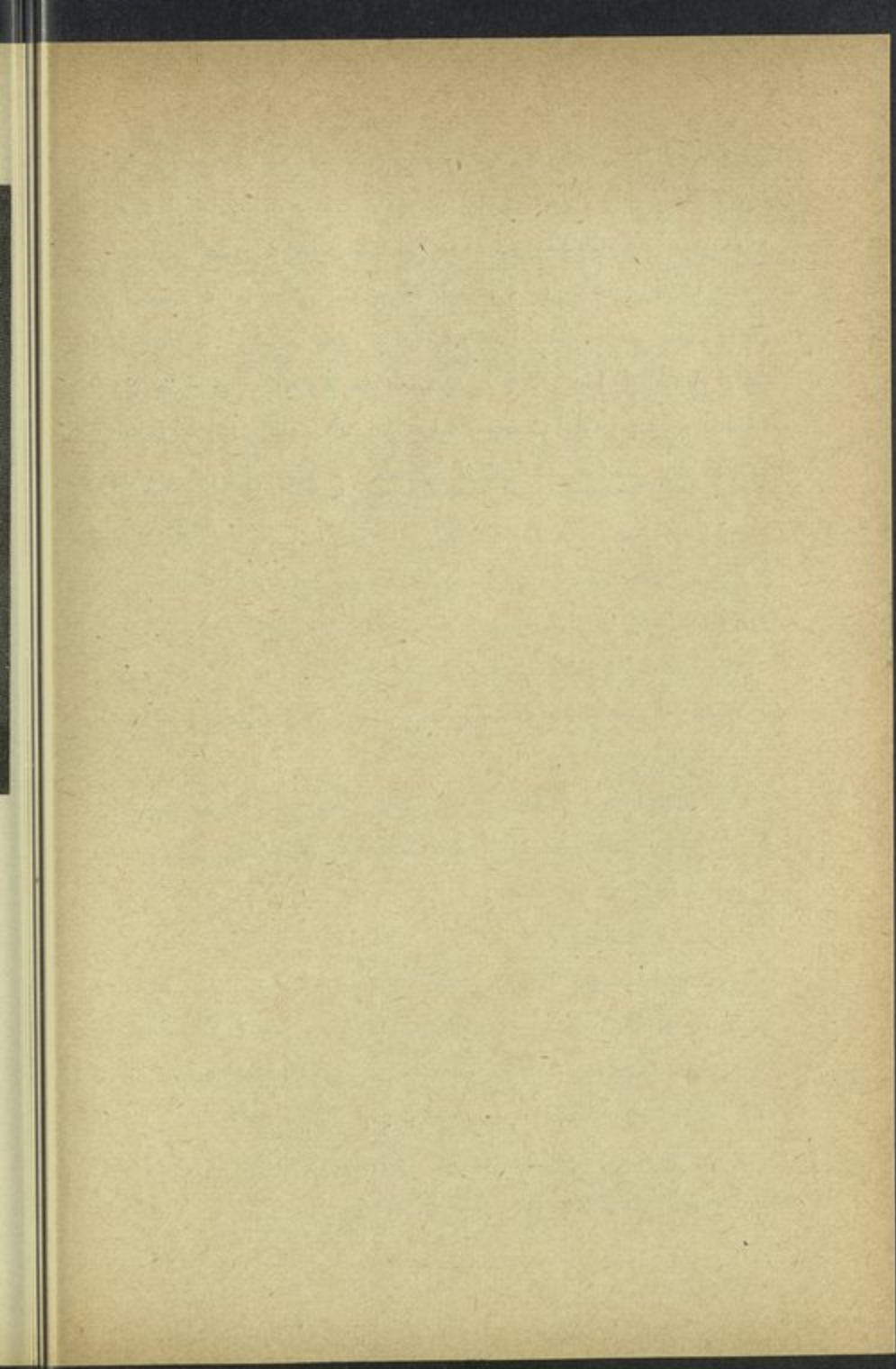
— أنت شخص لا يطاق يا هارى ، ولست أدرى فيم تعلق بك .
فأجاب اللورد هنرى :

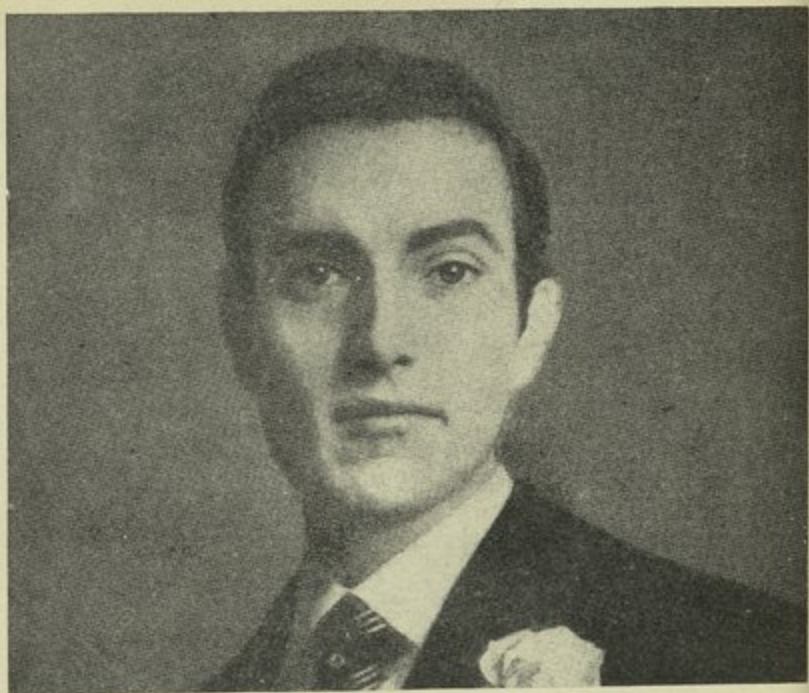
— إنك ستتعلق بى دائماً . ألكما فى قليل من القهوة ؟ هات لى بعض القهوة وبعض الشمانيا وبعض السجائر يا جون . كلا يا جون لا تأت بسجائر لأن معنى منها ما يكفى . لن أسمح لك يا بازيل بأن تدخن السجائر نخذ سيجارة . إن السيجارة هى احسن مثل لأحسن متعة ، فهى لذيدة وهى لا تشمع حواسك تماماً ، وهل بين متع الحياة ما هو خير من ذلك ؟ نعم يا دوريان ، إن حبك لى لن يفتر أبداً ، فأنا أمثل لك جميع الرذائل التى لا تجرؤ على الانغماس فيها . فقال الفتى وهو يشعل سيجارته من نار قدمها خادم المطعم له تخرج من فم تنين صنع من الفضة :

— ما هذا الهراء يا هارى ! هيا بنا إلى المسرح ، وسوف تتغير أراؤك فى الحياة حين تشاهد سيبيل تخطر أمامك على الخشبة ، فهى تمثل جانباً من الوجود لم يصل بعد إلى علمك .
أجاب اللورد هنرى :

— هذا مستحيل لأن علمى أحاط بكل شيء ولكنى نهم إلى كل إحساس جديد ، وإن كانت نفسى كذلك لا تتسع لإحساس جديد لأنها جربت كل شيء . مهما يكن من شيء فمن الجائر أن تثيرنى صديقتك الصغيرة الفاتنة ، فأنا أحب التمثيل وأجده أقرب إلى الواقع من الحياة . هيا بنا . اركب معى يا دوريان فى عربتى ، أما أنت يا بازيل فيؤسفنى أن أطلب إليك أن تستأجر عربة وتلحق بنا لأن عربتى لا تتسع إلا لشخصين .

ونهمض ثلاثتهم وارتدوا معاطفهم وشربوا قهوتهم وقوفا . أما الرسام فكان صامتا منشغلا البال عليه وجوم . لقد كان يجد في هذا الزواج غلطة كبرى ، ومع ذلك فقد أحس أنه أهون شرا من سواه . وبعد دقائق كانوا جميعا خارج المطعم وسعت به العربة التي استأجرها تتبع عربة اللورد هنري فأنشأ يتأمل أنوارها الباهرة . وغمره شعور بأنه أضاع شيئا ثميناً . أحس بأن دوريان جرای قد خرج من حياته ولم يعد يهتمه شيء كما كان يفعل في الماضي . لقد حالت بينهما الحياة . واطمأنت الدنيا في عينيه وسبحت أمامه المصاييح الثاقبة ، ولم يعد يرى المارة في وضوح . فلما أن بلغ باب المسرح أحس بأنه قد نما أعواماً وأعواماً .





صفحة ١٢٦

... فيها هي الصورة امامه تحمل معاني القسوة ...

اليهود
وقال
مشي
صو
شد
ارتا
وأ
عبيقة
وج
المس
اور
وو
الطير
الرث
مز
اللو

الفصل السابع

*

كانت دار التمثيل في تلك الليلة تعج بالنظارة لسبب لايعلمه أحد، ووقف اليهودى البدين بباب الدار يستقبلهم وهو منشرح الصدر طافح بالبشر، وقاد ثلاثتهم إلى المقصورة الخاصة بهم في احتشاد عظيم وفي خيلاء معاً، مشيراً بيديه الغليظتين المرصعتين بالجواهر في كل اتجاه متحدثاً إليهم في صوت مرتفع كأنهم صم لا يسمعون. فأحس دوريان جرای نحوه يبعض شديد. أحس بأنه قدم ليرى ميراندا فلم ير إلا كالبيان. أما اللورد هنرى فقد ارتاح إليه، أو على الأقل زعم انه ارتاح إليه ولم ينس أن يصاحفه بحرارة وأكد له أنه يغور بمعرفة رجل مثله أفقره الشعر واستطاع ان يستكشف عبقرية مدفونة كسيلفين، على حين كان هولورديسلى نفسه بتصفح وجوه الرعاع المحتشدين في المقاعد الرخيصة، وكان الحر قائظاً وتدفق في المسرح شعاع عظيم بقى من الشمس الغائبة، شعاع بدا كزهرة جسيمة صفراء اوراقها لُهب هائلة. وخلع الشبان الذين ملأوا شرفات الدار ستراتهم ووضعوها بجانبهم وأنشأ بعضهم في طرف المسرح يتحدث إلى بعضهم في الطرف الآخر، ويقتسمون ما معهم من البرتقال مع الفتيات ذوات الهيئة الزثة الجالسات إلى جوارهم. ورن ضحك النسوة من أسفل القاعة فجاء حاداً مزججاً، ومن البار ارتفع صوت الفلين يخرج من زجاجات الشراب. قال اللورد هنرى

— ياها من مياة بخسة هذه التى وجدت فيها قدسك !

فأجاب دوريان جرای :

— نعم إنها المباعة بخسة ، ولقد وجدت فيها قدسى . أن سيبييل حين
قبس من الله لم يحل بعد في بشر . ولكنك ستنسى هذه المباعة حين تراها
تمثل . وسوف تبصر هذه الوحوش الآدمية الغليظة الملامح الخشنة الطباع
تستأنس حين تخطر سيبييل أمامها على المسرح ، وسوف تراها تجلس في
صمت شاخصة العيون ، تضعك وتبكي بإيماءة منها . إن قلوبهم تستجيب
لها استجابة السكان للقس . إنها تثبت فيهم من عندها روحا وتسمو بهم
عن صدا المادة ، وحين أراهم في هذه الحالة أحس بأنهم خلقوا حقاً من
طينتنا ، نحن النبلاء .

فقال اللورد هنرى وهو يتفحص الأوباش في الشرفات بمنظاره المكبر :
— هذه قسوة منك يادوريان ، فكيف تقول إنهم خلقوا من طينتنا .
قال الرسام :

— لا تلق إليه بالا يادوريان ، وأنا أفهم بالضبط معنى ما تقول
وأشاركك إيمانك بهذه الفتاة . إن فتاة تختصها أنت بحبك لا بد أن تكون
درة بين النساء ، وإن فتاة تترك في نفسك كل هذا الأثر لا بد أن تكون
مخلوقاً سامياً نبيلاً . نعم ، إن فتاة تنفخ الروح في هذه الجمادات المتحركة ،
وتودع الإحساس بالجمال في نفوس ممسوخة مظلمة ، وتزرع الأثر من قلوبهم
فتستدر دموعهم لفجائع لا تمسهم شخصياً خليقة بحبك العظيم ، بل خليقة
بأن تقدمها الدنيا بأسرها . لقد عدلت عن رأيي السابق وأني لاوافق على
هذا الزواج من كل قلبي . إن الآلهة خلقت سيبييل حين من أجلك يادوريان ،
ولن تكتمل نفسك إلا بها .

فأمسك دوريان جرای بيده وضغط عليها في حرارة وقال :

— شكراً لك يا بازيل . لقد كنت أعرف أنك ستفهمني ، أما هاري فهو
ساخر بكل شيء ، وهذا يزعيني ، ولكن كفى حديثاً الآن فقد بدأت

الموسيقى تمهد للتمثيل ، وأرجو أن تحتملها في صبر لأن هذه الألحان المزعجة ستنتهي في دقائق حين يرتفع الستار ، وعندئذ ستريان الفتاة التي سأكرس حياتي لإسعادها ، نعم ، ستريان الفتاة التي وهبتها خلاصة نفسي . وبعد ربع ساعة ظهرت سيبيل فین على المسرح بين دوی من التصفيق يصم الآذان . وقد نجحت في الامتحان الأول نجاحاً باهراً ، فقد رأى الرجال جمالها الرائع وأخذوا به . بل إن اللورد هنري رأى أنها نادرة بين النساء . وبدأت كحورية خجول جفلى ، وحين وقع بصرها على الحشد الحاشد المتحمس في جنبات الدار احمر خدها حياء فبدأ كخيال وردة في صفحة فضية . وتراجعت خطوات وارتجفت شفتاها فنهض بازيل هولورود وأنشأ يصفق تحية لها ، واسترسل دوريان جرای في حلم طويل مخلقا فيها كالمخلق في رؤيا عجيبة ، أما اللورد هنري فكان يتأملها بمنظاره ويردد قوله : « ما أبدعها حقاً ! ما أبدعها ! »

وكان المشهد صحن دار كاپيوليت ، ودخل روميو مع مركشيو وأترابه في زى زائر الحرم وعزفت الفرقة بعض الألحان الايقاعية . وبدأ الرقص ، ومشت سيبيل فین بين جمهرة الممثلين ذوى الثياب البالية كأنها مخلوق علوى موفد من عالم الأحلام . وتثنى جسدها اثناء الرقص كعود الخيزران ، ولاحت تجاعيد جيدها كطيات السوسن الأبيض ، وبدأت يداها الناعمتان كأنهما قدتا من العاج الأملس المنعش .

ولكن فتورها كان ملحوظا ، وحين وقع بصرها على روميو لم يبد عليها الفرح لمراءه ، وحين بدأت تقول : « أيها الزائر الحرم ، الا رفقا بيديك . . . » وما أعقب ذلك من كلمات قليلة بدا حديثها متكلفا للسامعين . كان صوتها جميلا حقاً ، ولكنه كان زائف التلون لا احساس فيه ، فأفسد طعم الشعر الجميل ، وجعل من عاطفة جوليت الصادقة عاطفة باردة مصطنعة . وشحب وجه دوريان جرای وهو يتتبع كلماتها واستبد به القلق وحاد

في أمرها . ولم يحسر صديقه على مكاشفته بحقيقة الأمر ، بأن سيبييل فين
 مثله ساقطة ، بأن سيبييل فين خيبت ظنهما إلى أبعد حد .
 ومع ذلك فقد أحسا بأن منظر الشرفة في الفصل الثاني هو المقياس
 الحقيقي لكل جوليت فازمعا على الانتظار ليصدرا فيها حكما نهائياً .
 وجاء منظر الشرفة فأطلت منها وغمرها نور القمر فكانت آية في الفتنة ،
 ولكن تمثيلها كان مفتعلا إلى حد لا يطاق ، بل كان يزداد افتعلا باطراد
 حتى أمست اشاراتها مضحكة ، وكانت تؤكد كل عبارة تقولها بلا داع
 فمسخت جمال الأبيات التالية .

وانّ ما سمعت من كلامي
 أهب فيّ خفر العذارى
 لكن كفّ الليل يا حبيبي
 ثم بخمار نكس وجهي
 فلم تعد ترى ضرام خدي

ورنت في آذان سامعيها كقطعة من المحفوظات تلقىها تلميذة تولى تدريبها
 مدرس في الالتقاء لا يتقن فنه ، وحين اتكأت على الشرفة وقالت :

أنت ملكت القلب ، بيد أني
 أضرع لك لا تستعجلتي .
 باغتتنا الغرام يا غرامي
 كالسيل ، أو كالبرق في الجوزاء ،
 تأكله الظلماء قبل قولي :
 « انظر لقد أبرقت السماء ! »

إلى الغد المأمول يا حبيبي
عسى براعم الهوى بقلبي
تزهّر عند الصبح ، فوداعاً !

خرجت الكلمات من فمها ميتة كأنها لاتعنى شيئاً ، ولم يكن بها أدنى اضطراب بل كانت تملك زمام نفسها بيدها مما زاد الموقف سوءاً . نعم ، لم يكن هناك موضع للاعتذار لها ، فلقد كانت تجهل أصول فنها وهذه خلاصة القول ، ولقد كان فشلها ذريعاً . حتى السوقة الذين غصت بهم شرفات الدار ومقاعد الرخيصة تملأوا في أماكنهم ، وبدأوا يتحدثون بأصوات مسموعة ويصفرون استنكاراً . كل ذلك واليهودي مدير الدار واقف في منتصف الدار يضرب الأرض بقدمه ويفوه بالالفاظ النابية . وكانت سيبيل حين الشخص الوحيد الذي لم يهتز لشيء مما يجري . ولما انتهى الفصل الثاني ارتفعت صيحات التهكم من كل جانب .

ونفض اللورد هنري وارثدي معطفه وقال :

— إنها فاتنة حقاً يا دوريان ، ولكنها لاتعرف شيئاً عن فن التمثيل .
لنصرف الآن ، فهيا بنا .

فأجاب الفتى في مرارة شديدة :

— سأبقى أنا هنا لأشاهد الرواية حتى نهايتها ولـكم يؤسفني أني أفسدت عليك المساء يا هاري . أرجو أن تقبلاً اعتذارى .
فقاطعه هولوردد بقوله :

— لاجتاح عليك يا صديقي دوريان ، فلعل الآنسة فين مريضة ، وسوف تأتي لشهودها في ليلة أخرى .

قال دوريان جرای :

— ليته كانت مريضة ، ولكن الحقيقة تخالف ذلك ، فقد بدت لي

باردة خلت من كل شعور وأؤكد لك أنها لم تكن كذلك من قبل . لقد كانت بالأمس فنانة من الطراز الأول وهي اليوم ممثلة فاشلة لاتعرف عن صناعتها شيئاً .

قال هولوردد :

— لاتتكم بهذه اللهجة عنم تحب يادوريان ، فالحب أسمى من الفن بدرجات .
فقال اللورد هنرى :

— إنما الحب والفن أسلوبان في التقليد . ولكن هيا بنا يا بازيل . أما أنت يادوريان فلست أفصح لك بالبقاء لأن مشاهدة التمثيل الزائف تفسد الأخلاق . ثم إن المسألة ليست ذات بال فأعتقد أنك لن تسمح لزوجتك أن تظهر على المسرح . إنها جميلة حقاً ولو أن خبرتها بالحياة كانت قليلة كخبرتها بالتمثيل لكانت لك فيها دراسة ممتعة . ففي الناس نوعان يخلبان لبي ، الناس الذين يعرفون كل شئ ، والناس الذين لايعرفون شيئاً . إن من يراك الآن يادوريان يحسب أنك نجعت في أعز عزيز لديك ، فدع عنك هذا الوجوم لأن الأمر لايستحق كل هذه اللوعة ، ولأذكرك بأن سر الشباب هو المرح الدائم تعال معنا إلى النادي حيث نشرب نخب جمال سيبييل ثين . هي جميلة ما في ذلك ريب ، فماذا تطلب أكثر من هذا ؟

قال الفتى :

— اتركاني وحيداً ، فأني أريد أن أخلو بنفسى . هيا انصرف يا هارى ، وأنت يا بازيل انصرف . ألا تريان أن قلبي يتمزق .

واغرورقت عيناه بالدمع السخين وارتجفت شفتاه وعاد إلى مقصورته على عجل وهناك وقف مستنداً إلى الحائط وقد دفن وجهه في راحتيه .

قال اللورد هنرى في حنان ليس من طبعه :

— هيا بنا يا بازيل .

وانصرف الرجلان .

وبعد لحظات أضاءت أنوار المسرح وارتفع الستار وبدأ الفصل الثالث .
وأخذ دوريان جرای مكانه من المقصورة صاحب الوجه بادى الفتور وقد
استعاد كبرياه المجروح . ومرت الرواية ثقيلة كأنها بغير نهاية . وانصرف
نصف الحاضرين وهم يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ويضحكون ساخرين .
وحين جاء الفصل الأخير كانت الدار غاوية فيما عدا رجل هنا ورجل هناك ،
وانسد الستار فضحك قوم وتأوه آخرون . لقد سقطت الرواية .

وما أن انتهى التمثيل حتى بادر دوريان جرای بالذهاب إلى غرف الممثلين
وكانت الفتاة واقفة بمفردها هناك وعلى محياها أمارات الانتصار وفي عينيها
بريق جميل ، وكانت تشع نوراً كأنها ملك من السماء وقد انفرجت شفاتها
الباسمتان فلاح أن لديها سرّاً تخفيه . وحين دخل دوريان جرای تأملته فسرت
في فؤادها نشوة عظمية . قالت :

— ما كان أقبح تمثيلي الليلة يا دوريان !

فأجاب وهو يحملق فيها عاجباً :

— لا أحد لشناعته . لا أحد لشناعته . أأريضة أنت ؟ لا أحد لشناعته .

لقد أشقيتني شقاء لا مزيد عليه .

ابتسمت الفتاة وقالت وهي تترنم باسمه .

— لقد كان ينبغي أن تفهم يا دوريان ، ولكنك تفهم الآن . أليس كذلك ؟

فأجابها غاضباً :

— أفهم ماذا ؟

— تفهم السر في سقوطي الليلة ، بل تفهم السر في سقوطي من الآن

فصاعدا . لن أستطيع الإجابة بعد اليوم يا دوريان .

هز كتفيه وقال في استخفاف :

— أعتقد أنك مريضة ، وحين تكونين مريضة تجنبي التمثيل لأنك تضعكين

الناس منك . لقد كان معي صديقان فقتهما الملل . ولقد قتلني الملل كذلك .

وبدا عليها أنها منصرفه عنه . لقد غمرتها سعادة عظمى ألهمتها عن كل شيء . قالت :

— لقد كان التمثيل عندي شغل الحياة قبل أن أعرفك يا دوريان بل لقد أصبحت الحياة عندي تمثيلاً وأصبح التمثيل الحياة . فأنا الليلة روزاليند وغداً بورشيا وكانت أفراح بياتريس أفراحي وأحزان كورديليا أحزاني ، وكانت أرضي بكل شيء فهوؤلاء الممثلون التافهون كانوا موضع إعجابي ، وكانت مناظر المسرح هي الدنيا التي أعيش فيها . هذه الظلال ملأت حياتي نخلتها حقائق حتى جئت أنت يا حبيبي وأعتقت روحى من هذا الإسار وعلمتني الحقيقة ما تكون . وهذه أول ليلة في حياتي أحس فيها بأن هذا الموكب الذى أسير فيه زائف أجوف سقيم . هذه أول ليلة أحس فيها بأن روميو الذى يشخص على المسرح أمامى رجل قبيح مزوق بالطلاء ، وبأن نور القمر والحديقة زائفان جميعاً وأن الكلمات التى أتقوه بها زائفة كذلك ، لأنهم لم تكن كلماتي ولم تعبر عن الشعور الذى يخالجنى . أما أنت فقد منحتنى شيئاً لازيف فيه ، شيئاً أسمى من الفن ، شيئاً ما وجد الفن إلا يعبر عنه . لقد جعلتني أفهم معنى الحب الحقيقى . أنت حبيبي ومولاى وأميرى الساحر ، ولقد سئمت الظلال يا حبيبي ، وإنك عندي لأثمن من فنون العالم جميعاً . فما بقائى بين هذه الدمي التى لا حياة فيها ؟ لم أفهم فى البدء كيف تبدل حالى وملت أنى سأوفق الليلة توفيقاً عظيماً فلما بدأت أتكلم عرفت أن كل شيء قد ضاع منى وإنى الآن مخلوق جديد . ثم أدركت فجأة أن هوائك هو الذى بدل نفسى فطربت طرباً شديداً . وحين سمعت الناس يتكلمون بى لم أغضب بل ابتسمت لأنى أعرف ما لا يعرفون . وكيف يعرف هؤلاء السوقة معنى غرامنا العظيم ؟ إنى أمتت المسرح يا دوريان فخذنى معك حيث تشاء ، ولنعش فى عزلة عن الناس . وكيف أمثل بعد اليوم ؟ إنى إن استطعت أن أصطنع عاطفة لأحس بها فلن أستطيع أن أصطنع عاطفة تكوى قلبى وتقرى كبدي . أنت تفهم الآن سر سقوطى

الليلة يا دوريان . ولو أنى استطعت أن أجيد بعد اليوم لكان تدنيساً لحبنا
أن أمثل دور المحبة وأنا محبة . لقد تعلمت هذا منك يا دوريان .

فارتدى على أريكة الغرفة وأشاح بوجهه قائلاً :

— لقد قتلت حبي لك .

فنفرت إليه عاجبة وضحكت ولكنه لم يقل شيئاً فدنست منه وأنشأت
تعبث بشعره ثم جثت إلى جواره وأمسكت بيديه وضمتها إلى شفتيها فسرت
في جسده رعشة قوية وجذب يديه بعيداً . ثم نهض وسعى إلى الباب وقال :

— لقد قتلت حبي لك . فقد كنت تحركين خيالي أما الآن فأنت
لا تحركين في شيئاً حتى فضولى . لقد ضاع أثرى في نفسي ، ولم يعد لك عليها
سلطان . لقد أحببتك لأنك كنت صاحبة فن عظيم ، لأنك أوتيت الفطنة
والنبوغ ، لأنك حققت أحلام الشعراء وجسدت ظلال الفن . ولكنك
تخلت عن كل هذه الأشياء فما أغباك وما أتفحك يا إلهي ! لقد كان حبي
لك جنوناً مطبقاً فما كان أغباني ، ولكنك خرجت من قلبي تماماً ، فلم
أسعى لرؤيتك بعد اليوم ، ولن أفكر فيك ، ولن يرد اسمك على فمي . لقد
كنت لي بهجة الحياة ، بل كنت لي قوت الروح فما أشقاني الآن . لقد
أفسدت على جمال الحياة فليتنى لم أعرفك مطلقاً . فإن كنت تحسبن أن الحب
يفسد الفن فما أجهدك بالحب ! وأنت بغير الفن لا تساوين شيئاً ، ولكنك
اخترت سبيل الضلال ولو أنك آمنت بالفن لجعلتك قبله الأنظار ورفعتك على
سائر النساء ووهبتك اسمي وسموت بك حتى يراك كل من في الدنيا ،
ولكنك ركلت كل هذا بقدمك فماذا جنيت من ذلك ؟ ما أنت الآن
إلا مثلة تافهة لها وجه صبوح .

فشحب لون الفتاة وارتعدت فرائصها وانطبقت يداها واحتبس الصوت
في حلقها وقالت :

— أنت جاد فيما تقول يا دوريان ؟ إنك تمثل دور الحائق التخيفي .

قال الفتى في مرارة :

— بل أترك التمثيل لك لأنك تحذيقه كل الحذق .

فنهض الفتاة ومشت إليه في ألم بالغ وأمسكت بذراعه وأنشأت تقرأ ما تقوله عيناه ، فدفعها بعيداً عنه وقال :

— لا تمسني .

وجثت الفتاة عند قدميه وانبعث منها أنين مكتوم فبدت كزهرة جميلة سحقها الأقدام ، وأخيراً همست قائلة :

— لا تتركني يا دوريان ، لا تتركني . لقد كنت أفكر فيك طول

الوقت فألهاني ذلك عن إجادة عملي ، فاعفُ لي ذلك وإني لأعدك بأنني سأجهد في المستقبل أن أتقن دورى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . لقد ملأ حبك نفسي حُجاةً ، ولولا أنك قبلتني لما عرفت الحب . أجل لولا تلك القبله لما استيقظت حبي ولظل نائماً في صدري ، فقبلني يا حبيبي مرة أخرى لتطفي شوق إليك . أضرع إليك لا تتركني ، . إن أخى توعد بأن . . ولكنه لم يكن جاداً في وعيده . ألا تستطيع أن تغفر لي ما حدث الليلة ؟ لا تنس أن هذه أول مرة أقصر فيها وسوف أجهد لأتقن عملي ما وسعني الاجتهاد . لا تنس في عقابي لأنى أحمل لك كل هذا الحب ، ولكنى أرى الآن أنك على حق فيما تقول ، فقد كان خسة في أن أستخف بالفن لأنى عرفت الحب أو أن أجدف في الحب ما يصرفنى عن الفن . أعترف لك بأن هذا كان حماقة منى ، ولكنى لم أكن مختارة فيما فعلت ، فأرجو منك الصفح على ماضى ولا تتركني ، أواه ! لا تتركني !

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام ، وظلت طريحة على الأرض كأنها حيوان جريح ، فأخذ دوريان ينظر إليها في احتقار قاتل ارتسم على شفتيه الجميلتين واضحا قوياً وسخر من فيض العاطفة الذى غمرها لأنه كف عن حبها ، فبدت سييل قين له مسرحية تسرف في عرض حبها إلى درجة تدعو إلى

السخرية ، ولم يهتز لدموعها الجارية بل ضاق بها ذرعاً . وأخيراً قال بصوت هادئ واضح :

— سأصرف الآن في غير رجعة ، وما أقصد بهذا إيلاكم ولكنك خيبت أملی فيك .

فبكت في صمت ولم تحب بشيء ، ولكنها زحفت نحوه وامتدت يدها كأنها تريد أن تستوقفه ولكنه أولاها ظهره وخرج من الغرفة ، وفي دقائق معدودات كان خارج الدار .

وسار على غير هدى لا يعرف لنفسه وجهة أو طريقاً . كل ما ذكره أنه جاب في شوارع قليلة الأنوار ومر بأقباء متهاوية قائمة الظلال وبمنازل مقبضة كأنها أوكار الغدر والجريمة .

كذلك ذكر أنه صادف في سيره نسوة استوقفنه بأصوات خشنة وأرسلن وراءه ضحكات خشنة وأنه مر بسكاري يترنحون في مشيتهم ويتفوهون بأقذع الالفاظ ويحدثون أنفسهم كأنهم قردة مسوخة وأنه رأى أطفالاً لا كالأطفال يحملهم أمهاتهم على عتبات المنازل ، وسمع صرخات تنبعث من أفنية مظلمة يصاحبها سباب شنيع .

وعندما انبلج الفجر وجد نفسه قرب كوئنت جاردن . ورأى الظلام ينقشع والسماء تبدو كالدرة الصافية وقد خضبتا حمرة خفيفة . وسمع ضجيج العربات وهي تسير ببطء في الشارع النظيف الخاوي ، وملاً الهواء أريج الأزهار فاستشفت بجماها نفسها المتعبة . وتبع العربات حتى بلغت السوق وشاهد الحمالين يفرغون حمولتها ، وتقدم إليه أحدهم بقليل من السكرين فأخذه شاكرًا وهو يعجب لأن الرجل رفض أن يقبل ثمن ما أعطى . وأنشأ يأكل الفاكهة في غير شهية ، وكانت الفاكهة قد قطفت عند منتصف الليل وكان ملمسها رطبياً كأن نور القمر البارد قد نفذ فيها . ومر أمامه صف طويل من الصبيان يحملون صناديق بها شتى أنواع الأزهار وشقوا طريقهم

بن كداس الخضر على حين وقفت بباب دار الأوبرا ذى الأعمدة الثمباء
التي لفحتها الشمس جماعة من البنات متسكعات عاريات الرؤوس ينتظرن انتهاء
المزاد، ووقفت جماعة أخرى عند أبواب المقهى فى البياترا، كل هذا والحيل
الضخمة التى تجر العربات تضرب الأرض الخشنة بحوافرها وتمزج الأجراس
المعلقة فى أعناقها، والحائى ذات الرقاب البيضاء والأقدام الحمراء تسعى هنا
وهناك تلتقط الحب .

وبعد قليل مرت عربة فاستوقفها وعاد بها إلى بيته . وحين بلغ البيت لم
يدخل بل وقف ببابه قليلا يتطلع إلى الميدان الساكن وما به من نوافذ خشبية
جرداء وما به من نوافذ كستها الستائر . وبدأت له السماء فى تلك اللحظة
كفيروزة كبرى نقية من كل وشب ولمعت تحتها سطوح المنازل كما تلعب
الفضة ، ورأى الدخان يتصاعد فى ذوائب خفيفة من مدخنة بيت مقابل
فيلوح لرائيه كالشرائط البنفسجية المتطايرة فى الهواء الذى تألق كالصدف
المصقول .

ثم دخل الحجرة الأولى ذات الجدران المحلاة بخشب البالوط فوجد الأنوار
لا تزال تضىء من ثلاث عيون مشتعلة داخل مصباح كبير مذهب جىء به قديماً
من البندقية حيث كان يحل جندول حاكم تلك المدينة وكان المصباح يتدلى
من سقف الحجرة ، فأطفأ العيون ، وبعد أن قذف بقبعته وعباءته على المائدة
دخل إلى مكتبته ووقف بباب حجرة النوم وهى حجرة مشعنة الأضلاع فى
الدور الأرضى زين جدرانها حين نما فيه حبه الجديد للبدخ ببسط من عصر
النهضة غريبة التصميم وجدها بين مجموعة مهمة فى غرفة مهمة بمتحف سلبى
فابتاعها . وفيما هو يدير مقبض الباب وقعت عينه على الصورة التى رسمها
له بازيل هولوردد فأخذته عجب شديد ، ثم دخل حجرة النوم قلق الخاطر ،
وبعد أن فك أزرار سترته تردد قليلاً ثم رجع إلى الصورة وتأملها ملياً ،
فحيل إليه أن الوجه قد تغير قليلاً ، فقد كان التعبير المرسوم عليه مختلفاً عما

كان في الماضي .. خيل إليه وهو ينظر إلى الصورة في الضوء المكبوت الذي تسرب من بين الستائر الخيرية الصفراء أن شيئاً من القسوة قد ارتسم في موضع الفم فعجب لذلك أيما عجب .

ثم سعى إلى النافذة وأزاح عنها الستار فتدفق في الحجرة نور الفجر الوضاء ونسخ الظلال المديدة وجمعها في أركان الحجرة القائمة ، وهناك رقدت الظلال منكشة ترتعش . ولكن الضوء الغامر الذي ملأ المكان لم يمح ذلك التعبير الغريب الذي شاهده في صورته بل أكدده وسقط ضوء الشمس على موضع الفم فأظهر له في وضوح أمارات القسوة وخيل إليه أنه يرى وجهه في مرآة بعد أن ارتككب إثماً فاحشاً ترك آثاره في محياه .

فتجههم وجهه وكانت على المائدة مرآة يضاوية الشكل ذات إطار عاجي زينتها نقوش لسكوبيد كثيرة كان اللورد هنري قد أعطاه إياها بين ما أعطاه من هدايا كثيرة ، فأمسك بها ونظر إلى خياله على عجل فلم يجد أثراً لذلك الخط الذي شوه جمال شفتيه في الصورة ، غار في الأمر .

وظن أنه ما به خداع حمى ففرك عينيه واقترب من الصورة ليدرسها من جديد فلم يجد بها أي تبدل ، لكنه لم يشك في أن الوجه بأكمله يحمل معنى جديداً . نعم . إن ما يراه حقيقة لا ريب فيها ، وهي تنطق في معالم الوجه بجلاء تام أثار الرعب في قلبه .

وارتمى على مقعد وبدأ يفكر . وخجأة تذكر عبارة قالها وهو في استوديو بازيل هولورديوم أن فرغ الرسام من الصورة ، وعادت تلك العبارة إلى ذهنه كأنه قالها بالأمس .

لقد صارح صديقيه يومها بأنه يتمنى لو أن شبابه يدوم له وتحمل الصورة عنه عبء السنين ، لو أن جماله الناضر يظل ناضراً ويحمل الوجه المرسوم على اللوحة وزر آثامه وشهواته ، لو أن آثار الهم والشقاء تنتقل من محياه إلى الخطوط والألوان فتسكن فيها وتمزقها تمزيقاً ، حتى يبقى لمحياء غضارة الترجس

في مطلع الربيع . فهل تحققت له هذه الأمنية ؟ هذا محال لأن مثل هذه الأمانى محال أن تتحقق . بل إن مجرد التفكير في هذه الأمانى بدا له جرم رهيب . ومع ذلك ، فهي الصورة أمامه تحمل معانى القسوة بعد أن كانت آية في الصفاء .

ولكن كيف كان هجره لسيبيل حين قسوة منه عليها . إنها خيبت آماله فنالت ما تستحق من عقاب . لقد كان يحب فيها الفنانة الموهوبة لا الفتاة صاحبة الوجه المليح . إلا أن الندم عض قلبه حين تذكرها وهي جاثية عند قدميه تذرف العبرات ، وتذكر بروده الشديد وهو يتأملها تستجدى عطفه . فبدأ يلوم نفسه على جموده تارة ويعتذر لنفسه بأنه قد ذاق مثل ما ذاق من عذاب . لقد مرت به الساعات الثلاث التي استغرقتها الرواية كأنتها ثلاثة قرون ، وشقى أثناءها شقاء لا مزيد عليه . وإن حياته لأثمن من حياتها ، فإذا كان قد أشقاها دهرًا فما ذلك إلا لأنها أشقته لحظات ، وهذا عدل . ثم إن النساء أقدر من الرجال على تحمل الآلام . فالعواطف قوام حياتهن ، والعواطف قوام تفكيرهن . ولقد قال له اللورد هنرى إن النساء يعشقن الرجال لبتسنى لهن خلق المواقف المؤثرة ، واللورد هنرى عليم بأسرار النساء . ثم ما كل هذا التفكير في سيبيل حين ؟ ألم ينته كل شيء بينه وبينها ؟

نعم ، ولكن هناك الصورة . فما العمل في هذه الصورة التي تعلن مكنونات نفسه وتسرد قصة حياته دون حاجة إلى ألفاظ ؟ لقد علمته الصورة أن يتعشق جمال تكوينه ، أفترأها تعلمه الآن أن يمقت بشاعة روحه ؟ وهل من الخير له أن يتتبع التغير الجارى فيها في مستقبل الأيام .

ما هذا إلا هوس انتابه فهو محطم الأعصاب تخدعه حواسه . ما هذا إلا أثر الليالة السالفة العصبية التي انقضت وتركت وراءها أشباحها . لقد كادت الخواطر المتضاربة أن تصرعه . لقد كادت الشكوك أن تذهب بلبه . كلا . إن الصورة لم تتغير وجنون أن يظن أنها تغيرت . نعم . إن الصورة قد تغيرت ،

وها هو ذا الوجه الجميل قد أصابه كدر خفيف وها هو ذا النعم الباسم قد أفسدته قسوة واضحة . ها هو ذا الشعر الذهبي يلمع تحت شمس الصباح الباكر . والتقت عيناه بعينها فكاد يبكي رحمة بها ورثاء . فلقد تغيرت معاملها فعلاً ، ولسوف تتغير كل يوم فالشعر الذهبي سوف ينطفئ مع الأيام ويتحول إلى فضة شهباء . والورد الأحمر في شفيتها والورد الأبيض في خديها سوف يذبل ثم يموت . وكلما اقترب إتمام من الآثام سجلته الأيام على صفحة وجهها غصونا عميقة وخطوطاً ملتوية تشوه جمالها . لسوف تكون هذه الصورة مرآة نفسه وصفحة ضميره ، وهو لهذا سيقاوم الغواية ما أمكنه ذلك ويقتلع من نفسه جذور الخطيئة . ولسوف يتجنب رؤية اللورد هنري بعد اليوم ، فإن رآه لم يستمع إلى نظرياته السامة التي تتسرب إلى عقله كالشراب السحري ، تلك النظريات التي سمعها في حديقة بازيل هو لوورد حركت في نفسه لأول مرة رغبة مدمرة في أن يأتي بعجائب الأمور . ولسوف يرجع إلى سيميل ثين ويطلب رضاها ويتزوجها ويجهده في أن يعيد حبها إلى قلبه . نعم إن هذا واجبه ولا مفر من أداء الواجب . لا بد أنها شقيت أكثر مما شقي فياها من فتاة تاعسة . لقد كان لا يفكر إلا في نفسه فيقضي في حكمه عليها وهذه منه أثرة لا تغتفر وهو لا بد مكفر عنها . ولا شك أن سلطانها عليه سيعود وأنها سيعيشان في سعادة مثل سعادة الملائكة الأطهار .

ونفض من مقعده وأسدل على الصورة ستاراً كبيراً أخضر ، وفما هو يفعل ذلك نظر إلى الصورة فسرت في جسده رعشة . فقال محدثاً نفسه « يا لاشناعة » ثم مشى إلى النافذة وفتحها . وخرج إلى حديقة بيته وسار على الحشائش وملاً رثتيه بنسيم الصبح فطارد نسيم الصبح عنه هواجسه وبقيت في خياله صورة واحدة هي صورة سيميل . وعأوده قليل من حنانه القديم إليها ، وسمع الأطيوار تغرد في الحديقة المبللة بالندى فخيّل إليه أن الأطيوار تقص على الأزهار قصتها .

ف
ا
ف
ال
ال

ا
ف
س
ا
ال
م
أ

الفصل الثامن

*

وصحبا من نومه بعد الظهر بوقت طويل ، وقد دخل عليه خادمه الخاص فكتور أثناء نومه أكثر من مرة على أطراف أصابعه ليرى أكان قد استيقظ أم لا ، وعجب من أمر سيده الشاب الذي لم يعتد أن يأوى إلى فراشه في مطلع الفجر . وأخيراً دق دوريان جرای الجرس فدخل فكتور يحمل الشاي وبعض الخطابات على صينية سيقر قديمة وأزاح عن النوافذ الثلاث العالية ستائرهما الخضراء ذات الحوافي اللامعة الزرقاء . وقال فكتور مبسماً :
— أرجو أن يكون سيدي قد نام هذا الصباح نوما هنيئاً .

فسأله دوريان جرای وهو نصف نائم :

— كم الساعة الآن يا فكتور .

فجابه الخادم بلسكنة فرنسية :

— الواحدة والرابع يا سيدي .

عرف أنه نام طويلاً فجلس في فراشه ، وبعد أن شرب قايلاً من الشاي انصرف إلى خطاباته يقلبها فوجد بينها خطاباً من اللورد هنرى جاء به رسول فتردد لحظة ثم وضعه جانباً . وفتح الخطابات الأخرى في ضيق واضح فوجدها كالعادة تحتوي على دعوات الغداء ودعوات لزيارة أماكن خاصة وبرامج الجمعيات الخيرية وبرامج الحفلات الموسيقية وما شابه ذلك من رقاع تصل الشباب من الوجهاء خلال الموسم . وكان بين يريده فاتورة ضخمة بمجموعة من أدوات الزينة من طراز لويس الرابع عشر لم يجروا بعد على إرسالها إلى أوصيائه العامه بأنهم من أصحاب الآراء البالية الذين لا يفهمون أن ألزم الأشياء

لنا هي الأشياء التي لا لزوم لها ، كما كان بينه بعض خطابات من مراني
جرمين ستريت صيغت في لباقة شديدة وأدب جم يعرضون فيها خدماتهم
العاجلة مقابل فائدة معقولة .

وبعد عشر دقائق كان يرتدى الروب دى شامبر الصوفي المطرز بالحرير
ودخل الحمام المرصوف بالفسيفساء . وأنعشه الماء البارد فأحس كأن تباريح
الأمس لم تكن . وبين وقت وآخر جاءه هاتف بأنه كان بطل مأساة عربية
ولكنه أشبه ذكرى حلم بعيد . وحين فرغ من ارتداء ثيابه دخل المكتبة
وهناك وجد فطوره الخفيف معداً له على مائدة مستديرة بالقرب من النافذة
جلس يتناوله . وأحس بحمال الصباح وبدأ له أن الهواء الدافئ يحمل روائح
الطيوب ودخات من النافذة نحلة ملئت حول إناء أمامه وضعت فيه أزهار
صفراء بلون السكريت فغمرتة السعادة .

ووقعت عينه فجأة على الستار الذي حجب به الصورة فتملكه الاضطراب .
ولاحظ نادمه اضطرابه فقال وهو يضع أمامه طبقاً من العجة :

— أشعر سيدي بالبرد ؟

قال دوريان جرای وهو يهز رأسه :

— كلا ، لست أشعر بالبرد .

وعادت إليه شكوكه الأولى فغار في أمر الصورة ولم يدر أتعيرت
حقاً أم تعيرت في خياله وحده . لقد كان وجهه في الصورة ينطق بأفراح
الحياة ، وها هو الآن ينطق بشر دفين . ولكن من قال إن القماش يتغير
والألوان تتبدل ؟ إن هذه لسفاهة في التفكير ، وهي أشبه بالأساطير التي
ينسجها الخيال . نعم . إنها لأسطورة سوف يقصها على بازيل هولورود يوماً
من الأيام ليدخل على فؤاده السرور . ولكن كيف تكون أسطورة وهو
قد رآها بعينه ؟ إنه تذكر بجلاء أمارات القسوة التي أبصرها تشوه جمال
الشفقتين عند ما تمنع في الصورة قبل مطلع الفجر وبعد مطلع الفجر . واستبد

به الخوف حتى لقد أحب أن يستبقى خادمه معه فى المكتبة ، فلو أنه وجد نفسه وحيداً لما تردد فى كشف الغطاء عن الصورة . ودخل فكتور بالقهوة والسجائر ثم هم بالانصراف فأحس دوريان جراى برغبة شديدة فى أن يأمره بالبقاء ، ولكنه ضبط شعوره ، فلما أن خرج الخادم من الحجرة وأغلق الباب وراءه استدعاه فوقف الرجل ينتظر أوامره ولكن دوريان رمقه بنظرة طويلة ثم تمهد وقال :

— اصرف كل زائر يجيئنى اليوم يا فكتور .

فأخفى الرجل وانسحب من الحجرة .

ثم ترك دوريان جراى المائدة وأشعل سيجارة وألقى بنفسه على أريكة فاخرة أمام الستار . وكان الستار ستاراً قديماً صنع من الجلد الاسبانى المذهب عليه رسوم من طراز لويس الرابع عشر فيها شيء من الإسراف ، فأشأ يتأمل ويسأل نفسه كم من الأسرار حجبها ذلك الستار قبل أن يصل إلى يديه .

وبدأ يفكر جديداً فى إزاحة الستار عن الصورة ، ولكنه لم ير فائدة يجنيها من وراء ذلك . فلو أن الصورة قد تغيرت حقيقة لكان ذلك كارثة عظيمة ، ولو أنها لم تتغير لما كان هناك ما يدعوه إلى القلق . ولكن المسألة وجهاً آخر ، فإذا يكون الأمر لو أن شخصاً آخر استطاع أن يصل إلى الصورة ويطلع على ما جرى فيها من تغير شنيع ؟ بل كيف يكون الأمر لو أن بازيل هولورود طلب أن يرى الصورة التى رسمها ؟ ما من شك فى أن بازيل سيفعل ذلك يوماً من الأيام . وعلى ذلك فالواجب يقضى بفحص الصورة دون تردد كيفما تكون النتيجة ، فالنتيجة مهما كانت خيراً من هذا الشك المضمنى . ونهض وأقبل بأبى الحجرة بالمفتاح ، فليس من الخير أن يطلع سواه على سجل آثامه . ثم أزاح الستار ووقف يتأمل صورته فلم يعد لديه أدنى ريب فى أن الصورة قد تغيرت .

كان موقفاً رهيباً حقاً انطمع في ذاكرته فلم ينسه زمناً طويلاً . فقد بدأ يفحص الصورة أولاً كما يفحص عالم أثراً من الآثار كأن الأمر لا يخصه ، فعجب لنفسه أشد العجب . لقد كان التغير مستحيلاً في نظره ولكن لا جدال في أنه موجود فعلاً . وذهب يفترض الفروض لتعليل ما رأى فزعم أن هناك صلة جائزة لا نعرفها بين روح الإنسان وبين دقائق الذرات التي تتألف منها الألوان والأشكال على اللوحة ، وبذلك تسجل دقائق الذرات خواج النفس وتحقق للنفس أحلامها . فإذا لم تكن هذه الصلة جائزة فقد يكون هناك تعليل آخر أشفق دوريان جرای أن يفكر فيه . وارتعدت لذلك فرائصه وتملكه فرع شديد وعاد إلى الأريكة واستلقى عليها وعيناه لا تتحولان عن الصورة .

ولكنه خرج من كل هذا بمغزى واحد ، الا وهو أن الصورة التي رسمها بازيل هولورده ستكون نبراساً يهتدى به في ظلام الحياة . وهامى قد علمته أن سلوكه مع سيبيل فين كان سلوكاً قاسياً وشائناً . ولعل في إمكانه اصلاح ما أفسده فهو لا يزال يستطيع أن يتزوجها فتصفو بذلك روحه ويتجرد من أنانيته ويتحول غرامه الزائف وقت تأثيرها الصالح إلى عاطفة نبيلة . نعم . سوف يستهدي الصورة الطريق المستقيم ، فهي ضميره الحي وهي مقياس الخير والشر وهي تذكرة له من عند الله . إن الضمائر قد تنام ومقاييس الخير والشر قد تختل والتذكرة قد تغيب عن عقل الإنسان . أما هذه الصورة فهي الشاهد القائم على دنس الخطاة وهي الرمز الأبدى للدمار الذي ينزله الإنسان بروحه كلما تنسكب عن نهج الصالحين . وأين يجد دوريان عذراً بعد هذا النذير ؟

ودقت الساعة الثالثة ثم الرابعة والنصف ولكن دوريان جرای ظل ثابتاً في مكانه من الأريكة . وكان يسترجع ماضيه وما ملأه من أحداث عنيفة وعواطف هوجاء ويحاول أن يخرج من هذه الأحداث والعواطف بمغزى فلم

يهتم إلى شيء . وأخيراً قصد إلى المائدة وكتب لسيبيل ثين خطاباً طويلاً ملتهب العبارات يفيض بالحزن والوجيع يسألها فيه الغفران عما بدر منه ويتهم فيه نفسه بالجنون . فنحن نجد لتأنيب النفس لذة عظيمة ، وحين تؤنب أنفسنا نحس بأن الغير لا يملك حق تأنيبنا ، فالاعتراف هو الذى يغسل خطايانا وليس الكاهن الذى نعتزف أمامه . وحين أتم دوريان الخطاب أحس بأن زلته قد غفرت له فعلاً .

وسمع بالبواب طرقة وجاءه صوت اللورد هنرى فى الخارج يقول :
— لا بد أن أراك يا دوريان فافتح لى الباب فوراً ، فأنا لأحتمل أن أراك تعزل العالم على هذا النحو .

فلم يجب بادية الأمر ولبت صامتاً فى مكانه فلما توالى الطرق واشتد نهض مسرعاً ليفتح الباب فقد وجد أن من الخير له أن يرى اللورد هنرى ويشرح له أسلوب حياته الجديدة ، وأن يختصم معه إذا لزم الأمر ، بل أن يخاصمه إذا اقتضت الضرورة . وغطى الصورة بالستار ثم فتح الباب فدخل اللورد هنرى وهو يقول :

— لقد تأملت لما حدث أشد الألم يا دوريان ولكنى أوصيك بأن تصرف نفسك عن التفكير فيه .

وقال الفتى :

— أقصد ما فعلته سيبيل ثين ؟

جلس اللورد هنرى على مقعد وأجاب وهو يخلع قفازه الأصفر :

— بالطبع . إنه لشيء مؤلم إلى حد بعيد ولكنك لست مسئولاً عما

جرى . هل ذهبت لرؤيتها فى غرف الممثلين بعد انتهاء الرواية ؟

نعم .

— لقد كنت واثقاً من ذلك . وهل تشاجرتما ؟

— لقد عاملتها بوحشية لا مزيد عليها ، ولكن نفسى الآن قد هدأت

ولست أسفأ على شيء مما حدث لأن هذا الاختبار علمني الكثير عن نفسي .
— أحيي فيك هذه الشجاعة يا دوريان ، وقد كنت أخشى أن أجدك
مهموماً تعنف نفسك تعنيفاً وتمزق شعرك الذهبي الجميل هذا .
قال دوريان وهو يبتسم ويهز رأسه :

— لقد فرغت من كل ذلك وأنا الآن أسعد ما أكون فلقد عرفت كيف
يكون عذاب الضمير وأرجوك يا هاري ألا تسخر من الضمير بعد اليوم ، فإن
كان لا بد لك من أن تسخر منه فلا تسخر منه أُمّاي ، لأنني أريد أن أحيي
حياة صالحة ، وأنا لا أحتمل أن تتلوث روحي .

— أهنتك يا دوريان على اهتدائك إلى هذا المقياس الجميل . ولكن
كيف ستبدأ حياتك الجديدة ؟

— سأبدأها بأن أتزوج من سيبييل فين .

فنهض اللورد هنري ونظر إليه في حيرة بالغة وصاح :

— تتزوج من سيبييل فين ؟ ألم تعرف يا دوريان . . .

— نعم يا هاري ، أعرف ماستقوله لي . أعرف آراءك القاسية في الزواج ،
فاحتفظ بها لنفسك . ورجائي إليك هو أن تحتفظ لنفسك بجميع آرائك الشاذة
فلمست أحب أن أسمع شيئاً منها بعد الآن . لقد طلبت إلى سيبييل منذ يومين
أن تتزوجني ولن أحنث بوعدي . نعم إن سيبييل سوف تصبح زوجتي .

— ولكن كيف تكون سيبييل زوجتك ؟ أما وصلك خطائي . لقد
كتبت لك صباح اليوم رسالة حملها إليك خادمي الخاص .

— نعم أذكر أنني تسلمت رسالة منك ، ولكنني لم أقرأها بعد يا هاري ،
فقد خفت أن أجدها فيها كلاماً يسوءني ، فأنت تمزق الحياة إرباً إرباً
بأقوالك الغريبة .

— إذا فأنت تجهل ما حدث ؟

— ماذا تعني ؟

فتقدم إليه اللورد هنرى وجلس إلى جواره وأمسك يديه وشد عليها
في قوة قائلا :

— لا تنزعج يا دوريان . كتبت لك أقول إن سيبييل حين قد ماتت .

فتأوه الفتى تأوه المطعون فترع يديه من يدي اللورد هنرى وقال :

— أقول إن سيبييل ماتت ؟ هذا غير صحيح ، بل هذه فرية دنيئة .

كيف تجرؤ على هذا الافتراء ؟

قال اللورد هنرى مكتئباً :

— بل ما قلت غير الحقيقة يا دوريان . لقد نشرت النباء في الصحف جميعاً

وقد كتبت لك لأطلب إليك ألا تقابل أحداً حتى أجيئك ، فأنت تعرف أن

التحقيق سيجرى في الحادث ومن المصلحة أن تظل أنت بعيداً عن كل شيء .

إن مثل هذه الأشياء تجعلك قبله الأنظار في باريس ، أما في لندن فالأمر

يختلف . من الخطأ أن يبدأ الإنسان هنا حياته الاجتماعية بفضيحة ، والأنسب

أن يؤجلها لأيام شيخوخته حتى يظل اسمه على السنة الناس بعد أن يتوارى

من الحياة العامة . أظن أنهم لا يعرفون اسمك في المسرح ، فإذا كان الأمر

كذلك فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج . هل رآك أحد تدخل غرفتها ؟

اجتهد أن تتذكر فهذه نقطة مهمة .

مرت لحظات عجز فيها دوريان عن الكلام لأن الرعب قد عقد لسانه ،

وأخيراً قال في صوت متقطع يشبه الهمس :

— أقول إن هناك تحقيقاً يجري يا هارى ؟ ماذا تقصد بذلك ؟

أترأها — أواه ! لم أعد أحتمل يا هارى ، فعجل وقص على كل ما حدث .

— أنا لا أشك في أن وفاتها لم تكن نتيجة خطأ يا دوريان ولكن

يجب أن تخفى الحقيقة عن الجمهور والمعروف أنها خرجت من المسرح في صحة

أما نحو الساعة الثانية عشر والنصف ثم احتجت بأنها نسيت في غرفتها شيئاً ما

ولما طال انتظارها صعدوا إلى غرفتها فوجدوها مسجاة على أرض الغرفة وقد

فأرقتها الحياة بعد أن شربت مادة سامة من تلك المواد التي يستعملونها في المسرح لأعلم لي بها على التحقيق ولكنني أعرف أنها تحتوى إما على حامض البراسيك أو الرصاص الأبيض ، والأرجح أنه الأول لأنها ماتت فوراً .
فصاح الفتى قائلاً :

— يا للفجیعة ! يا للفجیعة .

— نعم يا دوريان إنها لمأساة أثمة ولكن يجب ألا يدخل اسمك في الحادث . إن صحيفة الاستاندارد تقول إنها في الساعة عشر من عمرها ، وقد كنت أظنها أصغر من ذلك سناً . لقد كانت تبدو كطفلة غريبة ويظهر أن عاهها باصول التمثيل ضئيل . اسمع يا دوريان : يجب عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وهذوء أعصابك . تعال لنتعشى سوياً ثم نذهب إلى الأوبرا بعد ذلك .
إني أدعوك إلى مقصورة أختي ، وستجد هناك بعض مليحات لندن .
قال دوريان جرای وكأنه يتحدث نفسه :

— إذا فقد قتلت سيبييل فین ، ذبحتها بيدي ذبحاً ، ومع ذلك فورود الحديقة الجميلة لا تزال جميلة والأطيّار تغرد فيها ألحانها الطروب كما كانت من قبل تغرد وأنا الليلة أتعشى معك ، ثم أذهب إلى دار الأوبرا . ما أشبه الحياة بمأساة عنيفة ! فلو أنني قرأت كل هذا في كتاب لبالت الكتاب بدموعي . أما وقد وقعت هذه الحوادث لي فعلاً فما أنت تراني عصي الدمع من فرط الذهول . وهذا أول خطاب غرامي أكتبه بشعور صادق . أفليس عجيباً أن أكتب أول رسائل غرامي إلى فتاة ميتة ؟ ترى أيحس سكان القبور بما يجري في عالم الأحياء ؟ ويلي عليك ياسيبييل ! أتراها تحس بدخيلة تقمى أو تسمع صوتي المتهدج هذا أو تعرف ما أنا فيه من اضطراب ؟

كم أحببتها يا هاري قبل تلك الليلة المشؤومة ، ولكن هذا كله قد فات وهو الآن جزء من تراث الماضي السحيق ؟ لقد ملأت أفق حياتي حتى كانت تلك الليلة المشؤومة فكسرت قلبي بفضاعة تمثيلها . ما بالي أقول تلك

الليلة المشئومة كأنها ليلة من الليالي الخوالى ، وما هي إلا ليلة الأمس !
ولقد شرحت لى سر سقوطها بعبارات تفتت الحجر الأصم ، ولكنى
لم أرق لنحيبها بل ظننتها امرأة تافهة لا تحسن شيئاً فى الحياة ، ثم حدث لى
شئ جعلنى أحاسب نفسى وأخاف المستقبل فعلمت أنى قد أسأت إليها
وعزمت أن أعود إليها طالبا الصفح . ولكن ها هي ذى قد ماتت فماذا أفعل
ياهارى ، ماذا أفعل ؟ الرحمة يا إلهى ! الرحمة من عندك يا إلهى ! إني لأسير
على شفا هوة عميقة ولا أجد فى الدنيا ما أستهديه سبيل الرشاد . ولو أنها
عاشت لسكانت لى النجم الهادى والمرفأ الخنون . إن حياتها لم تكن ملكا لها
فمن الخسة أن تقتل نفسها وتتركنى هنا أضرب فى الأرض بغير رائد .

فقال المورد هنرى وهو يخرج سيجارة من علبته وعلبة كبرت مذهبية :
— إن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها امرأة أن تهدى رجلا هي أن
تدخل الضيق فى نفسه حتى يفقد كل رغبة فى مباهاج الحياة . ولو أنك
تزوجت من هذه الفتاة لشقيت عامة عمرك . أنا لا أشك فى أنك كنت
ستعاملها معاملة حسنة ، ولكن هذا موضوع آخر فنحن نستطيع أن نحسن
معاملة من لا نكثرث بهم . وقد كان من المحقق أن تستكشف هي هذا بعد
فترة وجيزة ، وحين يتبين للمرأة أن زوجها لا يكثرث بها تراها إما تهمل فى
مظهرها إلى حد مزر ، وإما تسرف فى ارتداء الثياب الفاخرة التى يدفع ثمنها
زوج امرأة أخرى ، كذلك لا تنس أن التفاوت الاجتماعى الهائل بين
مكانتك ومكانتها كان كفيلا بتعقيد الأمور ، ولقد كنت عازماً على تجنيبك
هذا الخطأ مهما كلفنى هذا الأمر . نعم ، لا شك فى أن مثل هذا الزواج كان
خليقاً بالفشل .

قال الفتى وهو يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد بدا عليه
شجوب مخيف .

— أرجح أن هذا صحيح ، ولكن الواجب كان يقضى على بالوفاء بوعدى

وأنا لا ألام إذا كانت هذه المأساة الأليمة قد منعتني عن أداء الواجب . إنى لأذكر ما قلته لى ذات مرة من أن القدر يكيد لنا كلما عزمنا على فعل شيء جميل ، فالنوايا الطيبة تأتى دائماً بعد فوات الوقت ، وهذا يصف حالتى أحسن وصف .

— إن النوايا الطيبة تدخل لا جدوى منه فى سير القوانين العالمية ، ومنشؤها الغرور لا سواه ، أما نتيجتها فصفر لا أكثر ولا أقل ، ونحن نستمد منها بين وقت وآخر بعض اللذة العقيمة التى تستهوى قلوب الضعفاء ، وهذا كل ما لها من مسوغ . إن النوايا الطيبة لتشبه شيكات يسحبها الناس على بنوك ليس لهم فيها رصيد .

فقال دوريان جرای وهو يجلس إلى جواره :

— ما السر فى أنى لم أخف هذه المأساة إلى الحد الذى أريد ؟ لست أظن أنى شخص ميت الشعور . أعتقد ذلك فى يا هارى ؟
أجاب اللورد هنرى بصوته العذب الحنون :

— كلا ، فإن تاريخك الحافل بالتحاقات فى الأيام القليلة الماضية لا يؤهلك لمثل هذا الوصف .

فعبس الفتى وقال :

— أنا لا أراضى بتفسيرك هذا يا هارى ، ولكنى مغتبط لأنك لا ترائى شخصاً ميت الشعور ، فما أنا كذلك ، وإنى لوائق من هذا . ولكنى رغم ذلك أعترف بأنى لم أحزن لفقدان سيبيلى كما كان ينبغي أن أحزن . فهو يبدو لى الآن كنهاية رائعة لرواية رائعة لا أكثر ، نعم لقد كانت قصتنا مأساة لها ما لمأسى الاغريق من جمال مدمر ، مأساة كنت أنا فيها البطل الأول .

— إنها لمسألة تستحق الاهتمام . بل إنها لمسألة تستحق كل الإهتمام وأظن أن تفسيرها الحقيقى هو أن مأسى الحياة الحقيقية تحل بالناس خالية

من كل تصميم فتى فتؤذينا وحشيتها الساذجة وتناقضها المطلق وقلة مدلولها
وافترارها التام لكل أسلوب . فهي تؤثر فينا تأثير الأشياء المبتذلة فينا أى
أنها تسحقنا سحقاً بما لها من قوة غشوم ، ونحن نمقت القوة الغشوم . ولكن
بين آن وآخر تقع في حياتنا مأساة لها طابع فتى ، فإذا كانت عناصر الجمال التي
نجدوها في هذه المأساة عناصر صحيحة لازيف فيها ، تركت فينا أثراً يشبه الأثر
الذي تركه فينا مسرحية من المسرحيات ، وعندئذ يرايلنا الإحساس بأننا
ممثلون في هذه المسرحية ونعتقد أننا من النظارة ، أو على الأصح نشعر بأننا
من الممثلين ومن النظارة في وقت واحد . بذلك نشاهد أنفسنا كل يقوم
بدوره فيسحرنا هذا المشهد . وفي حالتك أنت بالذات كل ما حدث هو أن
فتاة انتحرت لأنها تحبك ، وهو اختبار ممتع ، أو دلو أنه حدث لى ، فهو كفيل
بأن يجعلنى من أنصار الحب بقية حياتى . إن كل من عشقنى من النساء وهن
قليلات قد حرصن كل الحرص على الحياة بعد أن نضب حبى لهن أو جهن لى
بل لقد زاد وزهن وأصبحن مصدر ملل دائم لى : فكلما قابلت إحداهن
اختلفت بى وذهبت تبادلنى الذكريات . إن قوة ذاكرة المرأة لشيء مزعج ،
وهى إن دلت على شيء فهو أن عقولهن لا تشغل أبداً ! إن جمال الحياة فى
ألوانها الخاطفة ، أما التفاصيل جديرة بالنسيان ، فالتفاصيل أشياء مبتذلة .
قال دوريان جرای مقترفاً :

— لا بد أن أزرع الخشخاش فى حديقتى تحية لذكرها .

فقال اللورد هنرى :

— لا داعى لذلك فالحياة تحمل أزهار الخشخاش فى يديها دائماً . ولقد
تخلو منها يداها بين الحين والحين فأنا أذكر أنى وضعت البنفسج فى عروتى
موسماً بأكمله حداداً على غرام لا يريد أن يموت ، ولكنه مات والله الحمد
آخر الأمر ، وإن كنت لا أذكر ماذا قتله . أعتقد أنها قالت لى مرة إنها على
استعداد لتضحى كل ما فى الدنيا من أجلى ، فأجهز هذا على مابقى فى قلبى من

الحب . إن عبارات الوفاء تنشر الرهبة في نفوسنا فنحن نخاف من الإخلاص
 الدائم خوفنا من الأبدية . ولعلك لا تصدقني إذا قلت لك إنني التقيت منذ
 أسبوع بهذه السيدة التي حدثتك عنها في مأدبة عشاء أقامتها الليدي هامبشير
 وكان من نكد طالعي أن جلست بجوارها إلى المائدة ، فما كان منها إلا أن
 نبشت الماضي ونبشت المستقبل كذلك ، وأنشأت تذكرني بكل ما حدث بيني
 وبينها وأكدت لي أنني قد أفسدت حياتها . لقد دفنت غرامي في نعش من أوراق
 السوسن فاستخرجته من جديد . أجل . زعمت أنني قد أفسدت حياتها ، فلما
 رأيته تناول عشاءها بشهية عظيمة زال القلق الذي ساورني بشأنها . أقول
 هذا لأنه دليل على فساد ذوقها . إن أجل ما في الماضي أنه مضي ، ولكن
 النساء لا يعرفن متى ينسد الستار على كوميديا الحياة ، وهن دائماً يرغبن
 في إطالتها بإضافة فصل سادس لها ، بعد أن تكون بهجتها قد نضبت ، ولو
 أننا تركنا الأمر لهن لانهت كل كوميديا نهاية محزنة ولاستحالت كل مأساة
 في النهاية إلى مهزلة . إن النساء يتكلفن في كل شيء وهذا ما يحبهن إلباء ،
 ولكنهن خلون من كل ذوق فني . ولقد كنت أسعد حظاً مني في سوق
 الغرام يا دوريان . فأنا أؤكد لك أنه ما من امرأة ممن عرفت من النساء كانت
 لتقتل نفسها بسببي كما قتلت سيميل فين نفسها بسببك . فالنساء العاديات
 يحبدن دائماً ما يعزهن عن الغرام الضائع . ومنهن من يلتمسن العزاء في ارتداء
 الثياب ذات الألوان المؤثرة ، وأنا أحذرك يا دوريان من كل امرأة تلبس
 ثياباً بنفسجية أياً كان عمرها . وإذا صادفت امرأة تحطت الثلاثين
 بالشرائط الوردية فاجنبها كذلك ، فثل هؤلاء لهن ماض . ومن النساء من
 يتعززن عن غرامهن باكتشاف محاسن أزواجهن فجأة ، وتراهن يثرثن في
 كل مكان عن سعادتهن الزوجية كأن السعادة الزوجية ثمرة محرمة شهية
 قطفنها وحدهن من دون خلق الله . ومن النساء من يلتمسن العزاء في الدين ،
 ولقد قالت إحداهن لي إن ألفاظ الدين لها ما للغزل من سحر في نفوسهن ،

وأنا أصدقها : ثم إن الناس يجدون في الخطيئة مصدراً للفخر ، ومنشأ الأثرة هو ضمير الإنسان . من هذا ترى أنه لا حد لأسباب العزاء التي تجدها النساء في هذه الأيام ، وما ذكرت منها أهمها .
فسأله الفتى في فتور :

— وماذا يكون هذا يا هاري ؟

— إن أول مات فعله المرأة حين تفقد عشيقها هو أن تسلب امرأة أخرى عشيقها ، وهذا كاف في المجتمع الراقى أن يرد للمرأة اعتبارها . ولكن لا بد أن سيبييل حين كانت تختلف عن سائر النساء اللاتي نعرفهن يا دوريان . إن موتها لفاجعة جميلة وإني لسعيد بأنني أعيش في عصر تحدث فيه مثل هذه العجائب ، فمثل هذه العجائب تثبت إيماننا بحقيقة الحب والعاطفة والخيال وسائر الأشياء التي نلهم بها في هذه الحياة .
— ولكنك تنسى أني قسوت عليها قسوة مرة .

— إن النساء يستطعن القسوة ، بل يستطعن القسوة التي تصل إلى حد الهمجية ، لأن غرائزهن لا تزال في دور الفطرة وهذا ما يفتنني فيهن . لقد منحناهن الحرية ولكنهن بقين كما كن عبيداً يبحثن عن سادة . وهن يطلبن من الرجل أن يفرض سلطانه عليهن ولست أشك في أنك قت بهذا الواجب خير قيام ، وإني وإن كنت لم أرك قط غاضباً غضباً جارفاً فاني لا أتصور منظر كالجمل حين ثرت على سيبييل حين كالبركان . ثم إنك قلت لي منذ يومين شيئاً ظننته إسرافاً منك في الأوهام ولكني أدرك الآن أنه حقيقة لا جدال فيها وهو يقسر كل ما حدث .

— ماذا تعني يا هاري ؟

— قلت لي أنك تجد في سيبييل عين جميع بطلات الخيال ، فهي يوماً ديمونة ويوماً أوفيليا وأنت تشيعها إلى مفرها الأخير في صورة جوليت فاذا بها تعود إلى الحياة في شخص إيموجن .

قال الفتى وهو يدفن وجهه في راحتيه :

— ولكنها لن تعود إلى الحياة بعد الآن .

— بلى ، لن تعود إلى الحياة بعد الآن فقد لعبت دورها الأخير ، ولكن يجب عليك يا دوريان أن تتصور ميقتها الموحشة في غرفتها بالمرح منظرًا غريبًا عاصفًا من مسرحية جميلة لولستر أو فورد أو سيريل تيرنر أو أتراهم من كتاب عصر جيمس الأول الذين كفوا بالعنف والإغراب . فسيبيل لم تنتم يوما إلى عالم الأحياء ولهذا كان خطأ منك أن تحسب أنها ماتت . فقد كنت تراها في وادی الأحلام فتخالها طيفًا يخطر بين مسرحيات شكسبير ويشيع فيها من سحره سحرا وتسمعها فتحسبها نايًا شجيًا يذكك ألحان شكسبير فيزداد به الألحان حلاوة وحين أرادت أن تحيا في الحقيقة أفسدت الحياة وأفسدت الحياة فكانت بذلك نهايتها . فابك شباب أوفيليا إذا أحببت ولطخ خديك بالتراب حزناً على كورديليا الأمانة والعن السموات بأعلى صوتك لأن ديدمونة الظاهرة قد أسلمت روحها ، ولكن لا ترق دموع واحدة على سيبيل فإن لأنها طيف من نسج الأحلام أما هن فمن بنات الحقيقة .

ثم أعقب هذا صمت مستطيل وانتشر الظلام في الحجرة بمجيء المساء ، ومن الباب دخلت أشباح الحديقة في هدوء فلم يسمع أحد لأقدامها وقعا . أما الألوان فتقاربت وتداخلت فلم يعد أحد يميز من بينها لونها .

وبعد قليل رفع دوريان جرای رأسه وقد عاد إليه هدوءه . قال :

— لقد شرحت لى دخيلة نفسى يا هارى ، ولقد كنت أحس بكل شيء ذكرته لى ولكنى لم أجِد الشجاعة الكافية لأصارع نفسى به . فما أصدق معرفتك بى ! ولكن دعنا من الماضى ولنسدل عليه ستارا وكل ما أقوله فيه أنه كان اختباراً رائعاً . أظن أن الحياة تحبى لى الكثير من هذا القبيل ؟ — نعم يا دوريان ، فالحياة تحبى لك كل شيء ، فليس هناك ما يستعصى على وجهك الجميل هذا .

— ولكن ماذا يكون الحال يا هارى إذا ماضاع شبابى وشجب لوى
وتغضن وجهى ؟

فقال اللورد هنرى وهو يتأهب للانصراف .

— عندما يحدث ذلك يا عزيزى دوريان لن يأتبك نصر إلا بكفاحك ،
أما الآن فأسباب المجد تساق إليك سوقاً . نعم ، يا دوريان ، لا بد لك من
الاحتفاظ بجمالك ، فنحن نعيش فى جيل أسرف فى الاطلاع حتى فقد
الحكمة وأسرف فى التفكير حتى أضاع الجمال ، ولن نجد ما يغنيننا عنك فابق
لنا كما أنت الآن . ولكن يجدر بك أن تسرع بارتداء ملابسك وتأتى معى
إلى النادى ، فقد تأخرنا .

— سألق بك فى الأوبرا يا هارى لأن التعب قد قتل شهيتى للأكل ،
فأرغم مقصورة أختك .

— سبعة وعشرون ، وستجد اسمها على باب المقصورة فلن يطول بحثك
ولكن يؤسفنى أنك ترفض دعوتى للعشاء .

قال دوريان جرای فى فتور :

— اغفنى هذه المرة ، فلن أستطيع أن آكل شيئاً . ولكن يجب أن
أقول لك قبل أن تنصرف أنى مدين لك بالكثير ؟ فكلما تك قد طابت نفسى ،
ولن أجد بين الناس صديقاً مثلك يخفف عنى الأحمال ، فما من أحد تقذ إلى
سريرتى نقاذك أنت إليها .

فأجاب اللورد هنرى وهو يصافحه :

— مانحن إلا فى بداية الطريق يا دوريان وأرجو أن تقوى صداقتنا
على الأيام . أمل أن أراك قبل منتصف الساعة التاسعة ، ولا تنس أن باتى
يعنى الليلة فى الأوبرا ، فإلى اللقاء .

وبعد أن أغلق الباب وراءه دق دوريان جرای الجرس يطلب خادمه فدخل
عليه فكتور يحمل المصابيح وأسدل على النوافذ ستائرهما ، وبدا لدوريان جرای

أنه يتلکأ في عمله فنغد صبره . ولكن فکتور خرج أخيراً فأمرع إلى الصورة وأزاح عنها الغطاء ليستطلع مدى التغير الذي حل بها في الفترة الأخيرة فوجدها كما كانت قبل أن يزوره اللورد هنرى ، فعرف أنها علمت بموت سيبييل ثين قبل أن يعلم هو ، وعرف أنها تستجيب لكل ما يحدث في الحياة وقت حدوثه . فإذا كان الأمر كذلك فأمارات القسوة التي طالعها في موضع الفم لا بد ظهرت لحظة أن قتلت سيبييل ثين نفسها . ثم خطر له أن الصورة إن هي إلا مرآة روحه ، فهي لا تتأثر بما ينجم عن مسلكه من نتائج وإنما تسجل كل تغير ينتاب روحه ولم يجد جواباً شافياً على مزاعمه المضطربة ولكنه تمنى أن يرى بعينه التغير يجري في الصورة يوماً من الأيام ، وفيما هو يفكر في هذا الأمر اقشعر بدنه من هول الفكرة .

يا سيبييل من فتاة تلسة ويا له من غرام فاجع ! كم ذاقتم على المسرح كأس المنية حتى قبضت المنية روحها وخطف الموت السر من بين جنبيها . تراها أتقنت آخر منظر في مأساة حياتها ؟ تراها لعنته وهي تموت ؟ ولكن كيف تلعنه وهي قد ماتت في هواه ؟ كلا . لقد أصبح الحب طريقة للخلاص فلقد مسحت عنه بموتها آثامه . فلينس إذاً ما أنزلت به من عذاب في ليلة الفراق ، وليذكرها كعذراء أرسلتها المقادير إلى مسرح الحياة لتثبت للناس حقيقة الحب ، ويا لها من عذراء تبهر الناظرين ! وترقرق الدموع في عينيه حين استحضر في خياله محياها البريء وحياءها الخلاب ، وطباعها العجيبة ، خففها لقوره وعاد يتطلع إلى الصورة من جديد .

وأحس بأنه يقف في مفترق الطرق ليختار من السبل ما يشاء . ولكن كيف يختار من السبل ما يشاء وقد اختارت له الحياة السبيل الذي يسلكه ؟ أجل ، إن الحياة قد فصلت له في أمره نيابة عنه لأن به شغفاً بالحياة لا يجد بحدود . فالشباب الدائم النضرة ملك يديه والعواطف الجارفات كالسيول ، واللذات الخفية واللذات التي لم تعرفها نفس أبداً ، والأفراح المجنونة والخطايا

الجنونة ، كل هذه من نصيبه ، وما على الصورة إلا أن تحمل وزر حياته النكراء .

وعندما تصور المسخ الذى سيصيب وجهه الجليل على اللوحة اقشعر بدنه مرة أخرى . لقد أراد ذات مرة أن يقلد الإله الذى عشق نفسه فى أسطورة النرجس فقبل تلكما الشفتين اللتين تكايدانه فى اللوحة بما تحملان من قسوة ، ولكم جلس يوماً بعد يوم قبالة الصورة يتغزل بحماها . أتراها الآن تسجل عليه كل ما يجرى فى دخيلة نفسه ؟ أتراها تزداد كل يوم بشاعة حتى تصبح فى النهاية مسخاً رجياً يجب إخفاؤه عن العيون وإقصاؤه إلى حجرة محكمة الإيصاد بعد أن كانت تغتسل كل يوم فى ضوء الشمس ويبرق شعرها المتموج فيه كسبائك النضار ؟ وأها ثم وأها ،

وأراد أن يسجد ضارعا للسماء أن تضع حداً لهذا التجاوب المقيت بينه وبين الصورة . وبعد ، ألم تتغير الصورة إجابة لصلاته الأولى ! فليس مستحيلاً إذا أن تثبت على حالها إجابة لصلاة ثانية . ولكنه لم يقو على ذلك لأن الإغراء كان عظيماً . فهل بين الأحياء الذين ذاقوا طعم الحياة من يرفض أن يشترى الشباب الدائم مهما غلا ثمنه ؟ ثم من يدريه أن الصورة رهينة برغبته ؟ من يدريه أنها تغيرت لأن صلاته قد أجبت ؟ أليس جائزاً أن هناك تفسيراً علمياً لكل ما يحدث ؟ أليس جائزاً أن الفكر الذى يؤثر فى الكائنات الحية مستطيع كذلك أن يؤثر فى الكائنات الجامدة ؟ ثم أليس جائزاً كذلك أن أشياء العالم الخارجى تستجيب لخواطرننا وأهوائنا دون فكر أو وعى فتجذب ذرة فيها ذرة بقانون الحب المخبوء فى كل شىء . ولكن كيفما كان التعليل فهو لا يغير من الأمر شيئاً ، وهو لن يثير بعد اليوم بصواته القوى الرهيبة فى هذا الوجود . وكفاه ما كان . فتتغير الصورة إذا كان مقدرها لها أن تتغير . فما له فى ذلك حيلة ، ولا داعى للتفكير فى العلل والنتائج .

أسوف يجرد لذة فى مشاهدة التطور الذى يتزل بها ، ولسوف يقف على

مكنونات عقله التى لا يعرف عنها شيئاً يوماً بعد يوم . لسوف تكون الصورة
مرآته السحرية التى تعكس له تلافيف نفسه كما عكست له ثنايا جسمه . وحين
يحل عليها الشتاء فيذويها يختال هو بين الربيع الناضر والصيف القوى وحين
يغيبض الدم في وجنتيها ويترك وراءه صفحة شاحبة بيضاء ومقلة أطفائها
السنون يبقى له سحر الصبا . أجل . لن تذوى زهرة واحدة في بستانه اليانع
ولن يهد فيه عرق ينبض الآن بالحياة . وسوف تبقى له فتوته أبداً وخفته
أبداً ومرحه أبداً كأنه إله من آلهة الإغريق . فماذا يهم لو تبدلت الصورة أو
شاهدت أو تهشمت ؟ إنه في حصن حصين لا تصل إليه يد الزمن ، وهذا كل
ما يصبو إليه .

وغطى الصورة الستار مرة أخرى وابتسم في رضا ثم دخل حجرة النوم
حيث كان خادمه ينتظره ، وبعد ساعة كان دوريان جراى فى الأوبرا وكان
اللورد هنرى يتحدث إليه بصوت مهوس .

الفصل التاسع

*

وفي الصباح التالي جلس دوريان جرائ ليتناول فطوره، وفيما هو كذلك دخل عليه بازيل هولورود وقال مكتئباً :

— أنا سعيد الحظ لأنى وجدتك أخيراً يا دوريان ، وقد مررت بك ليلة الأمس فقيل لى إنك فى دار الأوبرا ، فلم أصدق ذلك . ولقد كنت أود لو أنك بعثت إلى ببرقية عقب علمك بالحادث مباشرة أما أنا فقد طالعت النبأ فى طبعة متأخرة من صحيفة الجلوب عثرت عليها فى النادى بمحض المصادفة ، فجننتك فوراً وأحزنتى أنى لم أجيدك ، فقد أشفقت أن تردف أنت هذه المأساة بمأساة أخرى ، وأقضت هذه الفكرة مضجعى طول الليل فلم أذق للنوم طعماً . كان يجدر بك يا دوريان أن تترك كلمة تعين فيها المكان الذى قصدت إليه ، فقد أشقانى القلق عليك شقاء ما بعده من شقاء كما أحزنتى موت سيبييل حزناً ما بعده من حزن ، وإنى لأحس بأثر الفجعة فيك فتجمل بالصبر . ولكن أين كنت ليلة الأمس ؟ أذهبت لتواسى أم الفتاة ؟ لقد خطر ذلك ببالى وكدت أن أتبعك إلى بيتها بموستون رود الذى قرأت عنوانه فى الصحيفة ، ولكنى خفت أن تكون زيارتى لهذا البيت الحزين فضولاً يضر أكثر مما ينفع ، فهذه خبيعة فريدة لا يفيد فيها عزاء وكيف تتعزى من رزئت فى وحيدتها ، فيالأمها الشكلى من امرأة منكودة الطالع . ما من ريب فى أن قلبها قد مزقته الأحزان . قل لى ، كيف تراها استقبلت الحادث يا دوريان ؟ قال الفتى وهو يرشف بعض النبيذ الأصفر من كأس دقيقة المنكوبين

مزخرفة بالذهب صنعت من زجاج البندقية وقد بدا عليه الملل الشديد :
 — كيف أعلم ذلك وقد كنت في الأوبرا ؟ ليمك جئت معنا ، فقد كانت
 ليلة ممتعة تعرفت فيها لأول مرة على اليدى جوندولين ، أخت هارى ، وقد
 كنا في مقصورتها فوجدتها امرأة فاتنة حقاً ، وكان باتى يغنى فأجاد الغناء .
 لا نتحدث يا بازيل عن الموضوعات المحزنة ، فالشئ الذى لا نتحدث عنه لم
 يحدث ألبتة ، لأن التعبير كما قال هارى هو الذى يكسب الأشياء صفة
 الحقيقة . ولكنى أحب أن أذكر لك عرضاً أنه لمسزقين ابناً لا يشتغل بالتمثيل
 بل يعمل كبحار وأعتقد أنه فتى لطيف . والآن فلتحدثنى عن نفسك وما
 ترسمه في هذه الأيام .

قال هولوردد في ببطء وكان صوته ينم عن ألم بالغ :
 — أقول إنك ذهبت إلى الأوبرا ؟ أقول أنك ذهبت إلى الأوبرا حين
 كانت سيبييل فین مسجاة في بيتها المقبض ؟ أتتحدث بحمال غيرها من النساء
 وبروعة غناء باتى قبل أن تجد حبيبته القبر الذى تستريح فيه . أنسيت أن
 الدود ينتظر جسدها البض الصغير في شوق ولهفة ؟

فنهض دوريان من مكانه وصاح به قائلاً :
 — كنى يا بازيل ، ولا تذكر هذه الأشياء أمامى مرة أخرى ، وانس ما فات
 فليس لأحد سلطان على الماضى .
 — أسمى الأمس بالماضى ؟

— وما دخل الزمن في كل هذا ؟ إنما يحتاج السذج إلى أعوام طويلة
 ليبرأوا من عاطفة ما ، أما من تعود أن يكون سيد نفسه فأحزانه تخضع
 لإرادته يصرفها حين يشاء ولذاته طوع بنانه يخلقها متى أحب ، وأنا
 لا أريد أن أدع عواطفى تستبد بى بل أريد أن أستخدمها وأنعم بها
 وأسيطر عليها .

— هذه قسوة منك يا دوريان ، ولا بد أن شيئاً قد بدل من طباعك تماماً .

أنت لا زلت كما كنت دائماً ذلك الفتى الصبوح المحيا الذى كان يجيئنى فى الاستوديو يوماً بعد يوم لأرسمه ، ولكنك كنت فى الماضى ساذجاً طيب القلب تسير على سجييتك ، بل كنت أنقى من عرفت من الناس ، أما الآن فأنت تتحدث حديث شخص ميت الإحساس وهذا لا ريب أثر هارى فيك .

فاهر وجه الفتى ومشى إلى النافذة وأنشأ يتأمل حشائش الحديقة الخضراء التى تلمع فى ضوء الشمس لحظات ثم قال :

— إن دينى هارى أثقل من دينى لك يابازيل ، فأنت لم تعلمنى إلا أن أغتر بنفسى .

— إذا كان الأمر كذلك فقد حل بى غضب السماء أو سيحل يوماً من الأيام .
التفت الفتى إليه وقال :

— لست أفهم ما تقول يابازيل . ماذا تريد منى . آجب .
فأجاب الفنان بنفس حزينة :

— أريد منك أن أرى فيك دوريان جراى الذى اعتدت أن أرسمه .
فسعى الفتى إليه ووضع يده على منكبه قائلاً .

— لقد جئت متأخراً يابازيل ، حين سمعت البارحة أن سيبييل فثين قد انتحرت ...

خملق هولوردد فيه فزعاً وصاح :

— انتحرت ! ياإلهى ! أهذا مقطوع به ؟

— بالطبع انتحرت . هل انطلى على ذكائك الوقاد ياعزيزى بازيل أن موتها كان نتيجة حادثة عادية .

فدفن الرسام وجهه فى كفيه وقال وهو يرتجف :

— ياللفظاعة !

قال دوريان جراى :

— ليس فى الأمر فظاعة فلقد كان مصرعها مأساة من أجل مآسى العصر .

فأنت تلاحظ أن المشتغلين بالتمثيل يعيشون كعامة الناس عيشة مملة لا خيال فيها رغم أنهم يتجرون بالخيال ويبيعون الأحلام فتجد منهم الأزواج الأفاضل والزوجات الوفيات وما شاكل ذلك من الفضائل التي تتميز بها الطبقة المتوسطة . أما سيبيل فقد كانت تختلف كل الاختلاف . فقد كانت تلعب دور البطلة في مآسى المسرح وفي مآسى الحياة . وفي آخر ليلة مثلت فيها ، وهي ليلة أن رأيتها ، سقطت في التمثيل لأنها لمست حقيقة الحب فكشفت لها حقيقة الحب عن زيف الفن . فلما أدركت زيف الفن ماتت ، ولكنها لم تمت كما تموت بنات الحياة بل ماتت كما تموت بنات الخيال ، ماتت ميتة جوليت ، فدخلت حرم الفن من جديد بعد أن خرجت منه . وهي في عداد الشهداء لأن لموتها كل ما للاستشهاد من جمال ضائع وتضحية لا طائل وراءها . ولا تحسبني أنى لم أحزن لوفاتها ، فلو قد جئتنى بالأمس نحو منتصف الساعة السابعة لوجدتني أبكى . وهارى ذاته التي حمل إلى نيا وفاتها لم يعرف مبالغ شقائى ساعتها . نعم ، لقد حزنت عليها حزنا كثيرا ثم زال الحزن عني ولن أستطيع أن أسترجعه فما تعودت أن أكرر عواطفى ، لأن هذا خليق بأصحاب العواطف الزائفة ، ولست منهم . فأنت كما ترى يابازيل تظلمنى ظلماً فاحشاً إذ تقول بأنى ميت الإحساس . لقد جئتنى لتعزىنى وهذا جميل منك ، فتجدينى متعزياً فيغضبك أن أكون كذلك . فهل أنت من أصحاب العواطف الزائفة ؟ أنت تذكرنى بقصة رواها لى هارى عن رجل من أولئك الرجال الذين أنعمهم حب البشر أضاع من عمره عشرين عاماً في إصلاح قانون ظالم فلما وفق أخيراً إلى ذلك وارتفع الظلم أصيب بخيبة أمل شديدة ، فقد وجد نفسه عاطلاً تماماً لا يجد ما يعمل حتى كاد الملل أن يقتله فانقلب من محب للبشر إلى ناظم على البشر . ثم إنك لو أردت أن تواسينى يا عزيزى بازيل فلخير أن تعلمنى كيف أنسى ما حدث من أن تذكرنى به ، فخير أن تعلمنى كيف أستقبل هذه المحنة استقبال الفنان من أن تطلب إلى أن أستقبلها استقبال الإنسان العادى .

أليس جوتيه هو القائل بأن الفن يواسي النفس ؟ هذه عبارة قرأتها في كتاب له وجدته مصادفة أيام أن كنت أزورك في الاستوديو . ولست كذلك الشاب الذي ذكرت لي عنه حين كنا معاً في مارلو أنه يقول إن ملمس الاطلس الناعم ينسبه كل ما في العالم من أحزان ، فأنا أتعشق الأشياء الجميلة ولا أقنع منها بالقليل . أنا أحب التماثيل البرزية والتماثيل العاجية والقماش المزخرف القديم وأدوات الترف وأسباب البذخ ، وبالجملة أحب أن يكون كل ما تقع عليه حواسي جميلاً فيه أثر الفن . مثل هذه الأشياء تجعل الحياة بهيجة ولكن قيمتها الأولى عندي هي أن تلهمني بالخواطر الفنية أو تعرض علي ما فيها من فن على أقل تقدير . فاجتناب آلام الحياة لا يكون إلا بعلو الذات ووقوف الإنسان موقف المشاهد من نفسه كما قال هاري . أعلم أن حديثي هذا يذهلك لأنك لم تتعوده مني ، ولكنك تنسى أنني قد نموت . لقد عرفتني حين كنت تلميذاً لا خبرة لي بالحياة ، أما الآن فأنا رجل كامل النمو وأفكارى اليوم غير أفكارى بالأمس وعواطفى اليوم غير عواطفى بالأمس ، وإذا كنت قد تغيرت فهذا لا يستمتع أن تخفف من حبك لي بل ينبغي عليك أن تظل كما كنت دائماً صديق الوفي رغم أنني قد تغيرت . وأنا أحب هاري جداً لا شك فيه ولكنى أعتقد أنك أطيب منه نفساً . نعم أنت أطيب منه نفساً رغم أنه أقوى منك شخصية وأقل خوفاً من الحياة . تذكر يا بازيل كيف كنا سعيدين معاً في الماضى فأرجوك ألا تقاطعنى أو تتشاجر معى . وإذا كنت ترجو منى أن أعود كما كنت فأنت مخطئ ، وواجبك أن تقبلنى على علاني . هذه وجهة نظرى قد بسطتها لك وليس لدى ما أضيفه إليها .

وتأثر الرسام لهذا الكلام فقد كان يحب الفتى أيما حب ويعلم أن شخصيته قد ألهمته بأسلوب في فنه جديد . ولهذا لم يحتمل أن يسترسل في لومه . وقد كان يعرف فيه النبيل وكرم النفس فظن أن فتوره في الأيام الأخيرة ليس إلا وبة عارضة .

فقال أخيراً وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

— لن أحدثك مرة أخرى في هذا الموضوع الفظيع يادوريان ، وكل ما أرجوه ألا يرتبط اسمك بالحادث على صورة ما . إن التحقيق سيجري عصر اليوم فهل استدعتك النيابة .

فهز دوريان رأسه دلالة النفي وبدأ عليه الاستياء من ذكر التحقيق ، فقد كان يرى في أشباه هذه الأشياء أنها تصلح للرعاة لا للسادة . قال :

— إنهم يجهلون اسمي .

— ولكن الفتاة كانت تعرفه بلا شك .

— كلا . إنما كانت تعرف اسمي الأول فقط ، وأنا واثق من أنها لم تبع به لمخلوق ، فقد ذكرت لي مرة أنهم كلما سألوها عنى أجابتهم بأن اسمي الأمير الساحر ، فأحسنت بذلك صنعا . أرجوك يابازيل أن ترسم لي صورة من سيبييل لأنني أحب أن يبقى لي منها شيء ، بذكرني بها غير القبلات القليلة التي تبادلناها والكلمات الحزينة التي سمعتها منها .

— إذا كان هذا يرضيك يادوريان فسأحاول أن أرسم صورة منها . ولكنني أطلب إليك أن تعود إلى لارسمك من جديد فقد انقطع عنى الوحي منذ أن غبت عنى .

خفيل الفتى وأجاب :

— هذا مستحيل يابازيل . فلن أستطيع أن أقف أمامك مرة أخرى لترسمنى . خملق الرسام فيه وقال :

— ما هذا الهراء ياعزيزى ؟ أفهم من هذا أن الصورة التي رسمتها لك لم تعجبك ؟ ولماذا تحجبها بهذا الستار ؟ دعنى أرها فهي خير ما أنتجت في حياتى أرجوك أن تنزع عنها الستار يادوريان ، واعلم أن خادمك قد تجاوز حدود التدوق حين حجب هذه الصورة عن الأنظار . لقد لاحظت أن منظر الحجره غير مالوف لدى لحظة أن دخلتها .

— إن خادمي لاصلة له بهذا الأمر يا بازيل . أتخسب أني أسمح له بأن يتصرف في حجرتي كما يشاء ؟ إن كل ما أسمح به لشكثور هنا هو ترتيب الأهار من وقت إلى آخر . لقد غطيت الصورة بنفسي لأن الضوء الساقط عليها قوى خفت أن يفسدها .

— من أين جئت بهذه النظريات يا عزيزي ؟ إن هذا أنسب مكان لها . دعني أراها .

وسار هولورود إلى ركن الحجرة قاصدا الصورة ، فشحب وجه دوريان جرای وانبعثت منه صيحة فزع وأسرع ليعترض سبيله قائلا :
— أنا أمنعك عن رؤية هذه الصورة يا بازيل .

فقال هولورود ضاحكا :

— وكيف تمنعني عن رؤية عمل من أعمالى ؟ إنك لا ريب تهزل .

— كلا ، فأنا جاد فيما أقول تماما . وإذا أنت حاولت رؤيتها يا بازيل فاني أقسم لك بشرفى أنى لن أكلمك ما حييت . لا تطلب إلى ابداء أسباب فان فعلت فلن تظفر منى بشئ ، ولكن تذكر أنك لو جذبت هذا الستار فان كل صلة بيننا تنتهى .

نزلت هذه الكلمات على هولورود نزول الصاعقة ونظر إلى دوريان جرای في عجب شديد ، فرأى الدم قد غاض من وجهه غضاً ، ورأى قبضتيه معقودتين وفي عينيه اشتعلت نيران زرقاء ، وبصر كل جارحة فيه تنتفض انتقاضا . قال :

— مالك يا دوريان !

— صه .

فتركه الرسام ومضى إلى النافذة وقال ببرود :

— ماذا انتابك يا دوريان ؟ إذا كنت تكره أن أرى الصورة فلن أراها بطبيعة الحال ، ولكن من السخف أن يحال بيني وبين عملى على هذا النحو

وخاصة لأنى أنوى عرضها فى باريس فى الخريف القادم، وأحسب انهاستحتاج إلى طبقة جديدة من الورنيش قبل عرضها، فإذا كنت سآراها فى يوم من الأيام فما الفرق بين رؤيتها الآن ورؤيتها غدا؟
فتملك الفزع دوريان جرای وصاح به :
— أتريد أن تعرضها ؟ أتريد أن تعرضها ؟

إذا فسيقف العالم كله على سره ويعجب الناس لهذا الغر العظيم . ولكن هذا مستحيل ، لأن دوريان جرای لن يسمح بذلك . نعم لايد من عمل شئ أيا كان ليحول دوريان جرای دون ذلك . قال الرسام :

— نعم ، أريد أن أعرضها ، وأحسب أنك لا تمنع فى ذلك . إن جورج بتي سوف يجمع أجود صوري ويرسلها إلى معرض خاص بشارع سيز بباريس وهذا المعرض سيفتح أبوابه فى الأسبوع الأول من أكتوبر ، ولن تغيب عنك الصورة أكثر من شهر واحد ، ولن تخسر بذلك شيئاً كثيراً لأنك ستفادر لندن إبان ذلك الشهر على أية حال ، وإذا كنت تحجب الصورة دائماً بهذا الستار فيستوى لديك وجودها وعدم وجودها .

ومر دوريان بيده فوق جبينه لمسح العرق المتصبب منه ، وأحس بخاطر هائل يحدق به . قال :

— أما قلت لى منذ شهر إنك لن تعرض الصورة قط ؟ فلم عدلت عن قرارك هذا ؟ إني لأرى أن أمثالك من الناس الذين يتمسكون بالمعقولة لايقولون تقلباً فى أهوائهم عن غيرهم ، وكل ما هنالك أن نزواتكم سفیهة لامعنى لها . أنسيت أنك أكدت لى بكل ما تملك من قوة أنه لن يملك على عرضها شئ فى الوجود . ألم تقل لهارى نفس هذا الكلام ؟

ثم توقف فجأة عن الحديث ولمع فى عينيه بريق . فلقد تذكر أن اللورد هنرى قال له ذات مرة بين الجد والدعابة ، « إذا أردت أن تقضى ربع ساعة من أعجب ما مر بك فاجعل بازيل يدلى إليك بالأسباب التى تمنعه من عرض

الصورة ، ولقد أدلى إلى بهذه الأسباب فعامتني عنه شيئاً لم أكن أعرفه فيه . « نعم . من الجائز أن لبازيل كذلك سرّاً يريد أن يحتفظ به لنفسه ، فليحاول إذا أن ينزع منه هذا السر .

ومشى الفتى إليه ثم نظر إليه نظرة ثابتة وقال :

— اسمع يا بازيل ، إن لكل مناسراً يود أن يحتفظ لنفسه به ، فلو بحث لي بسرك بحث لك بسرى . لماذا كنت ترفض عرض الصورة في بادئ الأمر ؟ فارتجف الرسام رغم أنه حاول أن يضبط شعوره وأجاب :

— لو أنني ذكرت لك السبب يادوريان لجاز أن ينقص ذلك من حبك لي ولسخرت مني بغير شك ، وأنا حريص على حبك حريص على احترامك . وإنى لراض بما يرضيك ، فإذا كان يرضيك ألا أرى الصورة أبداً فاني بذلك راض . وبكفيني أن أراك دائماً أمامي فلا حاجة لي إذاً بالصورة . وإذا كان يرضيك أن تحجب أجمل صورة رسمتها عن أنظار العالم . فهذا يرضيني كذلك لأن صداقتك أعز عندي من كل شهرة أو صيت .

فقال دوريان ملحقاً في سؤاله :

— بل يجب أن تذكر لي السبب فمن حق أن أعرفه .

وزال عن دوريان جرای إحساسه بالفرع وحل محله الفضول ، وصح عزمه على انتزاع هذا السر من بازيل هو لوورد مهما كلفه ذلك . وبدأ على الرسام القلق وهو يقول :

— فلنجلس يادوريان ، فلنجلس . ولكن قبل أن أعترف لك بشيء أجبني على هذا السؤال :

هل لاحظت في الصورة شيئاً غريباً ، شيئاً لم تره فيها أولاً . ثم ظهر فيها حاجة ؟ فخلق الفتى فيه في رعب وذ هول وارتجفت يداه وقبضتا على ذراعي مقعده وصاح :

— وكيف عرفت يا بازيل !

— أرى أنك لاحظت في الصورة شيئاً غريباً كما قلت ، فلا تقاطعني
 يا دوريان وتريث حتى تسمع أقوالى كلها . لقد كان لشخصيتك سلطان عظيم
 على نفسى منذ أن تقابلنا يا دوريان فامتلكت روحي وعقلي وسائر ملكاتى
 وصرت أرى فيك صورة المثل الأعلى الذى يأتينا معشر الفنانين من وادى
 الذكريات ولا يفتأ يلم بنا إلام الحلم الجميل . ولقد عبت هذا المثل الأعلى
 فى شخصك حتى بت أغار من كل من تتحدث إليه وأحسب أنه سيصرفك
 عنى وأردت أن أستحوذ على كل ما فيك وحدى وكانت السعادة تجيئنى
 بعجيبك وتغيب عنى بعيبك ، ولكنك كنت حاضراً فى فنى دائماً أبداً كلما
 غاب شخصك عنى . ولم يكن فى استطاعتى بطبيعة الحال أن أبوح لك بهذا
 السر فإ كنت لتفهم معناه فأنا صاحبه لم أكن أفهم معناه ، وكل ما فهمت
 منه أنى رأيت الكمال رؤىة العين وأنى أحسست بهجة الحياة بعد أن كنت
 شقيماً . ولعلى أسرفت فى ابتهاجى بالحياة فقد لازمنى الإحساس بخظر محقق ،
 فقد كنت أخاف من فقدانك وقد كنت أخاف من إبقائك ، وهذا من
 خصائص الحب المدمر ، وكلما مرت الأيام زاد اندماجى فيك . ولقد رسمتك
 فى صورة أدونيس حاملاً رجماً مصقولاً لابساً بزة الصيادين ، ورسمتك فى
 زورق هادريان توجت رأسك أزهار اللوتس الثقيلة وامتد بصرك وراء مياه
 النيل المضطربة الخضراء ، ورسمتك فى صورة إله النرجس تتأمل وجهك الجميل
 فى غدير صاف ساكن بين أدغال اليونان . وقد لُزمت حدود الفن الصحيح
 فى كل ذلك فكان عملى مثالياً بعيداً عن الحياة لا دخل للوعى فيه . ثم
 جاءت نقطة تحول . عزمت ذات يوم على أن أرسم صورة منك عظيمة ، بل
 صورة لك كما أنت فى الواقع وفى ملابس العصر الذى تعيش فيه . ولست
 أدرى ماذا دفعتنى إلى ذلك أهو جمال الأسلوب الواقعى أم جمالك أنت يا دوريان
 وقد ظهر شخصك لى مجرداً عن أساطير الفن . ولكنى أحسست وأنا أرسمك
 بأن كل خط أمدته وكل طبقة من اللون أضعها على اللوحة تفضح سرى ،

وأشفقت أن يرى الناس هذه الوثنية الجديدة في عملي . أحسست يا دوريان بأنني قد بحث للناس بأكثر مما ينبغي لي أن أبوح به ، وإنني قد وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي أن أضع . وهذا ما جعلني أقرر ألا أعرض الصورة ، وقد أحنقتك كلماتي قليلا ولكنك لم تفهم وقتئذ معنى الصورة عندي . أما هاردي فقد صارحته بهذه الحقيقة فضحك مني ساخراً ، ولكنني لم أكرث لسخريته لأنني أفهم أسلوب تفكيره . فلما ان تمت الصورة وجدت نفسي على أفراد معها فتبينت صدق إحساسي . ولكن الصورة انتقلت من الاستوديو إلى بيتك بعد بضعة أيام فزال سحرها في نفسي وخلصت أني تركت نفسي فريسة للأوهام حين رأيت في الصورة شيئاً غير عادي ولم أعد أرى فيها إلا أنها صورة شاب جميل بيد رسام ماهر . بل أنا الآن أحس أن من الغباوة أن يحسب إنسان أن العواطف التي تصاحب عملية الخلق عند الفنان تتجلى في الأثر الذي يخلقه . فالفن شيء مجرد على عكس ما نعتقد . والقالب واللون لا يدلان إلا على القالب واللون ، وكل ما خرج عن هذا من نسج الخيال . وكثير ما يجول ببالي أن الفن يطمس شخصية الفنان ولا يظهر منها إلا القليل . وهذا ما جعلني أقرر أن أجعل من صورتك اللوحة الأساسية في معرضي حين وصلتني هذه الدعوة من باريس ، ولم يخطر ببالي قط أنك سترفض ، ولكنني أرى الآن أنك على صواب والصورة لا يمكن أن تعرض وأرجو ألا تغضب لما قلت يا دوريان ، فأنت لم تخلق إلا لتعبد . هذا رأيي ، وقد صارحت به هاري ذات مرة .

تنفس دوريان جرای الصعداء ، وتوردت وجنتاه من جديد وهم بأن يمتسم . فلقد زال عنه الخطر وأحسن أنه يأمّن في تلك الساعة ، واختلاج فؤاده بالثناء للرسام الذي فرغ منذ لحظة من هذا الاعتراف الغريب ، ثم انصرف إلى التفكير في نفسه واستبعد أن يحدث له ما حدث لبازيل هولود . استبعد أن يكون لأحد عليه كل هذا السلطان مهما بلغ حبه له . إن اللورد

هنرى كان يفتنه لأنه رجل خطر ، ولكن هذا كل مافى الأمر . ان ذكاء اللورد هنرى شديد إلى الحد الذى يخيفه وسخريته من كل شىء فى الحياة تقف سداً حائلاً بينهما ، ولهذا كان مستحيلاً أن يحب دوريان جرای اللورد هنرى كل هذا الحب العميق . أهنالك شخص تخبئه له المقادير سيفعل به ما فعله هو بالرسم ويملؤه بهذه الوثنية العجيبة ؟ قال هولورود .

— عجيب أن ترى هذا فى الصورة يادوريان . أصبح أنك رأيت ؟
فأجاب الفتى :

— لقد رأيت فى الصورة شيئاً ، شيئاً بدا لى عجيماً .

— والآن وقد عرفت كل شىء أسمح لى برؤية الصورة .

فهز دوريان رأسه قائلاً :

— كلا يا بازيل ، وأرجوك ألا تسأنى ذلك مرة أخرى فلن أسمح لك بأن ترى الصورة .

— ولكنك ستسمح لى بذلك فى المستقبل ، أليس كذلك ؟

— كلا لن أسمح لك بذلك أبداً .

ربما كنت مصيباً فى هذا يادوريان . والآن لابد لى من الإنصراف فالى اللقاء . لقد كنت الشخص الوحيد الذى ترك فى فنى أثراً دائماً ، وإنى لمدين لك بكل مافى إنتاجى من جمال . ولكنك لا تعرف كم كافىنى الإفضاء إليك الكلام بهذا .

فقال دوريان :

— ولكنك لم تقض إلى شىء يا عزيزى بازيل سوى أن إعجابك لى قد

استبد بك ، وهذا ليس شيئاً مذكوراً فهو لا يصلح حتى أن يكون مجاملة .

— أنا لم قصد به أن يكون مجاملة ، وإنما قصدت به أن يكون اعترافاً .

والآن وقد اعترفت على يدك أراى أحس بأنى قد فقدت شيئاً . لعل

الصلوات تفسد العبادات .

- إذا كان ذلك اعتراة فقد خاب أملی فيه .
- وكيف كان ذلك يا دوريان ؟ أكنت تتوقع شيئاً آخر ؟ أريت في الصورة شيئاً آخر ؟ أجبنی . أجبنی .
- كلا ، ولكن لم تسأل هذا السؤال ؟ لا تحدث عن العبادة بعد الآن يا بازيل ، فما نحن إلا صديقان وصادقنا يجب أن تدوم .
- فقال الرسام بقلب حزين :
- ولكن ماذا يهمك من أمری ؟ إن لك في هاری ما يؤنس وحشتك . فأجاب الفتی ضاحكا :
- إن هاری يقضى أيامه في قول الغرائب ويقضى لياليه في فعل العجائب ، وهذا ما يحببني فيه ، ولكني لا أعتقد أني ألتجئ إلى هاری إذا أصابني مكروه ، فأنت أدنى إلى منه .
- أنا أنتظر منك أن تأتيني لأرسمك مرة أخرى .
- هذا محال .
- أنت تقصد حياتي الفنية برفضك هذا يا دوريان بعد أن عثرت فيك على مثلي الأعلى فقليل من الناس من يجد المثل الأعلى . أما أنا فقد أوتيت مثلين : أنت وفني ، وهذا ما لم يحظ به إنسان .
- لا تطلب مني تفسيراً يا بازيل ، ولكن محال أن أسمح لك برسمي مرة أخرى . يخيل إلى أن للأقدار يداً في كل صورة ترسم ، وكأني بالصور يحيا كما يحيا الإنسان . نعم ، محال أن أسمح برسمي مرة أخرى ولكني سأزورك لأتناول معك الشاي وفي هذا نفس المتعة .
- ربما وجدت أنت فيه نفس المتعة أما أنا فلا . إلى اللقاء يا دوريان . كم يحزنني أنك لا تأذن لي برؤية الصورة مرة أخرى ، ولكن لا بد مما ليس منه يد ، وإني لأقدر شعورك حق قدره .
- ثم انصرف فابتسم دوريان ابتسامة الراضي عن نفسه . إن بازيل المسكين

قد مضى وهو يحسب أنه وقف على سر دوريان جرای وما وقف على شيء ألبتة .
ثم أليس عجيباً أن ينجح في انتزاع ذلك الاعتراف من صدر بازيل بعد أن
كان على أهبة الاعتراف بسر له ؟ ولقد فسر اعتراف بازيل هو لو ورد له
الكثير مما كان خافياً عليه ، فسر له نوبات الغيرة الحمقاء التي كانت تعترى
الرسام فلا يستطيع لها كبتاً ، فسر له تقانيه السكامل في حبه ، فسر له إسراره
في أطرائه ، فسر له الصمت الطويل الغريب الذي كان يلزمه بين وقت وآخر .
كل هذه الأشياء اتضحت له بعد إبهام ، فتألم لحاله ألماً عظيماً ، وأحس بأن
صداقة كهذه اصطفت بالوان الخيال تنذر بفاجعة أكيدة .

وتنهدهم دق الجرس . لقد عزم على شيء ، وليس هناك ما يثنيه عن عزمه .
يجب أن تخفى الصورة عن الألفاظ مهما كانت النتائج ، فلن يعرض سره
للافتضاح بعد الآن . لقد كان جنوناً منه أن يترك الصورة ولو لساعة
واحدة في حجرة يطلوها كل قدم .

جال
الخا
أوا
فيها
عنه

النح
خيال

ثيابا
تعط

دور
سيئ

يا م

العنا

الفصل العاشر

*

دخل فكتور فنظر دوريان جرای إليه نظرة فاحصة لعله يرى إن كان قد جال بباله أن يكشف الحجاب ليرى الصورة المحبوة خلفه ، لكن وجه الخادم بدا له كالقناع الخالي من كل تعبير ، وظل الرجل ثابتاً في مكانه ينتظر أوامره . وأشعل دوريان سيجارة ومشى حتى بلغ المراة وأنشأ يتأمل خياله فيها . كذلك أبصر خيال فيكتور فيها ، وبدا الخادم له كتمثال للخضوع فزال عنه خوفه منه ولكنه لم ينزل عن رغبته في الحذر .

وطاب دوريان من خادمه في لهجة بطيئة أن يرسل إليه المدبرة ثم يقصد إلى النجار ويسأله أن يوفد إليه رجلين من قبله فوراً . وحين انصرف فكتور خيل إلى دوريان أنه ألقى نظرة على الستار ، ولكن لعله كان واهماً .

وبعد دقائق دخلت مسز ليف المكتبة في جلبة واضحة ، وكانت تلبس ثياباً حريرية سوداء انقرض زيهامند زمن . وطلب دوريان منها أن تعطيه مفتاح الحجرة التي كان يستعملها أيام الدراسة . فقالت المدبرة :

— ولكن حجرة الدراسة قدرة يكسو الغبار كل ما فيها يا مستر دوريان ، ولا بد أن أتولى تنظيفها وترتيبها أولاً قبل أن تدخلها فبني في حالة سيئة جداً .

— ولكني لا أريد أن أراها نظيفة ومرتبة ، وكل ما أريده هو المفتاح يا مسز ليف .

— إذا دخلتها يا سيدي فسوف يتساقط عليك التراب وتتراكم العناكب ، فقد ظلت مغلقة منذ وفاة سيدي اللورد

فعبس دوريان جرای حين سمع اسم جده فقد كان يبغض ذكره . وقال :
— هذا لا يهم ، فكل ما أريده هو أن ألقى نظرة على المسكان ،
فهاى المفتاح .

فألشأت السيدة العجوز تبحث بيدين مضطربتين عن المفتاح بين مجموعة
من المفاتيح مربوطة فى حلقة وهى تردد :

— ها هو المفتاح ، ياسيدى . ها هو المفتاح ياسيدى . تريت حتى
أخرجه من الحلقة ولكن أرجوك ياسيدى ألا تنتقل إلى حجرة الدراسة
فأنت هنا فى أتم راحة .

وأخذ منها المفتاح وهو يقول فى ضيق :

— كلا يا مسز ليف ، لن أنتقل إلى حجرة الدراسة ، وأشكرك على
المفتاح . لن أحتاج إلى شىء آخر .

ولكنها لم تنصرف فوراً بل طفقت تشرح له بعض الشؤون المنزلية
التافهة ، فاقسم لها وأفهمها أنه قد أطلق يدها فى الأمر تنصرف فيه كما تشاء
فانصرفت مغتبطة بهذه الثقة .

ولما أغلقت الباب خلفها وضع دوريان المفتاح فى جيبه ثم نظر فى أنحاء
الحجرة فوقعت عينه على غطاء حريرى فى لون البنفسج موشى بالذهب فى
كثير من أجزائه ، وكان هذا الغطاء تحفة فى فن النسيج صنع فى البندقية فى
نهاية القرن السابع عشر وقد عثر عليه جده فى دير من أديرة النساء بالقرب
من بولونيا . ووجد دوريان فى هذا الغطاء ستاراً مناسباً يستر به الصورة
البعيضة . ولعل الغطاء كان فى الماضى كفنأ يغطى به الموتى ، وهو اليوم
يستر شيئاً لا يقل عن الجيف تعفنأ ، شيئاً تقشعر الأبدان لمراة ولا سبيل
إلى زواله . إن خطاياه قد أصبحت تفعل باللوحة ما تفعله الديدان بالجثث ،
ولسوف تذهب بحماها وتشوه فتنها وتدنسها تدنيساً شديداً ، ومع ذلك فلن
يضع شىء لحياتها حداً لأنها خالدة .

وارتجف وعضه الندم على إخفاء الحقيقة عن بازيل ، فلو أنه فعل لمساعدته بازيل على التخلص من نفوذ اللورد هنرى عليه ، بل لمساعدته على كبح جماح نفسه التي كانت تميل بفطرتها للشر . فالحب الذي أكنه بازيل له لم يكن مجرد إعجاب بحاله نشأ في الحواس وينتظر أن ينطفئ بانطفائها بل كان شوقاً عقلياً شوقاً نبيلاً ، شوقاً كذلك الشوق الذي ملأ حياة ميكلا نجلو وموتتين وثكلان وشكسبير نفسه . نعم ، كان في استطاعة بازيل أن ينقذ روحه من الهلاك الذي ينتظرها ، ولكن لقد فات الأوان وهو يستطيع أن يتنكر لماضيه ويمحقه محققاً إما بنسيانته أو بإنكاره أو بالندم عليه ولكن المستقبل لأمير منه فهو أسير نفسه ونفسه أمارة بالسوء وهو عبد رغباته وهي شريرة .

ونزع دوريان جرای من الأريكة ذلك الغطاء البنفسجي الكبير الموشى بالذهب الذي كان يكسوها وسار به حتى بلغ الستار المنشور على الصورة وجذبه عنها ، وتأمل وجهه في اللوحة فلم يدر أكانت ملائحته قد ازدادت إشاعة . إن مظهر الوجه يدل على أنه لم يتغير ومع ذلك فقد اشتد كرهه له . فالشعر الذهبي والعينان الزرقاوان والشفتان الورديتان كل هذه كانت تطالعها في الصورة كما كانت تفعل قبلاً ، ولكن التعبير قد تغير ، وهذا ما حز في فؤاده حزاً شديداً . إن الصورة لتؤنبه على فعاله ، ولغتها الصامتة أقصى من تأنيب بازيل ألف مرة . لقد أطلت روحه من اللوحة لتذكره بسوء المصير . فلما أن غلبه الألم نشر الغطاء البنفسجي المزخرف على الصورة خجبتها ، وفيما هو يفعل كذلك طرق الباب طارق . وابتعد دوريان جرای حين لمح خادمه يدخل الحجرة . قال الخادم :

— لقد حضر الرجال يا سيدي .

وأحسن دوريان جرای بأن خادمه مصدر إزعاج فرأى أن يتخلص منه ، إذ ليس من الحكمة أن يعرف مقر الصورة الجديد . لقد كان فيكتور ماكرآ شيئاً ما ، كما أن في عينيه ما ينم عن الخبث ، ولذا وجب استبعاده . بذلك

جلس دوريان جرای إلى مكتبه وخط سطوراً معدودات إلى اللورد هنري يسأله فيها أن يسعفه بكتب يقرأها ويذكره بأن موعدهما في الثامنة والرابع من ذلك المساء . ثم سلم الرسالة إلى خادمه قائلاً :

— جئني برد اللورد هنري ، وقبل أن تذهب ادخل الرجال .

ومرت دقائق قليلة سمع بعدها ببابه طرْقاً ، ثم دخل عليه مستر هبارد صانع الإطارات المعروف في شارع سوٲ أودلي بشخصه وفي معيته مساعد له كرية المنظر . وكان مستر هبارد رجلاً ضئيل الجسم أحمر السوالف ممتلئاً بالحيوية يحب الفن حقاً ولكن حماسه للفن قد خفف منها أن أغلب عمله من الفنانين مفلسون ، وهو حريص على أن يتقاضى ثمن ما يصنع من إطارات . ولم يكن مستر هبارد لينتقل إلى بيت عميل مهما علا شأنه ، ولكنه كان يستثنى دوريان جرای من هذه القاعدة . فلقد كان دوريان جرای يجذب كل عارفه ، وكان مستر هبارد كسائر الناس يغبط لرؤيته . وقال هو يفرك يديه اللتين بدت عليهما آثار الجدري :

— أي خدمة تريدها مني يا مستر جرای ؟ إنه لي شرفني أن أحظى برؤيتك ولذلك تراني جئتك بشخصي . لقد ابتعت اليوم فقط إطاراً بديعاً عثرت عليه في مزاد وهو إطار من الطراز الفلورنسي القديم وأعتقد أنه أت من فونتهيل ، وسوف تجد أنه يناسب صورة موضوعها ديني .

— يؤسفني أنك قد أزعجت نفسك بالحضور شخصياً يا مستر هبارد فالمسألة ليست ذات بال . ولا شك أني سأزورك لأرى الإطار بنفسي رغم أني في هذه الأيام لا أكثرث كثيراً للفن الديني . وكل ما أريده الآن هو نقل صورة عندي إلى غرفة بأعلا المنزل ، وقد رأيت أن اطلب رجلين من رجالك لهذا الغرض .

— ليس في محيئي أي إزعاج لي يا مستر جرای بل إن فيه سروراً عظيماً لي ، فأى صورة تريد نقلها ياسيدي .

فقال دوريان وهو يزيح عن الصورة الغطاء :

— هذه الصورة يامستر هبارد ، ألتستطيع أن تنقلها كما هي بغطاءها ؟ أرجو ألا تصاب الصورة بخدش أثناء نقلها .

فأجاب الرجل الطيب مستر هبارد :

— هذا شيء يسير ياسيدي .

ثم شرع يخلع السلاسل النحاسية التي كانت الصورة معلقة بها في الحائط بمساعدة زميله ثم أردف .

— والآن يامستر جرای إلى أين تريد نقلها ؟

— اتبعني يامستر هبارد إذا سمحت . إن الغرفة التي أريد نقل الصورة إليها في أعلا البيت وسنستخدم السلم الأمامي فهو أعرض من السلم الآخر . ويبدو لي أن من الأفضل أن تتقدمني أنت . وأمسك الباب المفتوح حتى نقذ الرجلان منه إلى القاعة وشرعاً في الصعود . ثم لحق بهما ، وكانت الصورة أضخم من المعتاد لأن إطارها المزخرف كان أضخم من المعتاد ، لذلك كان دوريان جرای من وقت لآخر يساعدهما على الرغم من اعتراضات مستر هبارد الكريم الذي كان يعز على نفسه أن يرى أي « جنتلمان » يشترك في عمل نافع . وحين بلغوا آخر قاعدة في السلم مسح مستر هبارد العرق المتصبب على جبينه وقال وهو ياهث :

— إنها حمل ثقيل ياسيدي .

فأجاب دوريان قائلاً :

— سم يامستر هبارد ، إنها سن نحس .

ثم فتح لهما باب الغرفة التي أراد أن تحجب سره عن عيون الناس . لم يكن دوريان قد دخل غرفة الدراسة منذ زمن طويل وكان آخر عهده بها أيام أن كان يلعب فيها طفلاً ثم أيام أن كان يستذكر دروسه فيها صبياً . وكانت الحجرة واسعة متناسقة بناها اللورد كاسو خصيصاً لحفيده دوريان ليقتضيه عنه ما أمكن ذلك ، فقد كان يشبه أمه إلى حد غريب واللورد كاسو

كان يكره كل ما يذكره بابلته التي فرت مع ذلك الصعلوك الفقير وجعلت اسمه مضغة في أفواه الناس . وحين دخل دوريان الحجرة وجدها على حالها القديم ورأى الصندوق الكبير المذهب الحواشي المصنوع في إيطاليا ذا الجوانب الخرافية النقوش ، ذلك الصندوق الذي اعتاد أن يختبئ فيه أيام أن كان صبياً يلهو . كذلك رأى حمالة الكتب تحمل كتبه الدراسية ومن ورأها تدلت على الحائط رقعة بالية من القماش الفانمكي المشغول تحمل صورة ملك وملكة يلعبان الشطرنج في وسط حديقة وبحوارها كوكبة من الصيادين على أفراسهم يحملون على معاصمهم صقوراً رءوسها مغطاة ، وقد انطلمست على الرقعة الألوان . وعادت إليه ذكريات الحداثة جميعاً وهو يتفحص محتويات الحجرة وتذكر طفولته الموحشة وصباه الطهور فاستنكر أن يكون هذا المكان الأمين مخبأ لتلك الصورة البشعة ، وتحسر على أيامه الفائتات .

ولكنه لم يجد بالبيت حجرة أصلح من هذه الحجرة لإخفاء الصورة ، فهو يحمل مفتاحها ولا سبيل لأحد غيره أن يقتحمها دون علم منه . وهنا يستطيع الوجه المختبئ وراء الغطاء البنفسجي أن يتحول كما يشاء فما من عين تراه . يستطيع أن يمتلىء بالدنس والقساوة والوحشية ، ولن يكثرث هو لذلك فهذه آخر مرة يرى الصورة فيها فما به حاجة إلى أن يتتبع الخطاوط روحه درجة درجة . ولقد بقي له شبابه وهذا يغنيه عن كل شيء في الوجود . أما روحه التي ضاعت منه فلقد يستردها من جديد . نعم . فما أدراه أن المستقبل مظلم كالماضي ؟ أو ليس جائزاً أن تصفو روحه وتخلص من أوشاب الشر ؟ أليس جائزاً أن يذوق الحب من جديد فيظهر الحب روحه وبقية من الخطايا التي يعبت الآن بنفسه وبجسده على السواء . أجل ، يعصمه من الخطايا الخفية التي زينها له ولعه بالعجائب . جائز إذا أن تختفي دلائل القسوة من الشفتين الدقيقتين الجميلتين ، وعندئذ لن يجد حرجاً في أن يعرض هذا العمل الفني الخالد على أنظار الناس .

ولكنه عاد فعدل عن هذه الأوهام فقد تذكر أن الصورة تكبر في العمر كما يكبر الإنسان وتسجل الخطوط التي ترسمها السنون على صفحة الوجه شهراً فشهراً ، بل ساعة فساعة . ولقد تنجو الصورة حقاً من آثار الخطيئة ولكن هل من الزمن نجاة ؟ لسوف يغور خداه أو يترهلان . لسوف يتسع فيه كما يتسع فم الأبله أو يسترخى . لسوف تذبل عيناه وينطفئ وهج شعره الذهبي ويتجعد وجهه وتبرد يده المعروقة وتنحني قامته وتلتوى سائر أعضائه كما التوت أعضاء جده القاسي من قبل . نعم يجب أن تحجب الصورة عن الأنظار ، وأخيراً التفت دوريان جرای إلى الرجلين وقال في إعياء :

— أرجوك أن تدخل الصورة يامستر هبارد ، وإني لآسف لإهمالي إياك طول هذا الوقت فقد تحولت أفسكاري إلى شيء آخر .

وكان مستر هبارد لا يزال يلهث من الإجهاد فأجاب :

— بل لقد أتمحت لنا أن نستريح يامستر جرای ونحن نشكرك على ذلك . والآن أين تريدنا أن نضع الصورة ياسيدي ؟

— أينما تحب . ضعها هنا مثلاً واسندها إلى الحائط فلست أرغب في أن أراها معلقة . أشكرك .

— أياذن لي سيدي في رؤية الصورة ؟

قال دوريان في ارتياح :

— ليس في الصورة ما يشير اهتمامك يامستر هبارد . ولقد انتهى عمالك بهذا ، وإني لأشكرك مرة أخرى على مجيئك بشخصك .

ولم تتحول عيناه عن الرجل ، ولو أنه اجتراً على كشف الغطاء الجميل الذي يستر أسرار روحه لاقض عليه وأدبه تأديباً .

— لا شكر على واجب يامستر جرای ، لا شكر على واجب . وإني رهن إشارتك دائماً ياسيدي .

ونزل مستر هبارد يجر قدميه على السلم جرّاً ومن ورائه مساعده . والتفت هذا الأخير إلى الخلف كأنه يتزود بنظرة أخيرة من دوريان جرای ، وارتسمت على وجهه الغليظ دلائل الحجل والدهشة معاً ، لأن جمال دوريان جرای قد هز أوتار قلبه .

واختفى وقع الأقدام فأوصد دوريان الباب ووضع المفتاح في جيبه ، وأحس بالطمأنينة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الوحش المسوخ وتعرف منه جرائم روحه الآثمة .

ودخل المكتبة فوجدها على حالها ووجد الشاي في انتظاره . كذلك وجد رسالة من اللورد هنرى بجانبها كتاب أصفر الغلاف ممزق مبتل الأطراف ، وجدها على مائدة صغيرة من الخشب الأسمر الزكي الرائحة المطعم بالصدف أهدتها إليه الليدى رادلى زوجة وصيه وهي امرأة وسيمة الطلعة تحترف السقم لتقضى شتاءها في القاهرة وصيفها في الريشيرا . وعلى صينية الشاي رأى الطبعة الثالثة من صحيفة سانت جيمس ، فعلم أن فكتور قد عاد وخطر له أن يكون خادمه قد التقى بمستر هبارد وصاحبه أثناء انصرافها ، واستخلص منهما سر محيئهما . ولا شك أنه سيفتقد الصورة ، بل لاشك أنه افتقدها فعلاً وهو يضع آنية الشاي على المائدة ، وهذا مكانها في الحائط ظاهر في وضوح ، فلقد نسي دوريان أن ينشر عليه الستار ليخفيه . وبدأت الهواجس تلعب برأسه فتصور فكتور متسللاً ذات ليلة إلى الطابق العلوى ومحاولاً أن يفتح باب الحجرة عنوة . لقد كان يسمع بكثير من سرقة القوم الذين قاسوا طول حياتهم من تهديد خدمهم ، لأن خدمهم قرءوا خطاباً من خطاباتهم الخاصة أو عثروا على ورقة تحمل عنواناً مريباً أو وجدوا زهرة ذابلة أو قطعة من الدتلا المتكسرة تحت وسادة من وسائدهم ودار بخلد أن فكتور يتجسس عليه فأحس بأن الحياة على هذه الشاكلة لا تحتمل .

وتنهّد ثم صب لنفسه فنجاناً من الشاي ثم فض رسالة اللورد هنرى فإذا

اللورد هنرى لا يقول فيها إلا أنه قد أرسل إليه صحيفة المساء وكتاباً لعله يجد فيه متعة ، وأنه سيكون بالنادى فى الساعة الثامنة والنصف . وفتح دوريان الصحيفة فاستلقت نظره فقرة فى الصحيفة الخامسة جرى تحتها القلم الأحمر وقرأ فيها ما يلى :

« التحقيق فى مصرع ممثلة : أجرى مستر دانى مأمور قسم هوكتون صباح اليوم فى بل تافرن بطريق هوكتون التحقيق فى مصرع سيبييل فین ، وهى ممثلة صغيرة السن تعاقبت أخيراً مع دار التمثيل الملكية بحى هوبورن . وقد أسفر التحقيق عن أن الوفاة كانت نتيجة خطأ وقد عبر المحقق عن ألمه الشديد لوالة القتل التى غلبتها أحزانها أثناء ادلائها بشهادتها وعند سماعها شهادة الدكتور بيريل الذى قام بفحص الجثة » .

وبعد أن فرغ من تلاوة هذا النبأ تجهم وجهه ومزق الصحيفة إرباً ثم ألقاها فى ركن الغرفة . لقد عادت إليه بشاعة الموقف وأحس ببشاعة الحياة ذاتها ، واغتاز من اللورد هنرى لأنه أرسل إليه تقرير المأمور ، ورأى فى إشارته بالقلم الأحمر إلى سطور الخبر غباوة كبرى ، لأن إمام فكتور باللغة الإنجليزية يكفيه لفهم مضمون الفقرة ، ولعل هذه الإشارة أغرته بقراءتها فعلاً . وإذا كان فكتور قد قرأها فلا شك فى أنه بدأ يشك فى أمره ولكن ما أهمية شكه ودوريان جرای لا صلة له بموت سيبييل فین .

ووقع بصره على الكتاب الأصفر الذى أرسله اللورد هنرى إليه وأراد أن يعرف موضوعه فسار حتى بلغ الحامل الثمانى الأضلاع اللؤلؤى اللون الذى كان يبدو له دائماً كخليفة فضية جسيمة الأطوال ينتها جماعات من النحل العجيب ، وتناول الكتاب ثم جاس فى مقعد كبير وأنشأ يتصفح المجلد . وفى دقائق معدودة كان دوريان جرای يقرأ الصفحات فى نهم شديد ، فقد كان الكتاب أعجب كتاب وقع فى يده ، ومرت أمام عينيه الخطايا السبع فى موكب جميل راقصات على إيقاع ناي سحرى متسرבלات بأنحر الثياب . وبدأت

أحلامه الغامضة تأخذ أشكالا محسوسة أما خفايا الالذة فقد طافت بعقله كالأحلام .

كان الكتاب قصة لا عقدة لها ، وليس فيها غير شخص واحد ، أو بمعنى آخر كان دراسة نفسية لشاب باريسي من أبناء القرن التاسع عشر تنكسر للقرن الذي يعيش فيه وحاول أن يجرب العواطف التي جربتها القرون الأخرى ويعتق المبادئ التي أمنت بها تلك القرون ، وبالجمله حاول أن يركز في نفسه سائر الأطوار التي مرت بها الروح الإنسانية منذ القدم ، فهو آنا يقبل الزهد الذي يلقيه الحق بالفضيلة لما فيه من خروج على الطبيعة ، وهو آنا يقبل على المعاصي التي يلقيها العقلاء بالذيلة . وكان أسلوب الكتاب أسلوباً غريباً منمقاً واضحاً وغامضاً في وقت واحد ، اجتمع فيه اللفظ الدارج واللفظ القديم والتعبير العقلي والتعبير العاطفي مما يميز كتاب المدرسة الرمزية في فرنسا . وكانت به من الكلمات النابية واللطيفة معاً وظهرت فيه الشهوات في صورة فلسفة صوفية ، فاختلط عليه الأمر حتى أمسى لا يدري أيطالع وصفاً لرؤيا قديس من أهل العصور الوسطى أم يقرأ اعترافات فاسق أصيل من أهل جيله . لقد كان كتاباً مسموماً ، ما في ذلك شك ، ومن صفحاته صعدت عطور ثقيلة هيجت ذهن دوريان جرای ، وأخذته غيبوبة من أثر التنعيم اللغظي وإيقاعه الراتب الملل الذي كان قائماً على التكرار المدرس ، واستغرق فيما يشبه الحلم وهو يطوى فصول الكتاب فصلاً فصلاً فلم يشعر بزوال النهار ودنو الليل .

وفي المساء بدت قبة السماء لا هي بالخضراء ولا هي بالبحراء ولمع فيها نجم ثاقب واحد استضاء بنوره دوريان جرای حتى تعبت عيناه ولم يعد يستطيع أن يعضى في القراءة . وبعد أن دخل خادمه عليه جملة مرات ليذكره بتأخر الوقت فنهض من مكانه ودخل الغرفة المجاورة ووضع الكتاب على مائدة فلورنسية صغيرة كانت تلازم فراشه باستمرار ، ثم بدأ يستبدل ثيابه تأهباً للعشاء .

وحين بلغ النادی كانت الساعة قد بلغت التاسعة أو ما يقرب من ذلك ،
وفي النادی وجد اللورد هنرى يجلس بمفرده في صالون الصباح وقد بدت عليه
أمارات الملل القتال فقال له :

— أرجو أن تصفح عني يا هارى فما تأخرت إلا لأن الكتاب الذى
أرسلتنيہ قد سحرنى حتى ألهانى عن الوقت .

فأجاب اللورد هنرى وهو ينهض من مكانه :

— لقد توقعت أنك ستجبه .

— لم أقل إنى أحبه يا هارى ، وإنما قلت إنه سحرنى والفرق
بينهما عظيم .

قال اللورد هنرى بصوت خافت :

— أراك قد اكتشفت هذه الحقيقة بنفسك .

ثم دخل الرجلان حجرة الطعام .

أو
على
الآ
تس
الآ
ال
من
ف
د
ال
ال
ف
لا
ال
ش
و

الفصل الحادى عشر

*

كان لهذا الكتاب سلطان عظيم على دوريان جرای لازمه سنوات عديدة ، أو بتعبير أدق ، لم يسع دوريان جرای إلى التخلص من سلطان هذا الكتاب على نفسه وقد بلغ من افتتانه به أنه ابتاع من باريس جملة نسخ من طبعته الأولى لا تقل عن تسع ، كلها من القطع الكبير ، وجلدها فى ألوان مختلفة تستريح إليها نفسه فى أطوارها المتقلبة وتراح إليها طبيعته التى باتت تحكمها الأوهام ولم يعد لإرادته عليها سلطان . فلقد وجد فى ذلك الشاب الباريسى العجيب بطل القصة الذى اجتمع فيه الولع بالخيال والولع بحقائق العلم مرآة لنفسه المعقدة ، بل لقد وجد أن الكتاب بأكمله ليس إلا ترجمة لحياة كتبت قبل أن يخرج هو إلى الوجود .

ولكنه كان ينعم بشيء واحد لم ينعم به بطل القصة العجيب ، ذلك أن دوريان جرای قد نجا من ذلك الرعب الشديد الذى كان يستولى على الشاب الباريسى كلما وقعت عينه على مرآة أو لوح من المعدن المصقول أو صفحة من الماء الصافى ، ذلك الرعب الشديد الذى لازمه وهو لا يزال فى شرح الشباب . فقد كان فى مستقبل عمره آية من آيات الجمال ثم زال عنه جماله قبل ألوان فبات لا يقوى على مجابهة الحقيقة . وكان دوريان جرای يقرأ القسم الأخير من الكتاب وهو القسم الذى يصور احزان هذا الفتى الباريسى وقد فقد جماله فى لذة ما بعدها لذة مصدرها الشجاعة ، وهى قسوة تلازم اللذة أياً كان نوعها . إن جمال دوريان باقى لا يذبل كجمال الرياحين فى شاطئ الكوثر الموعود ، وهو بلغم بازيل هو لورد بايات الفن وهو الذى رقق لدوريان قلوب عارفيه ،

ولقد يطلق فيه شائقوه حجر القول في مجتمعات لندن ونوادبها فما أن يروه حتى يضعفوا أمام شركة جماله ويكذبوا أنفسهم لظنهم أن مثل هذا الجمال الفريد تلوته الآثام . فلقد بدا دوريان دائماً كمن صان نفسه من أكدار الحياة ، وكانت براءة الملائكة تنطق في محياه . وكان الناس يفتابونه اغتياًباً فما أن يدخل عليهم حتى تحرس ألسنتهم ويحسوا بأن طهارة وجهه تؤنبهم تأنيباً شديداً على سوء ظنهم به فكأنما يذكرهم محضره بالجمال الذي دنسوا والجرمة التي اتهموها . ويعجبوا لهذا الشباب النضير كيف نجا من أحوال الحياة في عصرهم عصر الفجور والشقاء .

وكانت له غيبات طويلة لا يعرف أحد عنها شيئاً تحمل أصدقاءه وعارفيه على تفسير اختفائه بأعجب التكهنات . وكان دوريان جرای يصعد بعد عودته من هذه الرحلات العجيبة إلى الغرفة المغلقة ويدخلها حاملاً في يده مرآة ويقف أمام الصورة ناظراً تارة إلى الوجه المغضن الشرير المطل من اللوحة وتارة إلى الوجه الصبوح المعكوس في المرآة ، وكان يجد في ذلك لذة كبرى لأن الاختلاف الكبير بينهما كان يطمئنه على شبابه وجماله ، حتى لقد بدأ يتعشق نفسه ويرتاح إلى تدهوره الروحي . وكان بين وقت وآخر يفحص الخطوط البغيضة التي يرسمها الزمن على الجبين بعناية عظيمة تدل على اغتباطه الشديد بهذا العمل ، ليعرف أيهما أفتك بالصورة ، أثار الزمن أم أثار الشر . وما أكثر ما كان يضع يديه الجمليتين بالقرب من يدي الصورة الشائعتين ويتسم ابتسامة الرضا . وما أكثر ما كان بهزاً بالجسم البشع والأعضاء الضامرة التي يراها على اللوحة .

ولكنه كان في قليل من الأحيان يقضى الليل مؤرقاً تارة في غرفته العاطرة وطوراً في غرفة قذرة بحان صغير سىء السمعة كان يقصد إليه مستخفياً تحت اسم مستعار حيث يفكر فيما أنزله بروحه من دمار وينتحب لمصيره الأليم في ندم صادق لا زيف فيه ، وكيف لا يكون ندمه صادقا وهو

محض أثره فيه . على أن هذه الأوقات كانت نادرة لأن الانغماس في الذات زاد فضوله للمعرفة ، ذلك الفضول الذي كان اللورد هنري أول من ألهبه فيه وكلما زاد اختباره في الحياة زادت رغبته في الاختبار ، وكلما أشبع منهم الحياة اشتد جوعه إليها .

ولكنه رغم ذلك كله كان يبالى برأى المجتمع فيه وقد دأب على أن يقيم في كل موسم حفلات منتظمة في يوم الأربعاء من كل أسبوع . كذلك كان يقيم الحفلات في الشتاء مرة أو مرتين كل شهر . وكان يفتح أبواب بيته الجميل لأبناء البيوتات ويستخدم العازفين ليطربوا ضيوفه . وكلما أقام حفلة عشاء كان اللورد هنري يساعده في اختيار المدعوين وفي ترتيب مكانهم من المائدة وفي انتقاء الأزهار التي تزين مائدته الفاخرة . ولقد كان دوريان جرای عند كثير من الإيفاع النموذج الكامل لما يجب أن يكون عليه فتیان إيتون أو فتیان اكسفورد ، وهو عندهم مزيج من الشاب الذي ثقفته الكتب والشاب الذي ثقفته الحياة ، وقد كان دوريان جرای عندهم أحد أولئك الذين وصفهم دانتى بأنهم يسعون « لتكلمة تقصهم بعبادة الجمال » أو قال فيهم تيوفيل جوتييه « إن العالم المحسوس قد خلق ليشبع حواسهم » .

ومهما يكن من شيء فلا جدال في أن أول فنّ تخصص فيه دوريان جرای هو فن الحياة ، وما كانت بقية الفنون المعروفة في نظره إلا تمهيداً لهذا الفن الجليل . لقد كان تطور الذوق مع الأيام يفتنه حقاً ، لأنه يزين غير المعقول لمقول الناس ، ولو إلى أجل قصير . كذلك كان التناق يفتنه لأنه وجد فيه ما يثبت على وجه ما أن الجمال ليس من تراث الماضي بل من عمل العصر . وقد كان للأزياء التي اصطنعها اصطناعاً أثر مأموس في الإيفاع من رواد المراقص الراقية بحى ما يغير وما شا كل ذلك من المجتمعات المترفة ، لأنهم تأثروا خطاه في كل ما فعل واجتهدوا في أن ينقلوا عنه ابتكاراته الرشيقة التي كان يلهو بها في أوقات فراغه رغم أنه لم ينظر إليها في يوم من الأيام على أنها عمل جدى .

فدوريان جرای كان حريصاً كل الحرص على المسكنة التي خصصها للمجتمع له منذ أن بلغ سن الرشد وأحب أن يلعب في لندن الحديثة الدور الذي لعبه مؤلف ساتيريكون في روما القديمة أيام قيصرية نيرون ، ولكنه رغم ذلك كان يتمنى من صميم قلبه أن يكون شيئاً أسمى من مجرد قائد من قادة الأناقة يحتكم إليه في طرق لبس الجواهر ويستشار في طرق عقد أربطة الرقبة ويحتذى في طرق حمل العصا . كان يحلم بأن يبتكر أسلوباً في الحياة جديداً له فلسفة تبرره وأسس متماسكة تقومه ، أسلوباً في الحياة غايته العليا التصوف عن طريق الحواس .

فلقد وجد دوريان جرای الناس يستسكرون عبادة الحواس ووجد هذا فيهم أمراً طبيعياً فالتاس يفزعون بالغريزة من الشهوات الجارفة والاحساسات التي تضعف أمامها نفوسهم وهم يدركون أنهم يشتركون فيها مع الأحياء الأخرى التي تقل عنهم رقياً والنسجاً . ولكنه رأى أن طبيعة الحواس لم تقم قط على حقيقتها ، وأن الحواس ما بقيت على حالها الحيواني الأول إلا لأن المجتمع أجاعها وأذلها وسامها سوء العذاب ، بدلا من أن يجعل منها سبيلا إلى روحية جديدة قوامها تذوق الجمال بالفطرة ، وكان يرى أن تاريخ الإنسانية لا يبشر بالخير فهو سلسلة من الهزائم التي أضاع الإنسان فيها إنسانيته ليظفر بأشياء لا نفع فيها . فلقد نزل الإنسان عن سعادته برضاه وعذب نفسه برضاه وأنكر ذاته برضاه ، وكان حافزه إلى ذلك كله هو الخوف ، وما جنى من ذلك كله إلا الانحلال التام الذي لا يقاس به ذلك الانحلال المزعوم الذي يسعى الناس جهلا منهم للنجاة منه . فالتبيعة تسخر منه سخرية لاذعة حين تسوق الناسك إلى المفازة الجرداء لياكل مع وحوشها وتؤلف بينه وبين بهائم الحقول .

نعم سيكون لعبادة الجمال بعث قريب كما تنبأ بذلك اللورد هتري ، وحين تبعث عبادة الجمال من جديد سوف تجدد الحياة على الأرض وتنشلها من

التطهر المتلف البشع الذى ينخر فى شجرة الحياة فى عصرنا هذا . وسيخدم العقل هذا المذهب الجديد بغير ريب ولكن فى الحدود التى تصون العاطفة ، واسوف يكون الهدف الأول لعبادة الجمال هذه الاختبار ذاته بحلوه ومره وليس ثمرات الاختبار . أما الزهد الذى يطفىء الحواس والتهتك الرخيص الذى يميته فلن يتسع لها هذا الدين الجديد لأنه سيذكر الناس بأن العمر برهة ويحثهم على اقتناص هذه البرهة .

نحن نصحو قبل انبلاج الفجر فى بعض الاحايين بعد ليلة هادئة تنقطع فيها الاحلام فتشبهنا فى الموت وهدوئه أو بعد ليلة مزعجة تزدهم فيها الأشباح الممسوخة والرغبات المحرمة فتملاً كهوف الخيال وتززم كأنها العواصف الهوجاء ، وتعصف بها كأنها وحى فنان قوطى ، فما الفن القوطى إلا تجسيد هواجس الخيال المحموم . وهذا الاختبار يمر فيه أغلب الناس وقلمنا ينجو منه أحد . نستيقظ قبل الفجر فيخيل إلينا أننا نرى أصابع شاحبة تعبت بالستائر فتهمز الستائر ، وترحف أمامنا الظلال القائمة الماردة الأطوال فى صمت عند أركان الحجرة وتقعع هناك . وفى الخارج تتحرك الطيور بين أوراق الشجر فنسمع حفيفها ، أو يدب الناس ساعين إلى أرزاقهم فنسمع وقع أقدامهم أو تعوى الريح بين التلال وتترل بمضاجعنا الساكنة بخطى خفيفة كأنها تشفق أن توقظ النيام ، ولكن عليها أن تناشد النوم أن يخرج من كهفه الأحمر . وترتفع الحجب الرقيقة الغشاء حجاباً حجاباً وتعود إلى الأجسام ألوانها وأشكالها رويداً رويداً ونرى الفجر يبنى الطبيعة على نسقها القديم . وتمشى الحياة من جديد فى المرايا فتعكس الكائنات . وتلفت حولنا فنجد القنديل المطفأ كما تركناه ليلة أمس وإلى جواره الكتاب الذى لم نقرع بعد من قراءته أو الزهرة التى كانت فى عروتنا ونحن فى المرقص أو الخطاب الذى لم نجد الشجاعة لفضه وتلاوته أو الخطاب الذى قرأناه عشرين مرة . ومن ظلال الليل تخرج حقائق النهار التى نعرفها فنستأنف الحياة حيث

تركناها ويغمرنا إحساس بوجوب الماضي فيما تعودناه من أعمال راتبة مملّة ،
أو نرجو أن نفتح الأجفان ذات صباح فنجد عالماً جديداً يحقق أحلامنا ،
أعدته لنا المقادير في ظلام الليل ، عالماً ألوانه زاهية وأشكاله جديدة وأسراره
غير ما ألفناه من أسرار ، عالماً لا أثر فيه للماضي أو لذكره فواجبات الأمل
والآلام قد طمسها يد النسيان ، حتى أفراح الأمل تشقينا وسعادته تحي
فينا الأحزان .

كان دوريان جرای يرى أن الحياة لا قيمة لها إلا إذا فتحت أمام النفس
هذه الدنيا الجديدة . ولطالما خرج عن طبيعته الحقيقية واستسلم لمثل هذه
الآفكار لا شيء إلا لأنه يبحث عن الإحساسات الجديدة والإحساسات
السارة والإحساسات الشاذة وبعد أن يرضى فضوله العقلي بها تراه ينبذها
في استخفاف غير منتظر . ولم يكن هذا الاستخفاف نتيجة نقص العواطف
بل نتيجة اعتقادها .

لقد أرحف عنه المرجعون ذات مرة أنه أزمع على اعتناق الكاثوليكية
ولم يكن هذا غريباً لأن طقوس الكنيسة الكاثوليكية كانت تلهب خياله .
فالقربان اليومي فيها كان في نظره أشد رهبة من قرابين الوثنية الأولى والقربان
اليومي كان عنده إنكاراً جميلاً لمهية الحواس وقد اهتر فؤاده لفكرته
الفطرية الساذجة وتأثرت نفسه للمأساة البشرية التي يرمز لها ذلك القربان .
وكان يحب السجود على الدرج الرخامي البارد ليرى القسيس وهو يزيح عن
الهيكل الحجاب في أناة بيد شاحبة تكسوه مسوحة الكنيسة السمكية
المزركشة ، أو يرفع وعاء السر المقدس الشبيه بالمصباح المرصع بالأحجار
الكريمة ، وفيه الرقاق الذي يبدو حقاً كأنه زاد الملائكة ، أو يدق صدره ندماً
على خطاياه وهو يحمل كأس الاعتراف في زى من أزياء المسيح . كذلك كانت
المباخر المتقدة التي يحملها صبية المقبرة ذوو الأردية الحمراء الموشاة
ويطوحونها في الهواء بين المصلين تقن خياله . وكان دوريان جرای كلما خرج

من كنيسة كاثوليكية ينظر إلى كرمي الاعتراف الأسود عاجباً ويتمنى أن
يحتجى خلفه لسمع النسوة خلسة يروين تاريخ حياتهن الحقيقي من
وراء القضبان .

ولكنه رغم ميله الشديد إلى هذه المراسم لم يتر تفكيره بقبول مبادئ
الكثلكة أو ينسى أن هذا الخان الروحاني لا يصلح للسكنى وإنما يصلح
لقضاء ليلة أو ساعات معدودات في جو خلت سماؤه من النجوم واكتمل
القمر . فالتصوف تسلط عليه فترة من الزمن لما فيه غرابة ولما فيه من تقص
خفي للأوضاع الخلقية . والمادية الداروينية كما بشر بها الألمان تسلطت عليه
فترة من الزمن لأنها فسرت له الأفكار والعواطف تفسيراً عضوياً وقد سره
فيها أنها تجعل النفس خاضعة لظروف الجسم ما صح منها وما سقم . ولكن
النظريات في الحياة لم تأله عن الحياة ذاتها وأحس بأن التفكير مجهود عقيم
ما لم يقترن بالاختبار العملي ، وأدرك أن الحواس لها ما للنفس من وظيفة
روحية .

ودفعه ذلك في وقت ما إلى دراسة العطور وأمرار صناعتها وأخذ يجري
عليها تجاربه الخاصة فكان يمزج الزيوت وطيوب الشرق النفاذة الرائحة ،
وكان يرى أن كل حالة من حالات العقل لها ما يقابلها في عالم الحواس وأنشأ
يبحث في العلاقة القائمة بين الحس والتفكير وأراد أن يستقصى السر الذي
يجعل البخور يثير التصوف في الإنسان والعنبر يثير فيه الشهوات وأزهار
البنفسج تثير فيه ذكريات الغرام الدفين والمسك يشوش العقل والشنبق
يشوش الخيال ، وأراد أن يضع لفلسفة العطور أساساً علمياً فيصنف تأثير
الأعشاب والأزهار والزيوت والأشجار زكية الرائحة وصفاً تجريبياً صحيحاً .
كذلك دفعه في وقت آخر إلى دراسة الموسيقى ، فكان يدعو أصحابه إلى
حفلات موسيقية لم يألّفها أحد في غرفه مستطيلة سقفها يرتقالي وجدرانها
خضراء كالزيتون نوافذها ذات عوارض ، وهناك كان المدعوون يسمعون

همجي الانعام فكنت ترى الفجر المجانين يعزفون ألحانا هائجة على آلات وترية
 صغيرة وكنت ترى التونسيين في عبااتهم الصفراء يعزفون على عيذان جسيمة
 قبيحة المنظر والزنوج العابسون يقرعون طبولا نحاسية قرعاً راتباً يجلب
 النعاس إلى العيون على حين كان الهنود المعممون يخاف الأجسام يجلسون على
 حصر حمراء وينفخون في مزامير طويلة بعضها من الغاب وبعضها من النحاس
 وكانهم يسحرون بها الثعابين الطوال النحيلة والثعابين القصار الغليظة .
 وكان فؤاده في بعض الأحيان يهتز لهذه الانعام الهمجية ولا يتحرك
 لعذوبة شوريت أو جمال شويان الحزين أو قوة بيتهوثن الدافقة وألف مجموعة
 وافية من الآلات الموسيقية العجيبة جاءت من كل بقعة من بقاع العالم ،
 بعضها من مخلفات الحضارات البائدة وبعضها من بلاد المتوحشين الذين أبوا
 أن يحتكوا بالرجل الأبيض ويجربوا مدنيته . وكان في مجموعته آلة جوربار
 العجيبة التي يستعملها آل ريو المولدون من هنود وزنوج ، تلك الآلة التي
 حرمت على النساء رؤيتها وفرض الصوم وضرب السياف على كل فتى يريد أن
 يراها كذلك جاءت من بيرو آنية من الصلصال لها صوت حاد كصوت العصافير
 كما جاءت نبات صنعت من عظم البشر كتلك التي سمع الفونسو دي أوقالي نداءها
 في بيرو ، وأحجار اليشم الخضراء الحلوة الصوت التي توجد بالقرب من
 كوزكو . وكانت لديه جوزات مطلية بالألوان بداخلها حصى يخشخش حين تهز
 وآلة مكسيكية طويلة تعرف بالكارين لا ينفخ العازف فيها بل يمتص الهواء ،
 وأخرى خشنة من عند قبائل الأمازون تعرف بالتورا ينفخ فيها الديدبان
 الجالس طيلة النهار في قمة الشجرة فيقطع نداؤها ثلاثة فراسخ كما يزعم القوم ،
 وثالثة هي التبونازلي لها لسانان من الخشب يترددان تردد الأوتار يضربها
 العازف بعضى يغطي أطرافها المطاط وهو عصارة الشجر المتجمدة ، ورابعة
 هي أجراس مجتمعة في هيئة عنقود واسمها اليوتل تستخدمها قبائل
 الأزتيك ، ثم خامسة هي طبل عظيم الحجم أسطوانى الشكل تكسوه جلود

الثعابين كالطبل الذي رآه برنال دياز حين دخل المعبد المكسيكي في صحبة كورتيز ، ووصف لنا دقاته الحزينة أبلغ وصف . لقد كانت غرابة هذه الآلات تفتنه وجعلته يعتقد أن للفن وحوشه ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة كما أن للطبيعة وحوشها ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة ، ولكنه بعد أن جمع من هذه الوحوش ما جمع زهد فيها وعاد إلى مكانه في الأوبرا آنأ وحيداً وأنا برفقة اللورد هنرى يستمع إلى تانهاوز في نشوة تشبه الوجد ويلتمس في مقدمة هذه الأوبرا الخالدة ترجمة صادقة للأساسة التي نزلت بروحه .

وكما درس دوريان جرای العطور والموسيقى درس كذلك الأحجار الكريمة . وقد ظهر مرة في حفلة تنكرية في زى آن جوايز أميرالة فرنسا وكانت ترصع ثوبه مائة وستون درة ، وقد تحكمت فيه هذه الهوية سنوات طويلة بل لازمته بقية حياته . وكان في بعض الأحيان يقضى اليوم بأكمله في تصنيف ما جمع من حلى كل في غلبته . وكان لديه منها أنواع نادرة كالزبرجد الأخضر الذي يستحيل أحمر في نور المصباح والزبرجد الأحمر الذي يضرب فيه خط من الفضة كأنه سلك ممدود ، والزبرجد الأصفر الذي يميل إلى لون الفستق والياقوت الوردى والياقوت الأصفر والياقوت الأحمر الدموى الذي يخلج نوره في هيئة نجمة رباعية والاماتوس المشتعل كاللهب ، والاماتوس البنفسجى والاماتوس البرتقالى المطعم بالياقوت الأحمر والياقوت الأزرق . وكان شديد الكلف بحجر الشمس وضيائه الذهبى وبحجر القمر وضيائه اللؤلؤى وبعين الهر اللبنى الذى تتجمع فيه ألوان الطيف وتتكسر . وقد اشترى من امستردام ثلاث زمردات جسيمة الحجم لونها يسحر الناظرين ، وكان في مجموعته فيروزة من « الصخرة القديمة » يحسده عليها هواة الأحجار الكريمة .

وقد وقع أثناء اشتغاله بجمع الأحجار الكريمة على طائفة من القصص التي

تدور حول الجواهر . فقرأ في كتاب « تعاليم الكهنة » لآلفونسو عن
 ثعبان له عين من الياقوت الأصفر الحقيقي وعرف عن السكندر فاتح اماني
 ذي التاريخ العجيب أنه وجد في وادي الأردن حيات تكسو ظهرها طبقة من
 الزمرد الصافي . وقرأ في فيلوسترات عن تينين في فمه درة إن رأى رداء أحمر
 وحرفاً ذهبية غلبه نوم سحري وأمكن للناس قتله . كذلك عرف من مطالعته
 في أعمال الكيميائي العظيم الذي اشتغل بالسحر بيير دي بونيفاس أن في
 الماس قوة تخفي الإنسان وفي عقيق الهند قوة تزيد من فصاحته ، أما عقيق
 كورنيليا فيزيل الغضب والياقوت الزعفراني يجلب النعاس والاماتوس يوقف
 المخمور من نشوة الخمر والعقيق الروماني يطرد الشياطين وجوهره الماء لطفى
 لجين القمر والباذر المستخرج من قلب الفلي العربي ترياق للسم ودواء
 للطواغيت وجوهره الطير التي تضعها طيور العرب الأصلية في أعشاشها وقاء
 لحامها من النيران كما روى ديموقريط الحكيم .

ودرس الأساطير التي تتواتر عن الأحجار الكريمة وفعلها العجيب ،
 فقرأ أن ملك سيلاطاف في موكب حافل يوم تتويجه بأرجاء مدينته حاملاً في
 يده ياقوتة حمراء ، وأن أبواب قصر يوحنا الراهب « مصنوعة من حجر السرد
 وقد نحت فيها قرن الثعبان ذي القرن المسموم حتى لا يدخل القصر رجل
 يحمل السم . » وفوق سطح القصر « تفاحتان من ذهب وفي التفاحتين
 ياقوتتان بلون الخمر » فالذهب يضيء نهاراً والياقوت يضيء ليلاً . وفي رواية
 لودج الغريبة « مرغريت الأمريكية » قرأت أن في غرفة الملكة « تماثيل من
 فضة للملكات العفان في التاريخ يتاملن وجوههن في مرايا من الياقوت الأحمر
 والياقوت الجري والياقوت الأزرق والزمرد الأخضر . » كذلك عرف عن
 ماركو پولو أنه رأى سكان زيبانجو يحشون أفواه موتاهم بدرّ ودرى اللون ،
 وقرأ عن وحش من وحوش البحر تعشق درة استخرجها غواص من بطن
 الماء وأعطاهها للملك بيروز ففتك الوحش بالغواص الغاصب وبات في حداد على

معشوقته حتى غاب القمر السابع . وفي رواية بروكوبيوس أن الملك يروز قذف بالدرة حين استدرجه أمراء الهون إلى الهوة الكبرى فضاعت الدرة ولم يعثر عليها أحد رغم أن الإمبراطور انتسب وعد من يجدها بمخمسائة سبيكة من الذهب . كذلك قرأ عن ملك ملبار أنه كشف لتاجر من تجار البندقية عن مجموعة من اللائى تبلغ الثلاثمائة والأربع عدداً ، كل لؤلؤة منها تمثل معبوداً من معبوداته .

وفي رواية براتوم أنه لما زار الدوق ثالثينيو ولد اسكندر السادس ملك فرنسا لويس الثانى عشر كان جواده محملاً بأوراق الذهب وكان فى قبعته يومئذ صفان من الياقوت يسطع منهما بريق هائل . كذلك روى عن شارل الأول ملك انجلترا أنه كان يملك جواداً تدلت من مهمازه واحدة وعشرون وأربعمئة قطعة من الماس وروى عن ريتشارد الثانى أنه كان يملك سترة قدر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت . وفى كتابات هول أن هنرى الثامن ذهب قبل تنويجه إلى برج لندن « عليه سترة من صفاغ الذهب صدرها محلى بالماس وغيره من الأحجار الكريمة وحول عنقه ببنيقة عالية مزينة بضخم اليواقيت . » وكانت خلية جيمس الأول تلبس قرطاً من الزمرد فى إطار من سلوك الذهب ، وقد أهدى ادوارد الثانى إلى جافستون درعاً من الذهب الأحمر مرصعاً بالياقوت وبنيقة نقش عليها ورود ذهبية مطعمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر . وكان هنرى الثامن يلبس قفازاً يبلغ المرفقين تحليه الجواهر ، ويملك قفازاً آخر عليه اثنتا عشرة ياقوته ؟ واثنان وخمسون لؤلؤة من لآلى المشرق يرتديه كلما أراد حمل صقوره ، أما شارل الجسور ، آخر من تقلد دوقية بورغونيا من أسرته المجيدة ، فقد كانت قبعته التى يرتديها فى المراسم تزدهن بالياقوت الأزرق فيمتدلى منها درر تشبه الكهترى فى هيئتها .

كل هذا حجب إلى دوريان جرای الحياة فى تلك العصور ولقد كان يجد

في قراءة تلك الحقائق والأساطير عن ترف الملوك الغابرين لذة ما بعدها لذة .
لكنه لم يكتف بدراسة العطور والموسيقى والاحجار الكريمة بل
انصرف كذلك لدراسة الأقمشة الموشاة والأقمشة المنقوشة التي يكسو أهل
الشمال بها جدران منازلهم الباردة كما يكسو أهل الجنوب جدران منازلهم
المشرقة بالرسوم الملونة . وخصص دوريان جرای كل وقته كعادته حين
ينصرف إلى هوية ما لجمع بدائع النسيج هذه وأحزنه أن يرى يد الزمن تعبت
بكل شيء جميل . ولكنه وجد بعض العزاء في أن شخصه أفلت من هذا
المصير فيها هو الصيف يتلو الصيف والنسرین يتفتح ثم يذبل حولاً بعد حول
وليالى الفسق تأتي وتروح فليس فيها خزي جديد ولكنه باق على حاله مبق على
جماله . فلا رياح الخريف عصفت بعوده البض ولا ثلوج الشتاء شوهت وجهه
النضير . ولكنه حتى يتمتع بنعمة الحياة ، أما الجماد فيذهب مع الريح . ترى
أين يذهب ؟ أين ذلك الثوب الذى نسجته الفتيات السراوات ليعرضن الربة
أثينا فأخذة الآلهة واستخدموه ليقاتلوه عليه العالقة ؟ أين الخيمة الكبرى التى
ضربها نبيرون فوق السكوليزيوم بروما ، تلك الخيمة الأرجوانية التى رسمت
عليها السماء ذات النجوم الثواقب وفيها أبولو يسرع بعربته ذات الحياذ البضاء ،
بحياده ذات الأعنة المذهبة ؟ أين المناديل العجيبة التى نسجت لسكاهن الشمس
ورسمت عليها أطياب المائدة جميعاً فكان رائحتها فى ولحة زاهرة ؟ أين أكفان
الملك شلبريك التى رسمت عليها ثلثمائة نحلة ذهبية ؟ أين تلك الثياب التى أثارت
غضب أسقف بونت « بسباعها وفهودها ودببتها وكلاهما وغاباتها وصخورها
وصيادها وكل ما يمكن لرسام أن ينقله عن الطبيعة » ؟ أين سترة شارل دوق
أورليان التى نقش على أكامها أغنية مطلعها « لقد غمرنى الفرح يا سيدتى »
ومع الألفاظ علاماتها الموسيقية مكتوبة بسلوك من ذهب رءوسها در ؟ لقد
قرأ دوريان جرای عن تلك الغرفة التى أعادت بقصر رينس خصباً لحنة
ملكة بورغونيا وزينت « بأقمشة مطرزة رسم عليها بالخيوط ألف وثلثمائة

وواحد وعشرون ببغاء تحمل جميعاً شعار الملك منقوشاً بالذهب وخمسمائة وإحدى وستون فراشة تتحلى أجنحتها جميعاً بشعار الملكة منقوشاً بالذهب كذلك . كذلك قرأ عن كاترين دي مدسيس أنها كانت تملك سريراً يعرف بسرير الأحزان صنع من تحمل أسود رسمت عليه أهلة وشموس ، وكانت للفراش أستار من الدمقس موشاة بأكاليل الزهر رسمت على أرض مذهبة وأرض مفضضة والأستار تنتهى بأطراف تتدلى منها اللاكئ ، والسرير قائم فى غرفة جدرانها مكسوة براقع من النسيج مصففة تحمل شعار الملكة مرسوماً على القماش المفضض بالتحمل الأسود المقصوص . وقرأ أن لويس الرابع عشر كانت لديه أعمدة عالية مرسومة على بسط صنعت على هيئة النساء ارتفاعها خمس عشرة قدماً كلها موشاة بالذهب . وقرأ عن سويسكى ملك بولندا أن فراشه الملكى كان مغطى بحرير وذهب من أزمير خطت عليه آيات من القرآن بالقيروز ، أما عمده فكانت قشرتها من فضة عليها نقوش ماهرة ركبت فيها أوسمة لا عد لها مرسعة بالجواهر مطعمة بالخزف ، وقد كان هذا الفراش قبلاً فى معسكر الترك خارج فيينا ترفرف عليه راية المسلمين .

وظل دوريان جرای يسير على هذا النهج عاماً بأكمله يكندس أجمل ما تقع يده عليه من الأقشة المطرزة والأقشة ذات الرسوم فمن موسلين دهلئى البديع المقوف بالخيوط الذهبية المكسو بأجنحة الجعلان البراقة ، إلى غلائل داکا التى بلغ من شفافها أن عرفت بين أهل المشرق بالهواء المنسوج ، وبالماء الصافى وبندى المساء ، إلى أقشة من جاوة عليها رسوم غريبة ، إلى أستار صينية صفراء دقيقة الصنع ، إلى كتب مجلدة بالحرير الأصفر النحاسى اللون أو الحرير الأزرق الجليل مجلاة بالزنبق والطير وما أشبه ذلك من الصور ، إلى أقنعة من الحرير موشاة على طريقة الحجر ، إلى دمشق صقلية وأنواب التحمل الإسباني السميك ، إلى منسوجات جورجيا ذات الأركان المذهبة ، إلى حرائر اليابان الخضراء ذات العصافير البديعة الأجنحة .

كذلك استهواه جمع الأزياء الكنسية وقد كان هذا مظهراً من مظاهر
كفنه بالكنيسة وكل ما يتعلق بها . وفي الصناديق المستطيلة المصنوعة من
خشب الشربين التي اصطففت في شرفة بيته الفريدة ، كدس دوريان جرای
عددًا عظيماً من الثياب الجميلة النادرة التي تلبسها الكنيسة « عروس المسيح » كما
يسمى الكاثوليك ، وهي ثياب فاخرة تحلها الجواهر قصد بها أن تخفي جسده هذه
العروس الشاحب الدابل الذي برته البرحاء وأدمته الآلام ، وما أنزل أحدها هذه
البرحاء ولا تلك الآلام ولكنها سمعت إليها اختياراً . كذلك كان في مجموعته
معطف كبير من الحرير القرمزي والدمقس ذي الخيوط الذهبية نسجت فيه
حلية متكررة على صورة رمان كثير نبتت كل رمانة منه في زهرة سداسية
الأوراق وعلى يمين الرمان وعلى يساره رسمت ثمار الأناناس بالدرر الصغيرة .
وكانت الشرائط الموشاة بالذهب المتدلية من المعطف مقسمة إلى أجزاء عليها
نقوش تصور مناظر من حياة مريم العذراء من بينها تنويع مريم وقد رسم تاجها
بالحرير الملون فوق الإزار الذي يغطي رأسها ، وهو من عمل فنان إيطالي
عاش في القرن الخامس عشر . وكان في مجموعته معطف آخر من المخمل الأخضر
موشى بباقات من أوراق الأكانثا الشوكية رسمت على هيئة قلوب ، ومن هذه
الأوراق خرجت أزهار بيضاء طويلة السيقان رسم تصميمها الداخلي بالخيوم
الفضية والبلورات الملونة ، وعلى الأبريم رأس ملاك منسوجة بخيوط ذهبية
بارزة ، أما الشرائط فكانت منسوجة من الحرير الأحمر والحرير الذهبي
ومرصعة بالأياقین التي تصور الشهداء والقديسين ، ومن بينهم القديس
سباستيان . كذلك كانت في حوزته حلة كنسية من حرير لونه عنبر وحرير
لونه أزرق وحرير لونه ذهبي ، ودمقس لونه أصفر ، ونسيج من ذهب ، وعلى
الحلة الكنسية صور تمثل آلام المسيح وصلبه ثم صور تمثل السباع
والطاووس وغيرها من الرموز . وكانت لديه عباءات كنسية من الحرير
الأبيض والدمقس الوردي محلاة بأزهار التوليب وأزهار الزنبق وحور الماء ،

وكان لديه عدد من كسّ الهيكل المصنوعة من الخمل والكتان الأزرق ، وعدد من أغطية القربان وأقنعة الكأس المقدسة والمناديل التي تحمل صورة المسيح . وكان يجمع هذه الأشياء لأنها ترمز لطقوس دينية تذكى فيه الخيال .

وكان يتخذ من هذه النفائس التي جمعها في بيته أجمل وسيلة لتسيان مخازيه والحرب ولو إلى حين من مخاوفه القاتلة . وفي داخل الغرفة الموحشة الموصدة التي قضى فيها الشطر الأكبر من صباه كانت الصورة الرهيبة تستند إلى أحد الجدران حيث وضعها هنالك بنفسه وأسدل عليها الستار الملون بأرجوان وذهب ، ومعالمها المحجوبة تتغير يوماً بعد يوم وتسجل التدهور الذي يتزل بحياته . وكان يحجم الأسابيع الطويلة عن دخول الغرفة ، بل ينسى الصورة الممسوخة وينسى معها العذاب الذي يفتك بروحه ويسترد مرحة الأول وشوقه إلى الحياة . ثم يخرج من داره فجأة ذات مساء ويقصد إلى وكر من تلك الأوكار الموبوءة وهناك يقضى أياماً متصلة حتى يقصيه أهلها فيعود إلى داره ويجلس قبالة الصورة حزناً كاسف البال يمتلئ قلبه بالملق للصورة ولنفسه معاً أو يجلس قبالتها مغتبطاً بخطاياها الفريدة لأنها فريدة ، راضياً بالمسخ الذي يحق بخياله الشائه لأن المقادير كتبت عليه أن يحمل أوزار حياته النجسة .

وبعد أن مرت أعوام شق عليه أن يطيل من أسفاره إلى الخارج فتزل عن الثيلا التي كان قد كراها ببلدة توثيل مع اللورد هنري كما نزل عن البيت العربي الأبيض الذي كان قد كراه كذلك بمدينة الجزائر مع اللورد هنري وقضى فيه الشتاء بعد الشتاء . شق عليه أن ينفصل عن الصورة طويلاً لأن الصورة صارت جزءاً متمماً لحياته ، واستبد به الخوف من أن يقتحم الغرفة أحد أثناء غيبته رغم أنه أحكم إيصادها بالقضبان . وكان يعلم أن سره الرهيب لن يطلع عليه إنسان لأن ملاحظه قد أوشكت

أن تنطمس من الصورة ولم يبق منه فيها إلا شبه ضئيل لا يزال ملحوظاً تحت الوجه القبيح الممسوخ . ولكن هذا لن يدل أحداً على شيء مما جرى ، ولن يعيره أحد بأنه صاحب الوجه القبيح الممسوخ فما هو بالذي رسم الصورة ، ولا جناح عليه أن يكون الوجه قبيحاً وممسوخاً ، بل أن يكون الوجه آية في القبح والمسوخ . ولو أنه صرح الناس بالحقيقة لكذبوه .

ومع ذلك فقد كان فزعاً واجفاً . تراه في بيته الكبير بمقاطعة نوتنجهام يؤنس أضيافه من الشباب الوجهاء ويعرض عليهم ما يذهلهم ويذهل جميع الناس من ألوان البذخ ومظاهر السخاء ، وفيما هو كذلك تراه يترك أضيافه خفاً ويعود إلى لندن على استعجال ليتحقق من أن باب الغرفة ما زال سليماً والصورة ما زالت في موضعها . وكان العرق البارد يتصبب من جسده كلما تصور أن الصورة قد سرفت ، فقد كان يخشى أن يطلع الناس على سره الرهيب بل لقد كان يحس أحياناً أن الناس قد بدأوا يشكون في حقيقة أمره .

لقد كان معجبه كثيرين ولكنه نجح كذلك في إثارة الريب في قلوب البعض . وهو يذكر كيف أنه أراد ذات مرة أن يلتحق بناد من نوادي لندن يؤهله نسبه الكريم ومكانته في المجتمع للعضوية فيه فأوشك طلبه أن يرفض . وقد قيل عنه إن صديقاً له استصعبه مرة إلى نادي تشرشل فما أن دخل قاعة التدخين حتى نهض الدوق بيرويك وسيد آخر في استياء واضح وانصرفا . وحين تجاوز الخامسة والعشرين من عمره كثرت عنه الأقاويل الغريبة . قيل عنه إنه رؤى في شجار مع بعض الملاحين من الأجانب في بؤرة قدرة بمجاهل حتى هويت تشابل الوضع ، وقيل عنه أنه كان متصلاً بعصابة من اللصوص ومزيف النقود وأنه درس عليهم فنون اللصوصية والترزيف . وكان في كل مرة يخفى لا يعلم أحد مقره أو علة غيابه فتكثر الشائعات على ألسنة الناس وما أن يظهر في المجتمع من جديد حتى يتهاشم عنه الناس في أركان الغرفات أو يتجاهلونه في احتقار أو يلقون عليه نظرات باردة فاحصة لعلهم ينفذوا إلى سره الخبيء .

ولكنه كان ثابت الجأش لا يعبأ بشيء من هذه الإهانات وكان أكثر الناس يعتقدون أن حاسديه ينفسون عليه مرحة الدائم الذي لم تعكره الأحزان يوماً وابتسامته الساحرة الساذجة وشبابه الناضر الذي تحدى الزمن فيطلقون عنه هذه التهم النكراء التي ترددها الألسنة . ولكن الناس كانوا يلحظون أن بعض أخصائه يجافونه من وقت إلى آخر وأن بعض النسوة اللاتي عشقنه عشقاً لا مزيد عليه وكسرن من أجله أقدم التقاليد وتعرضن في هواه لأخش أنواع النقد كن يشحن لوناً من فرط الحزى أو من فرط الرعب كلما حل دوريان جرای .

غير أن هذه الفضائح زادت فتنة في نظر الكثيرين وأحاطته بحج من الرهبة والغموض . وقد صانت له ثروته الطائلة مكانته الاجتماعية . لأن المجتمع ، المتحضر على الأقل ، لا يبادر إلى قبول الأقاويل التي من شأنها أن تحطم من اجتماع لهم الفتنة والجاه ، وهو يرى بغريزته أن السلوك الاجتماعي أهم شأنًا من الأخلاق ، فخير للمرء ألف مرة أن يكون له طاه ماهر من أن يكون له وقار المحافظين ، فلو قدم لك رجل عشاء مؤلفاً أو نبذاً تافهاً فكيف يعزبك أن تعرف أن حياة مضيفك الخاصة نقية لا غبار عليها ؟ لقد قال اللورد هنري مرة إن أسمى ما في العالم من فضائل لن تعوض على الإنسان خسارته إن هو أكل لحمًا لم يتم تسخينه ، ولعل في قوله شيئاً كثيراً من الصواب . فقاييس المجتمع السليم هي مقاييس الفن السليم ، فإن لم تكن وجب أن تكون كذلك ، لأن الشكليات جوهرية في كل مجتمع راق ، والواجب يقضى بأن تنال منا ما تستحقه من حفاوة واحتفال وأن نسرف فيها حتى تتباعد بنا عن الواقع ، والواجب يقضى بأن يجتمع فيها كل ما في التمثيليات الغرامية من نفاق وكل ما في هذه التمثيليات من سحر وذكاء يجلبانها إلى قلوبنا . فما النفاق برذيلة ، وما النفاق إلا وسيلة تتمعد بها شخصياتنا .

نهما يكن من شيء فقد كانت هذه فلسفة دوريان جرای . وكثيراً

ما كان يعجب لتفاهة القائلين بأن الأنا شيء بسيط ثابت جوهرى يصح
الاعتداد عليه ، لأنه كان يرى أن الإنسان مخلوق مركب متعدد الشخصيات
لا حصر لإحساساته تراكم في نفسه تراث من الأفكار والعواطف على تراث
من الأفكار والعواطف ودنست جسده أسقام الموتى وهى محزنة بشعة .
وكان يشترك كثيراً إلى استعراض صور أسلافه فى القاعة الموحشة الباردة
ببيته الربى ويتفحص وجوه أولئك الذين جرت فى عروقه دماؤهم . فهذا
فيليب هربرت الذى وصفه فرنسيس أوزبورن فى مؤلفه « مذكرات عن
عهدى الملكة اليزابيث والملك جيمس » بأنه « كان صفي رجال البلاط لحسن
طلعته وجماله الذى ذوى قبل الأوان » . لقد كان يخيّل لدوريان جرای أحياناً
أن حياته ما هى إلا صورة من حياة هربرت الشاب ، وأن سم الرذيلة انتقل
هكذا من جسد إلى جسد عبر القرون حتى مشى فى عروقه . أترى
صلاته العجيبة إلى الآلهة أن تبقى له على شبابه وتفعل ما بدا لها بالصورة ،
صلاة المخبول كما وصفها بازيل هولوردد ، أترى تلك الصلاة التى غيرت مجرى
حياته تماماً نبئت دون وعى منه من حسرة الغامضة على أطلال هذا الجمال
القديم ؟ ثم هذا السير أنتونى شيرارد يقف أمامه مرتدياً صدره الأحمر
الموشى بالذهب وسترته المرصعة بكرّيم الجواهر مذهب الكمين حول المعصمين
وقد ارتاح درعه الأسود المفضض عند قدميه . ترى ماذا ورث عن هذا
الرجل ؟ لقد كان السير أنتونى شيرارد خليل جيوفانا غانية نابولى : أفترأه
أورثه الميل إلى الفجور ؟ أليس جائزاً أن مغامرات دوريان جرای إن هى إلا
الأحلام التى لم يحسرها الميت على تحقيقها ؟ ثم هذه اليبدى اليزابيث ديثيرو
تطل عليه من اللوحة الباهتة فى إشراق وقد كست رأسها بغلالة شفافة
وزينت وسطها باللاسى وجرت فى كمها عروق خضراء . إنها تحمل يمينها
زهرة وتمسك بيسراها إناء مطعماً بالخزف فيه ورود حريرية بيضاء
وبجوارها مائدة وعلى المائدة تفاحة وماندولين وعلى حذائهما الدقيقين وردتان

كبيرتان خضراوان من نسيج . لقد كان يعرف قصة حياتها والأقاويل التى تروى عن عشاقها الكثيرين . أتراه ورث عنها طبعها ؟ إن عينيها البيضاوين عليهما جفنان ثقيلان وهما ينظران إليه نظرة لا يفهم لها معنى . ثم هذا جورج ويلوبى يلبس شعره المستعار المغطى بالمسحوق وثيابه العجيبة الألوان . لقد كان منظره جهنمياً ، فوجهه قائم عابس حزين وشفتاه الشهوانيتان قد ارتسم عليهما احتقار الناس ، وعلى يديه الصفراوين سقط سواران من حرير دقيق الصنع فأوشكا أن يخفيا الخواتم الكثيرة التى تزين أصابعه . لقد كان أميراً من أمراء الاناقة فى القرن الثامن عشر وكان فى شبابه من أصفياء اللورد فيرارز . وغير هؤلاء جميعاً كان هناك اللورد بيكنهام صديق جورج الرابع أيام أن كان وصياً على عرش إنجلترا ونديعه أيام دعارته وأحد شهود زواجه بمسز فترهربرت . لقد بدا آية فى الملاحة بشعره الكستنائى المجمد ووقفته التى تنبئ بالصلف . ترى ماذا ورث عنه ؟ لقد ساءت سمعة اللورد بيكنهام فى كل مكان ، وكان يتراأس الحفلات البوهيمية الحمراء فى كارلتون هاوس ، ومع ذلك فقد رصعت صدره نجمة وسام ربطة الساق ، وهو الوسام الأول فى المملكة ، كأنه بطل قومى . وهماهى صورة زوجته قائمة إلى جوار صورته ، وهى امرأة صفراء الوجه رقيقة الشفتين متشحة بالسواد . إن دمها يجرى كذلك فى عروق دوريان جراى ، فيا للعجب لهذا الخليط ! ثم هاهى أمه تطل عليه من لوحها بوجه يشبه وجه اللىدى هاملتون محبوبه نلسون وكان شفتيها مبللتان بالنبيد . إن دوريان جراى يعرف ما أخذه عن هذه المرأة . لقد أخذ عنها جماله وعشقه لجمال الآخرين . وهماهى تنظر إليه فى إشراق وهى فى ثوبها المحلول الذى يشبه أثواب العذارى السكارى فى أساطير اليونان ، وعلى شعرها انتشرت أوراق العنب ، وفى يدها كأس سال منه النبيد الأرجوانى . لقد ذبلت أزهار القرنفل التى زين بها الرسام صورتها ولكن بريق عينيها لا يزال قوياً وصفاء عينيها لا يزال عميقاً . نعم ، إن عينيها تتبععانه أينما توجه .

لكن دوريان جرای لم يكن له أسلاف في الدم فحسب بل كان له أسلاف في الأدب كذلك أسلاف لعلمهم أوثق به رباطاً من أصلابه وأقرب إليه منهم في الطبع والشخصية ، وهؤلاء تأثيرهم واضح في النفس لا خفاء فيه . بل لقد كان يتوهم أحياناً أن تاريخ الإنسانية ليس إلا ترجمة خيالاته هو ، لحياته الواقعة بأحداثها وظروفها ولكن حياته كما رسمها له خياله وصورتها له عواطفه . وكان يحس بأنه يعرف الأبطال الذين زينوا الرذيلة لعيون الناس وتفننوا في الشر ، يعرفهم واحداً واحداً ، وبدا له أن حياتهم لم تكن إلا نسخاً متكررة من حياته .

فيبطل القصة العجيبة الذي كان له سلطان عظيم على نفسه كان يشاركه هذا الاحساس بأن الدنيا قد اجتمعت فيه . وهو يقول في الفصل السابع إنه جلس جلسة الامبراطور تايبوريوس في حديقة بحيرة كبرى تغطي رأسه أوراق الغار لتمتع عنه الصواعق مطالعاً كتاب اليفانتيس المخزى على حين كانت الأقزام والطواويس تحتال من حوله ، ويرقص أمامه عازف الناي كما يرقص حامل المبخرة . وهو يقول إنه ثمل وعربد مع ساسة الخيل ذوى القمصان الخضراء في مزادهم ثم أكل في صحفة عاجية مع جواد على صدره كسوة رصعها الجواهر ، كما فعل القنصل كاليبجولا وهو يقول إنه جال كما جال دوميتيانوس صاحب الوجه في دهليز على جانبيه مرايا من رخام ، باحثاً في صفحاتها عن خيال الخنجر الذي اعتزم أن يقضى به على نفسه وقد أتلف روحه الملل ، ذلك الداء الذي يصيب من حبتهم الحياة بكل شيء ولم تبخل عليهم بشيء . وهو يقول إنه نظر إلى حوانيت القصابين في سوق المدينة خلال زمردة شفافة صافية ثم وجد نفسه محمولا في عربة من أرجوان ودر تجرها بغال فضية الحدى والعربة تجري في شارع الرمان قاصدة إلى قصر الذهب وسمع الناس بطول الطريق ينادون : يا نيرون ، يا نيرون ! كذلك يقول إنه صمغ وجهه بالألوان كما فعل الاجبال وجلس بين النساء يغزل كما يغزلن وآتى بالقمر من قرطاجنة وزوجه بالشمس زواج الروح بالروح .

كم قرأ دوريان جرای هذا الفصل وما بعده من فصول ! لقد قرأ في الفصل الثامن والفصل التاسع وصفاً عجيباً ساحراً لأولئك الأشقياء الذين هاموا بالرديلة وكلفوا بالدماء وضاقوا بالضجر فاستحالوا وحوشاً ضارية أو ضاع صوابهم فدخلوا في زمرة المجانين . قرأ عن فيليپو ، دوق ميلان الذى ذبح زوجته وبلل بالسم شفتيها لعل عشيقها يلعبه فيموت . قرأ عن پيترو باربي عاهل البندقية الذى عرف باسم بولس الثانى ، وكيف دفعه الغرور إلى أن يلقب نفسه ببولس الجميل ، وكيف باع تاجه بشهوة أئيمة نكراء وهو يقدر بمائتى ألف فلورين . كذلك قرأ عن جان ماريًا فسكونتى الذى كان يستخدم كلاب الصيد لتطارده الآدميين وكيف وجدت جثته بعد قتله مغطاة بأزهار ثرتها عليه بغى كانت متيمة بحبه . وقرأ عن بورچيا قاتل أخيه وعن جواده الأبيض وعن معطفه الملطخ بدم پيروتو . وقرأ عن پيترو رياريو كاردينال فلورنسا الصغير وولد البابا سيكستوس الرابع المفضل لديه ، وهو الذى أذهل الناس جماله وجوره معا ، وهو الذى استقبل ليونورا ملكة أراجون فى خيمة من الحرير الأبيض والحرير القرمزى ملائى بالخور ووحوش الأساطير وطلا صيباً من الصبيان يقوم بخدمته فى هذه الوليمة بماء الذهب لعله يبدو كهيلاس أو كغانيميد ساقى الآلهة . وقرأ عن الطاغية عزلين الذى أصيب بداء السكابة ولم يفرج عنه إلا مرأى القتل وطعم الدماء حتى لقد قيل عنه إنه ولد شيطان من الشياطين راهن أباه على روحه وغشه فى اللعب . وقرأ عن جان باتستا تشيبو الذى لقب نفسه بتشيبو البرىء وهو الذى حقنه طبيب يهودى بدم ثلاثة من الصبية . وقرأ عن سيجيسموندو مالاستا عاشق إيزوتا وسيدر ميني وهو الذى أحرقت فى روما صورته ولقبه الناس بعدو الله والناس لأنه خنق پوليسينا بمنديل كبير ووضع السم لچيزفا دىستى فى كأس من الزمرد وبنى كنيسة وثنية ليتعبد فيها المسيحيون تخليداً لجريمة من جرائمه المخزية . وقرأ عن شارل السادس الذى عشق زوجة أخيه

عشقا قويا مدمرا حتى لقد تنبأ له رجل أبرص بالجنون فلما أن ذهب عقله لم يكن يهدى من هياجه إلا رأى رقاع غريبة رسمت عليها صور ترمز للحب والموت والجنون . وكذلك قرأ عن جريفونيتو باليونى ذى الشعر المجعد والقبعة المرسعة باللاكى والسترة المحبوكة وهو الذى فتك بأستورى ولعروسه وبسيمونيتو وخادمه فلما أن حضرته الوفاة بقصر بيروجيا الأصفر بكاه أعداؤه لفرط جماله وباركته اتالاتنا بعد أن صبت عليه اللعنات .

كل هؤلاء قرأ دوريان جرای عنهم فسحرتهم فظاعتم وكان يراهم فى اليقظة والنام . حقا لقد رأى عصر النهضة الأوربية من فنون السم عجبا . عرف الخوذة المسمومة والمشعل المسموم والقفاز المسموم والمروحة المسمومة والمسبحة المسمومة والمعطرة المسمومة .

أما دوريان جرای فقد فتك بروحه كتاب مسموم ، فلقد كان يجد فى الشر أحيانا ما يحقق فكرته عن الجمال .

الفصل الثاني عشر

*

في ليلة التاسع من نوفمبر وهو اليوم السابق لعيد ميلاده الثامن والثلاثين حدثت أحداث جسام جعلت دوريان جرائ يذكر ذلك اليوم طويلاً .

خرج دوريان جرائ حول الساعة الحادية عشر من بيت اللورد هنري . بعد أن تناول معه العشاء وسار قاصداً بيته . وكان يلبس الفراء السميك ليتقي بها شر تلك الليلة الباردة التي انتشر فيها الضباب وفي منعطف ميدان جروفتور وساوث أودلي ستريت خرج من الضباب رجل يسرع في المسير وقد رفع ياقة سترته الرمادية وكان يحمل في يده حقيبة . ومر هذا الرجل بدوريان جرائ فإذا به بازيل هولوردد . واعتري دوريان فزع غريب لم يفهم له سبباً ، فتجاهله واستأنف المسير نحو بيته على استعجال ، ولكن بازيل هولوردد تبينه فتوقف عن المسير أولاً ثم استدار وأسرع ليلحق به وقد كان ، وبعد لحظات قليلة كان الرسام قابضاً على ذراعه يقول :

— ما أعجب هذه الصدفة يادوريان لقد انتظارك في مكتبتك منذ الساعة التاسعة ، فلما طالت غيببتك أشفقت على خادمك الذي أمهكه السهر فطلبت إليه أن يأوى إلى فراشه ثم انصرفت . إني ذاهب إلى باريس بقطار منتصف الليل ولقد كان يهمني أن أراك قبل رحيلي . فلما أن لمحتك في الضباب عرفتك أو على الأصح خيل إلى أن هذا الفراء فراؤك . ألم تعرفني يادوريان ؟

— وكيف أعرفك في هذا الضباب يا عزيزي بازيل ! إني لا أستطيع أن أتبين ميدان جروفتور نفسه فكيف تنتظر ذلك مني ؟ بل إني أحس بأن بيتي في هذه المنطقة ولسكني لا أعرف مكانه على التعيين . يؤسفني أن أسمع

برحيمك يا بازيل فلقـد مضى زمن طويل لم نلتق فيه ، ولعلك لن تغيب طويلاً .

— بلى . سوف أقيم في الخارج ستة أشهر ، وقد صبح عزمي على استئجار استوديو بباريس أعتزل العالم فيه حتى أفرغ من رسم صورة عظيمة تصميمها يملأ رأسي . ولكن دعنا من هذا الآن فما جئتك لأتحدث عن نفسي . ها قد وصلنا إلى بابك فهلا أذنت لي بالدخول حتى أفضي إليك بحديث هام ؟
قال دوريان جرای في تكاسل وهو يصمد الدرج ويدير المفتاح في ثقب الباب :

— يسرني أن أدعوك يا بازيل ، ولكن ألا يعطلك هذا عن قطارك ؟
فنظر هولورود إلى ساعته على نور المصباح الذي خنقه الضباب ثم قال :
— لا تزال أمامي فسحة من الوقت ، فالقطار لا يغادر المحطة إلا في الثانية عشرة والرابع والساعة الآن لا تزال الحادية عشرة . والواقع أنني حين لقيتك كنت في طريقى إلى النادي لأبحث عنك ، ومن هذا ترى أنني أن أحتاج إلى وقت لجمع أمتعتي فقد سبقتنى القطع الثقيلة منها إلى المحطة ، وكل ما سأحمله هو هذه الحقيبة ومحطة فكتوريا لن تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة .
فابتسم له دوريان وقال :

— ما أعجب منظرك في هذه السترة العريضة الياقة وبهذه الحقيبة المنتفخة ! هيا ادخل وإلا دخل قبلك الضباب . ولكنني أنهارك عن الكلام في أى شيء ذى بال ، فنحن نعيش في عصر خلا من كل شيء ذى بال ، أو على الأقل يجب أن يخلو .

تبع هولورود دوريان إلى المكتبة وهز رأسه حين سمع هذا الكلام . وكانت النار تتقد بشدة في المدفئة المكشوفة . والمصابيح تشتعل وفي الغرفة مائدة صغيرة عليها صندوق مفتوح من الفضة الهولندية اصطفت فيه زجاجات الشراب وبحوارها بعض زجاجات الصودا وأكواب زجاجية ضخمة .

قال هولوردد مشيراً إلى الحُر :

— من هذا ترى يا دوريان أن خادمك قد جعلنى أحس بأنى فى بيتى ،
وأعطانى كل ماطلبته بما فى ذلك سجائر المذهبة ، فهو رجل كريم وهو
يفضل خادمك الأول الفرنسى ألف مرة . وبهذه المناسبة قل لى : ماذا حدث
لخادمك الفرنسى ؟

فهز دوريان كتفيه قائلاً :

— أعتقد أنه تزوج بوصيفة اليدى رادلى وفتح لها محلاً بباريس لتفصيل
الملابس على الأزياء الإنجليزية ، وقد بلغنى أن التطور الأخير فى الذوق
الفرنسى هو الجنون بكل ما هو انجليزى . أليس هذا غباوة من الفرنسيين ؟
ولكنى فكنتور كان خادماً مرضياً على عكس ما تظن . صحيح أنى كنت أنقر
منه شخصياً ولكنه لم يدع لى مجالاً للشكوى حين كان فى خدمتى . وكم
شككت فيه ولكن شكوكى كانت على غير أساس فقد كان فى الواقع شديد
الإخلاص لى وبدا عليه التأثير العميق حين ترك خدمتى . أترغب فى كأس
آخر من الكويناك مع الصودا يا بازيل أم تفضل نبيذ الرين مع الغازوزة ؟
إن نبيذ الرين مع الغازوزة هو شرابى المفضل ولا بد أن لدى منه بقية فى
الغرفة المجاورة .

أجاب الرسام وهو يخلع عنه قبعته ومعطفه ويلقيهما فوق الحقيبة التى
وضعها فى ركن الغرفة :

— أشكرك ، وكفانى ماشرى . والآن فانى أرغب فى أن أحدثك حديثاً
جدياً يا دوريان وأرجوك ألا تعبس هذا العبوس فهو لا يشجعنى على المضى
فى الحديث .

فقال دوريان فى جفافه المعهود وهو يرتجى على الأريكة :

— عم تريد أن تحدثنى ؟ أرجو ألا تحدثنى عن نفسى فأنا برم بنفسى
هذه الليلة ، وأود أن أكون شخصاً آخر .

فأجاب الرسام بصوت حاد عميق :

— بل أريد أن أحدثك عن نفسك يا دوريان ، ولا بد لي من الإفضاء إليك بهذا الحديث ولن أقتطع من وقتك أكثر من نصف ساعة .
تهدد دوريان ثم أشعل سيجارة وقال :
— نصف ساعة بأكملها !

— أنا لم أطلب منك شيئاً مذ كوراً يا دوريان ثم إنني أتوخى مصلحتك بهذا الكلام . فاعتقد أن من الصائب أن تعرف أن الناس في لندن يتناقلون عنك أشنع الأقاويل .

— لست أحب أن أعرف شيئاً عما يقال في . فأنا أحب الفضاء إذا رويت عن الآخرين أما الفضاء التي تروى عني فلا يهمني أمرها ، لأنها لا تأتي بجديد وهي كذلك خالية من الطلاوة .

— ولكن الواجب يقضى عليك بأن تهتم لها فأنت جنتلمان والانتلمان تهمة سمعته . انت بالطبع لا تحب أن يبسط الناس ألسنتهم فيك ويصوروك في صورة المجرم الآثم . لست أشك في أن مكاتك عالية وثروتك ضخمة ، ولكن المكانة والثروة لا تغنيان عن المرء شيئاً إن هو ساءت سمعته . وأناؤكد لك أنني لأصدق من وشايتهم شيئاً أو على الأقل أراهم أرفض تصديقتها كلما رأيته ، فالرذيلة تطبع على وجوه الناس أثراً لا يمحي ولا يخفى ووجهك مثال الطهر والنقاء . أسمع الناس يتحدثون أحياناً عن الرذائل المستورة وفي رأيي أن الرذيلة المستورة شيء لا وجود له فإذا ما ابتلى أحد برذيلة رأيت آثارها واضحة في خطوط فمه وفي تهديل جفنيه بل وفي هيئة يديه كذلك . لقد جاءني في العام الماضي رجل من معارفك لي أذكر لك اسمي يطلب إلى أن أرسم صورته ولم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل ولكنني عرفت عنه الكثير بعد ذلك . وقد عرض عليّ أجراً سخياً مسرفاً في السخاء ولكنني رفضت لأنني شاهدت في هيئة أصابعه ما كرهت ، وقد تحقق لي الآن إنني

كنت على صواب في ظنوني وعامت أن حياته دنسة إلى حد مفرج . أما أنت
 يادوريان فلست أصدق كلمة واحدة مما يقال فيك لأن وجهك الناضر ينطق
 بالبراءة . ولكني لا ألقاك إلا غرارا ، وأنت لم تعد تأتي إلى الاستديو ،
 وحين أسمع الناس يتهمسون عنك بهجر القول لا أعرف ماذا أقول . ماذا
 جعل الدوق بيرويك ينصرف من النادي حين حلت به أنت يادوريان ؟
 ما الذي حمل عدداً كبيراً من وجهاء لندن على مقاطعتك . لقد كنت صديقاً
 للورد ستافلي ولكني لقيته في حفلة عشاء في الأسبوع الماضي وانتهى بنا
 الحديث إليك بمناسبة الصور المصغرة التي أعرتها لمعرض ددلي ، فلوى ستافلي
 شفته امتعاضاً وقال إنك قد تكون من أصحاب الذوق الفني النادر ولكنك
 رجل لا يجوز لفتاة طاهرة أن تتعرف إليه ولا يجوز لإمرأة عفة أن تجلس
 في مكان أنت فيه جالس . فلما نهته إلى أني صديقك وطلبت إليه أن يفسر كل
 شيء سرد لي عنك الأعاجيب أمام جميع الحاضرين ، ويا لها من تهم شنعاء
 تلك التي كالألح يادوريان . قال إنك تحطم حياة الشبان بتأثيرك السيء فيهم .
 فمنهم ذلك الفتى التاعس ضابط الحرس الذي انتحر ، وقد كنت من أخلص
 أصدقائه . ومنهم السير هنري آشتون الذي اضطر إلى الرحيل عن إنجلترا
 ملوث الشرف ، وقد كنتنا متلازمين . ومنهم السير آدريان سنجلتون الذي
 انتهت حياته نهاية فاجعة ومنهم ولد اللورد كنت الذي أضعت مستقبله . لقد
 قابلت أباه المسكين أمس في شارع سانت جيمس فرأيت الحزن والعار قد هذا
 بنيانه . ثم دوق بيرث ؟ إن حياته الآن جحيم لا يطاق ولن يرضى أحد يحترم
 نفسه أن يخالطه .

عض الألم دوريان فعرض دوريان شفته وقال بصوت يرم عن الاحتقار البالغ :
 — كفى كلاماً يا بازيل ! إنك تلغو عن أشياء لا تعرف عنها شيئاً . إنك
 تسألني عما يحمل بيرويك على ترك النادي حين أحل أنا به ، وأنا أقول لك إنه
 يفعل ذلك لأنني أعرف كل شيء عن حياته لا لأنه يعرف أي شيء عن حياتي .

إن الدم الذي يجري في عروق بيرويك هو دم الإثم والجريمة فكيف ينتظر من مثله أن يحيا حياة صالحة ! إنك تسألني عن هنري آشتون ودوق بيرث ، فهل أنا الذي لقتنهما مبادئ الرذيلة ؟ ثم إذا كان ولد كنت يؤثر أن يتصيد لنفسه زوجة من الشارع ، فكيف ألام أنا على ذلك ؟ وإذا كان آدريان سنجلتون يوقع على الصكوك بأسماء أصدقائه فما أنا بالوصى عليه المسئول عن فعالة . أنا أعرف ميل الإنجليز إلى الولوغ في أعراض الناس . فأبناء الطبقة المتوسطة يعرضون أخلاقياتهم العتيقة على موائد الخالصة من الذوق ويتهايمسون عن فضائح سادتهم النبلاء ليحسوا بأنهم داخل المجتمع الراق لا خارجه وليوهم بعضهم بعضاً بأنهم من أصفياء أبناء البيوتات الذين يلوثون أعراضهم . وفي إنجلترا يكفي أن يجتمع لك شرف المولد والذكاء معاً لكي يطلق أوساط الناس ألسنتهم فيك غيرة وكمداً . ثم أين هذه الحياة الفاضلة التي يحياها أولئك الذين يتشدقون عن الفضيلة ؟ أنت تنسى يا عزيزي أننا نعيش في وطن النفاق .

فقال هولوررد :

— هذا خارج عن الموضوع يا دوريان . فأنا أعرف أن إنجلترا بلد منحط وأن المجتمع الإنجليزي مجتمع فاسد من أساسه ، ولهذا أردت أن تكون نموذجاً للسكالم يحتذى ، ولكنك خيبت ظني فيك . إن من حق أن أحكم على أي إنسان بالأثر الذي يتركه في أصدقائه ، وأصدقائك قد فقدوا إحساسهم بالشرف وقدرتهم على الخير ورغبتهم في النقاء . لقد نفثت فيهم الكلف بالذات إلى حد الجنون فهووا بذلك إلى الحضيض ، وأنت الذي سقتهم إلى هذا المصير . نعم ، أنت الذي سقتهم إلى هذا المصير ، وهأنت تبسم كأنك لم تأت وزراً . وما ذكرت لك إلا القليل عن فعالك . فأنت وهاري أخوان لا يفترقان ومع ذلك فقد جعلت اسم اخته مضغة في أفواه الناس ، وقد كان يجمل بك أن ترعى للأخوة حقها .

— افهم ما تقوله يا بازيل فقد تجاوزت حدودك .

— بل لا بد أن أقول كل شيء وعليك أن تسمع ما أقول . نعم لسوف تسمع ما أقول . إن اللیدی جویندولین كانت حين قابلتها أول مرة سيدة فضلى لا يمسها لسان بسوء فهل بقيت في لندن سيدة كريمة واحدة ترضى بأن تخرج معها للنزهة في هايدپارك ؟ لقد بلغ من سوء سمعتها أن أطفالها قد نزعوا منها . ثم هناك روايات شتى ، روايات تقول بأن الناس رأوك تتسل عند الفجر خارجا من دور الفحش وتتردد مستخفياً على أقذر مباءات لندن . أصبح هذا يا دوريان ؟ بل أيجوز أن يكون ذلك صحيحاً ؟ لقد كنت أضحك حين أسمع عنك هذه الأقاويل أما الآن فإني أرتجف كلما سمعتها . إن بيتك الريفى قد أضحى بيت دعارة . إنك لا تعرف ما يقال عنك يا دوريان ، وأنا لا أقول لك إنى سأجنب المواعظ ، فإني أذكر أن هارى قال مرة إن هواة الوعظ يبسداون وعظهم بقولهم إنهم لا يحبون الوعظ ثم يثبت عكس ذلك . أما أنا فأعترف لك بأننى أريد أن ألقى عليك موعظة لعلك تتعظ .

أسألك يا دوريان أن تحيا حياة شريفة تلزم الناس باحترامك . أسألك يا دوريان أن تتخلى عن رفاق السوء . أسألك يا دوريان أن تغسل عن اسمك الأقدار التى علقت به وأن تكون صفحتك بيضاء ولا تتكاف عدم الاكتراث كما تفعل الآن فإن لك تأثيراً قويا في أقرانك فليكن هذا التأثير تأثيراً حميداً لا تأثيراً هداماً . يقولون إنك تفسد كل من تحاططه وإنك ما دخلت بيتاً إلا وجررت له العار في أعقابك ، ولست أدري أصبح هذا القول أم كاذب ، وأنى لى أن أعرف وأنا لا أراك إلا نادراً . يقولون عنك أشياء لها قوة الحقائق فاللورد جلوستر مثلاً ، وهو صديق من أوفى أصدقائى الذين عرفتهم أيام كنت أدرس في أكسفورد ، أطلعنى على خطاب كتبته زوجته إليه وهى على فراش الموت بمنتهون حيث تخلى عنها الجميع وفى الخطاب قرأت اسمك

مقترنا بأشنع اعتراف مر بي حتى هذه اللحظة ، فقلت له إن هذا غير معقول
لأنى أعرفك معرفة تامة وأعرف منك أنك لا تستطيع إثبات شئ مما نسب
إليك . ولكنى الآن فى حيرة من أمرى ومن أمرك ولم أعد واثقاً من أنى
أعرفك حقاً ، ولن تتبدد شكوكى إلا إذا رأيت روحك .

فنهض دوريان جرای من الأريكة وجلا وشحب لونه أيما شحوب وقال :
— إلا إذا رأيت روحى !

أجاب هولورود فى تودة بصوت عميق یرن بالأسى :

— أجل . إلا إذا رأيت روحك . ولكن الله وحده يستطيع أن یرى
روحك .

فارتفعت من دوريان جرای ضحكة تشوبها المرارة والسخرية معاً وحمل
مضباجاً من فوق المائدة وقال :

— بل سوف تراها أنت هذه الليلة ، فهيا بنا إليها فهى من صنع يديك .
لست أجد ما يمنع أن تراها . وبعد رؤيتها أنت فى حل من أن تصفها أمام
العالم كله فلن يصدقك أحد ، وإن صدقك الناس فسيزداد إعجابهم بى فأنا
أعرف أهل هذا الجيل خيراً منك رغم أنك تتشدد بأحاديثك المملة عنهم .
قلت هيا بنا ، فقد قلت ما فيه الكفاية عن انحطاط الروح ، والآن فلتر هذا
الانحطاط وجهاً لوجه .

وكانت كل كلمة فاه بها تحمل معانى الكبرياء الشديد ، وضرب الأرض
بكعبه بطريقته الصببانية الوقحة وشاع فى نفسه فرح عظيم لأن سره الذى
أضناه كتمانته سيخرج الآن إلى النور ، ولأن الرجل الذى رسم الصورة التى
خلدت عاره سوف يقضى بقية حياته شقيماً بذكر ما جنت يده .

واقترب منه وتقرس فى عينيه الثابتتين واستأنف كلامه قائلاً :

— نعم ، سوف أريك روحى . سوف ترى ما لا يراه إلا الله كما تقول .

خجل هولورود وارتد قليلاً وصاح به :

— هذا كفر يا دوريان ! فلا تقل مثل هذه الأشياء لأنها شائنة ولأنها خلّت من كل معنى .

وضحك دوريان ثانية وقال :

— أظن ذلك ؟

— بل أعرفه . أما ما قلته لك اليلة فما كنت أبغى به إلا تفعلك ، فأنت تعرف أني كنت دائماً صديقاً لك وفيّاً .

— ابتعد عني ، وأنتم حديثك إذا شئت .

فتقلص وجه الرسام كأنه طعن بمديّة وسكت لحظة ثم شاع في قلبه إحساس عميق بالرثاء لحال دوريان جرى . وأنّب نفسه لتطفله على حياته الخاصة ، وهي ملك له وحده يفعل بها ما يشاء ، وأنّ عذاب ضميره ليغنيه عن كل تقريب ، فلو أنه ارتكب عشر معشار ما ينسبه المرجفون إليه من آثام لوجب أن يعيش في جحيم مقيم ! واعتدل بازيل هولوردد ثم سار نحو المدفأة وأنشأ يتأمل الخشب المحترق فيها والرماد الأبيض الذي يكسو الحجر المتأجج . وأخيراً قال الشاب بصوت واضح قاس :

— أنا في انتظارك يا باريل .

والتفت بازيل إليه وقال :

— كل ما أريد أن أقوله هو هذا : أسألك أن تحجب على هذه التهم الشنيعة التي يلصقها الناس بك . ولو أنك قلت لي إنها فرية عظمى من ألفها إلى يائها لصدقتك . انكر هذه التهم يا دوريان ، أجل ، انكرها أو كن سعيداً ! ألا ترى ما أعانيه من عذاب ؟ يا إلهي ! لست أحتمل أن تعترف لي بأنك حقاً مسح النفس ، منحط الخلق ، تعيش في العار .

فابتسم دوريان جرى وبدت غايه في شفّته أمارات الازدراء ، وقال في هدوء :

— آعال معي إلى الطابق العلوي يا بازيل ، فهناك أكتب يومياتي بانتظام

ولا أسمع لأحد أن ينقلها من مكانها ، فتعال معي أطلعك عليها .
 — سأذهب معك إذا كان هذا يرضيك . لقد فاتني القطار ولكن
 هذا لا يهم في استطاعتي أن أرحل غداً إلى باريس ولا تطلب إلى أن أقرأ
 الليلة شيئاً فكل ما أبغيه جواب صريح عن سؤال صريح .
 — ستجد هذا الجواب الصريح في الطابق العلوى ، أما هنا فلن أجيب
 على شيء . تعال معي لتقرأ الجواب ، ولن تقرأ طويلاً .

هو
وال
هز
المص
بصم

في

نور
لصم

رأى
الفا

الفصل الثالث عشر

*

خرج دوريان جرای من الغرفة وبدأ يصعد السلم ومن ورائه بازيل هولوررد . وكانت خطواتهما رقيقة فالإنسان ترق خطاه بحكم الغريزة ليلاً . وألقى المصباح فللأمر ماردة على السلم وعلى الحائط . وهبت نفحة من الريح هزت نوافذ الدار فقعقت . وحين وصلا إلى نهاية السلم وضع دوريان جرای المصباح على الأرض وأخرج من جيبه المفتاح وأداره في الباب ثم قال بصوت خفيض :

— ألا تزال تصر على جواب يا بازيل ؟

— نعم .

فأجاب الفتى مبتسماً :

— هذا يدعوني إلى الاعتباط .

ثم أضاف في قليل من الخشونة :

— أنت الشخص الوحيد الذي يحق له أن يعرف عنى شيئاً ، فقد تركت

في حياتي أثراً لا تعرف أنت مداه .

ثم رفع المصباح وفتح الباب ودخل ، فلفظه تيار من الهواء البارد وارتفع نور المصباح برهة واشتد لهبه البرتقالى ، وارتجف دوريان جرای وهمس لصاحبه وهو يضع المصباح على المائدة .

— أقفل الباب وراءك .

ونظر هولوررد حوالیه في كل صوب يتفقد الغرفة وبدت عليه الحيرة . رأى أن الغرفة لم يستعملها أحد لسنوات . ورأى على الحائط قطعة من القماش الغامكى عليها رسوم نسخها الزمن ورأى صورة يحجبها ستار ورأى صندوقاً

إيطالياً قديماً وجمالة كتب تكاد أن تكون فارغة ومائدة وكرسيّاً ، وفيما عدا ذلك لم يَر في الغرفة شيئاً . وعندما كان دوريان جرای يوقد شمعة فوق المدفأة نصفها مستهلك ، لاحظ بازيل هولوردد أن التراب يكسو كل ما بالغرفة وأن البساط ممزق . ورأى فأراً يحرق وراء ألواح الجائط . وشم رائحة عفنة نقلتها رطوبة الهواء . قال دوريان بصوت قاس ينم عن عاطفة ميتة :

— إذا فأنت تحسب يا بازيل أن الله وحده يرى أرواح الناس . أزع هذا الستار تر روجي .

فأجاب هولوردد عابساً :

— أنت تهذي كالجنون يا دوريان فإن لم تكن مجنوناً فلا بد أنك تمثل دوراً لا أفهمه .

قال الشاب :

— ألا تريد أن تزيح الستار ؟ إذا فسأزيحه أنا نيابة عنك .

وزرع الستار من القضيبي المعلق فيه وألقى به على الأرض .

فلما أبصر الرسام الوجه الشائن يتجههم له من الصورة في النور انخافت صدرت منه صيحة فزع وأحس بالملق والتقزز مما رآه . لقد كان الوجه وجه دوريان جرای حقاً ورغم ما نزل به من مسخ وبيل بقيت له معالمه الأولى وشيء من جماله القهار . حتى قرمز شفقيه الشهوانيتين وذهب شعره الجميل بقي منهما أثر وزرقة عينيه الساحرتين وخطوط أنفه المنحوت وجيده الوضاء بقي منها دليل على ما كان . أجل ، إنه دوريان لا سواه ولكنه مسخ رجيم . فن ياترى رسم هذا المسخ الرجيم ؟ أنه يرى ريشته والوانه واضحة في الصورة ، وكذلك استطاع أن يتميز الإطار فهو واضع تصميمه وأمسك بالشمعة واقترب بها من الصورة فقرأ اسمه في ركنها الأيسر منقوشاً بحروف مديدة برة البلية لامعة .

وظن برهة أنها دعابة سمجة من مقلد نذى أراد أن يسخر منه ، فهو لم

يرسم هذا الوجه الشائه قط ، ومع ذلك فقد كان يعرف في قرارة النفس أن الصورة صورته وجمد الدم في عروقه . إنها صورته ! إنها صورته ! فما معنى هذا ؟ وكيف أصابها هذا التغير ؟ والتفت إلى دوريان جرای ورمقه بعينين ذابلتين وارتجفت فيه والعقد لسانه وارتفعت يده إلى جبينه كمن يريد أن يجمع أشتات خواطره فوجد جبينه ينضح بالعرق المتلبك الكثيف .

وكان الشاب متكئاً على سطح المدفأة وقد بدا على وجهه الاهتمام الكامل كأنه مستغرق في مشاهدة ممثل عظيم ، فلا الحزن يلا فؤاده ولا الفرح ، بل كل ما هنالك إحساس بأنه يشاهد أمراً جليلاً ، وفي عينيه ما يشبه وميض الانتصار . وخلق الزهرة من عروته وذهب يشمها أو يتظاهر بشمها . وأخيراً صاح هولوردد قائلاً :

— ما معنى هذا ؟

وكانت نبرات صوته حادة فأنكرتها أذناه .

ومزق دوريان جرای الزهرة بين أنامله وقال :

— منذ سنوات طويلة لقيتني وكنت يومئذ صبياً ، وأطربتني وعلمتني كيف أغتر بجمالي . وذات يوم عرفتني بصديق من أصدقائك فشرح لي فلسفة الشباب وأتممت أنت صورة كنت ترسمها لي فعرفت منها الجمال كيف يكون . فمرت بي لحظة جنون تمنيت فيها أمنية تشبه صلاة المصلين ، أمنية لا أدري حتى هذه الساعة أندم عليها أم لا .

— أنا أذكر هذه الأمنية ، وهي مطبوعة في خلدي كأنني سمعتها بالأمس . كلا يا دوريان ، محال أن تكون الأمنية قد تحققت . إن الرطوبة تملأ الغرفة وقد دب التعفن في خيش اللوحة ، ولا بد أن الألوان الزيتية التي استخدمتها كانت تحوى بعض العناصر السامة . أقول لك إن هذا محال .

فمضى الشاب إلى النافذة ، وأسند جبهته إلى زجاجها البارد المغطى بالضباب وقال :

— ما هو هذا المحال ؟

- ألم تقل لى إنك قد دمرت الصورة ؟
- أجل ، ولكنى كنت مخطئاً ، لأن الصورة قد دمرتنى .
- محال أن تكون هذه الصورة التى رسمتها .
- فقال دوريان بمرارة :
- ألا تستطيع أن تتبين فيها مثلك الأعلى كما كنت تفعل فى الماضى ؟
- مثلى الأعلى كما تسميه ،
- بل كما سميته أنت .
- مثلى الأعلى لم يكن فيه شر ولا عار . لقد كنت لى نموذجاً فريداً لكل شىء سام فى الحياة ، أما هذا فوجه شيطان .
- إنه صورة روحى .
- رحماك أيها السيد المخلص ! أفهذا هو الصنم الذى عبدت ! إن له عيني شيطان .
- قال دوريان فى يأس قاتل :
- لقد اجتمعت فى كل منا الجنة والجحيم يا بازيل .
- وانصرف هولووورد إلى الصورة وذهب يتأملها ثم صاح قائلاً :
- الرحمة يا الله ! لو أن هذا كان صحيحاً ، فإن ما ظهر للناس من حقيقةك لا يقاس بما خفى عليهم منها .
- وأمسك بالمصباح ثانية وطفق يتفحص الصورة من جديد ، فوجد أن سطحها لم يتغير قط وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شيئاً فشيئاً ، ورأى فى الصورة جيفة حية دونها الرمم التى تبلى فى بطون القبور .
- وارتعت يده فسقطت الشمعة من مقيضها إلى الأرض وظلت هناك تحترق فداسها بقدمه وأطفأها ، ثم ألقي بنفسه على الكرسي المتهدم القائم بجوار المائدة ودفن وجهه فى كفيه وأخذ يقول :



صفحة ٢٠٩

فلما أن وجد نفسه خلف هولوردا امسك بالمدينة ودب إليه . . .

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100
101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204
205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223
224
225
226
227
228
229
230
231
232
233
234
235
236
237
238
239
240
241
242
243
244
245
246
247
248
249
250
251
252
253
254
255
256
257
258
259
260
261
262
263
264
265
266
267
268
269
270
271
272
273
274
275
276
277
278
279
280
281
282
283
284
285
286
287
288
289
290
291
292
293
294
295
296
297
298
299
300
301
302
303
304
305
306
307
308
309
310
311
312
313
314
315
316
317
318
319
320
321
322
323
324
325
326
327
328
329
330
331
332
333
334
335
336
337
338
339
340
341
342
343
344
345
346
347
348
349
350
351
352
353
354
355
356
357
358
359
360
361
362
363
364
365
366
367
368
369
370
371
372
373
374
375
376
377
378
379
380
381
382
383
384
385
386
387
388
389
390
391
392
393
394
395
396
397
398
399
400
401
402
403
404
405
406
407
408
409
410
411
412
413
414
415
416
417
418
419
420
421
422
423
424
425
426
427
428
429
430
431
432
433
434
435
436
437
438
439
440
441
442
443
444
445
446
447
448
449
450
451
452
453
454
455
456
457
458
459
460
461
462
463
464
465
466
467
468
469
470
471
472
473
474
475
476
477
478
479
480
481
482
483
484
485
486
487
488
489
490
491
492
493
494
495
496
497
498
499
500
501
502
503
504
505
506
507
508
509
510
511
512
513
514
515
516
517
518
519
520
521
522
523
524
525
526
527
528
529
530
531
532
533
534
535
536
537
538
539
540
541
542
543
544
545
546
547
548
549
550
551
552
553
554
555
556
557
558
559
560
561
562
563
564
565
566
567
568
569
570
571
572
573
574
575
576
577
578
579
580
581
582
583
584
585
586
587
588
589
590
591
592
593
594
595
596
597
598
599
600
601
602
603
604
605
606
607
608
609
610
611
612
613
614
615
616
617
618
619
620
621
622
623
624
625
626
627
628
629
630
631
632
633
634
635
636
637
638
639
640
641
642
643
644
645
646
647
648
649
650
651
652
653
654
655
656
657
658
659
660
661
662
663
664
665
666
667
668
669
670
671
672
673
674
675
676
677
678
679
680
681
682
683
684
685
686
687
688
689
690
691
692
693
694
695
696
697
698
699
700
701
702
703
704
705
706
707
708
709
710
711
712
713
714
715
716
717
718
719
720
721
722
723
724
725
726
727
728
729
730
731
732
733
734
735
736
737
738
739
740
741
742
743
744
745
746
747
748
749
750
751
752
753
754
755
756
757
758
759
760
761
762
763
764
765
766
767
768
769
770
771
772
773
774
775
776
777
778
779
780
781
782
783
784
785
786
787
788
789
790
791
792
793
794
795
796
797
798
799
800
801
802
803
804
805
806
807
808
809
810
811
812
813
814
815
816
817
818
819
820
821
822
823
824
825
826
827
828
829
830
831
832
833
834
835
836
837
838
839
840
841
842
843
844
845
846
847
848
849
850
851
852
853
854
855
856
857
858
859
860
861
862
863
864
865
866
867
868
869
870
871
872
873
874
875
876
877
878
879
880
881
882
883
884
885
886
887
888
889
890
891
892
893
894
895
896
897
898
899
900
901
902
903
904
905
906
907
908
909
910
911
912
913
914
915
916
917
918
919
920
921
922
923
924
925
926
927
928
929
930
931
932
933
934
935
936
937
938
939
940
941
942
943
944
945
946
947
948
949
950
951
952
953
954
955
956
957
958
959
960
961
962
963
964
965
966
967
968
969
970
971
972
973
974
975
976
977
978
979
980
981
982
983
984
985
986
987
988
989
990
991
992
993
994
995
996
997
998
999
1000

— الله يا غفور ! ما أقسى هذا الدرس يا دوريان .
ولكن دوريان لم يجب ، بل ظل ينتحب بجوار النافذة بصوت مسموع .
— صل إلى الله يا دوريان ، صل إليه . ماذا تعلمنا أن نقول ونحن بعد
أطفال ؟ « أبانا الذي في السموات . لاتدخلنا في تجربة . اغفر لنا ذنوبنا .
امسح خطايانا . » فلنصل معا يا دوريان . إن السماء قد استجابت لصلاة
دوريان المستكبر وهي الآن تستجيب لصلاة دوريان المستغفر . لقد عبدتك
من دون الله فملت جزأئى ، ولقد عبدت نفسك من دون الله فملت جزأك .
فلنصل معا يا دوريان .

فالتفت دوريان جرای إليه في بطاء والدموع تنهمر من عينيه وقال :
— لقد فات الأوان يا بازيل .

— كلا يا دوريان ، إن باب السماء مفتوح للطارقين . فلنسجد ولنحاول
أن نرتجل صلاة إذا كنا نسينا الصلوات . ألا تذكر ترنيمة تقول : « خطايك
حراء بلون الدماء ولكنى سأجعلها بيضاء بلون الثلوج ؟ » .
— هذه الكلمات لم تعد عندى ذات مغزى .

— صمتا ! لاتكفر ، وكفاك ما ارتكبت في حياتك من آثام . رباها !
ألا ترى ذلك الوحش اللعين ينظر إلينا في شماتة .

والتفت دوريان جرای إلى الصورة وحفاة مشت في صدره كراهية لبازيل
هو لوورد قوية لاسبيل إلى كبته ، وكأنما استوحاها من مرأى صورته على
اللوحة ، أو همست بها في أذنه تلكما الشفتان الحاقدتان ، وتحرك فيه إحساس
كإحساس الحيوان المطارد ، واضطرب في قلبه بغض جهنمى للرجل الجالس
بجوار المائدة ، بغض لم يحمله لأحد قبل . وتلفت حوله مهتاجاً فرأى شيئاً
يساع فوق الصندوق المدهون القائم قبالة ، ولما استقر بصره عليه عرفه ،
فاذا به مدية كان قد جاء بها من قبل ليقطع بها حبلا ثم نسيها في موضعها .
وتقدم منها على مهل وهو لوورد جالس في منتصف الطريق ، فلما أن وجد

نفسه خلف هو لو ورد أمسك بالمدينة ودب إليه ، وأبصر به يتململ في كرسيه كأنه يريد أن ينهض ، فانقض عليه وغرس المدينة في عنقه فزق الوريد الجاري تحت الأذن ، وتحامل على رأسه حتى ارتطمت بالمائدة ، وانهاط عليه طعناً . وصعدت في الغرفة أنه مكتومة ثم صوت رجل يَحْتَنِق بدمه . وارتفع ذراعاً الرجل ثلاث مرات بقوة عصبية وتحركت أصابعه الجامدة في الهواء فطعنه مثنى ، فكف عن الحراك . وبدأ يسمع قطرات الدم تتساقط على أرض الغرفة . وانتظر لحظات ضاغطاً بيده على رأس فريسته ثم ألقى المدينة على المائدة وأرهف أذنيه .

لكنه لم يسمع شيئاً إلا صوت القطرات المتساقطة على البساط . ففتح الباب وخرج إلى أعلا السلم ، فوجد البيت ساكناً كأنه قبر موحش ، ولم يكن به أحد . ومرت ثوان ظل أثناءها يحملق في بئر الظلمات متكئاً على مسند السلم . ثم استخرج المفتاح من جيبه وعاد إلى الغرفة وأغلق الباب ، وأحجب الظهر ووجد الجثة لا تزال جالسة على المقعد وقد انكفأ منها الرأس على المائدة وتمهد الذراعان الطويلان . ولولا فتحة حمراء غير منتظمة في العنق وبركة من الدم المتجمد على المائدة تتسع قليلاً قليلاً لبدا الرجل وكأنه يستغرق في نوم عميق .

لقد تمت الجريمة في دقائق ، وأحس بهدوء عجيب ومضى إلى النافذة وفتحها وخرج منها إلى الشرفة . وكانت الريح قد اكتسحت ضباب الليل فبدت السماء صافية كذيل طاووس هائل عجيب مزدانة بألف ألف عين ذهبية وأطل في الشارع فوجد الشرطي يعس في تطوافه ويسلط نور مصباحه على أبواب المنازل الهادئة . وفي منعطف الشارع رأى عربة ذات ضجيج لمعت في الظلام كالبقعة القرمزية ثم توارت عن بصره . كذلك رأى امرأة على رأسها شال يرفرف في الهواء تمشي الهوينا بجوار أسوار المنازل وكأنها تترنح ، وبين وقت وآخر تتوقف عن المسير وتلتفت إلى الوراء . وسمعتها تبدأ الغناء

بصوت قبيح أجش وأبصر الشرطى يتقدم نحوها ويقول شيئاً ثم رآها تتعثر بعيداً عنه وتقهقه . وهبت في الميدان ريح صرصر باردة فاضطربت مصابيح الشارع وأضت زرقاء الالهب واهتزت فروع الأشجار الجرداء وبدت كقضبان الحديد الأسود . وارتجف دوريان جراى وعاد من حيث جاء وأغلق النافذة وراءه .

وبلغ الباب ، وأدار فيه المفتاح وفتحه . ولم يلق على القليل نظرة لأنه وجد أن من الخير له ألا يفهم الموقف على حقيقته . واكتفى من كل ذلك بأن الصديق الذى رسم الصورة هادمة سعادته قد خرج من حياته نهائياً .

ثم تذكر المصباح ، وعن له أن الخادم قد يفتقده فيبحث عنه فهو مصباح مراكشى ثمين صنع من فضة غبشاء اللون مطعمة بنقوش عربية صنعت من الفولاذ اللامع ومرصعة بقطع الفيروز الخشنة . وتردد لحظة ثم عاد وأخذ من المائدة ، وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على الجثة على الرغم منه . يالهدوء الموتى ! ثم تلصقا اليسدان الطويلتان البيضاوان ما كان أظفح شحوبهما ! ما أشبه الجثة بتمثال من الشمع !

وبعد أن أغلق الباب وراءه نزل على السلم فى احتراس ولكن الدرج الخشبى قعقع تحت قدميه فهبى له أن يستغيث . وتوقف مرراً عن السير وانتظر فلم يسمع شيئاً . كان كل شىء هادئاً ولم يسمع إلا وقع قدميه .

وحين دخل المكتبة رأى المعطف والحقيبة قابعين فى ركنها . ولم يكن بد من إخفاءهما ففتح كوة يسترها خشب الحائط ، كوة كان يضع فيها أدوات تحفيه ولا يعلم عنها أحد شيئاً ، وفى الكوة وضع المعطف والحقيبة ، حتى يجد متسعاً من الوقت ليوقد فيها ناراً . ثم أخرج ساعته فإذا بها الثانية إلا ثلثاً . وارتاح على مقعد وبدأ يفكر . المشنقة ! نعم ، المشنقة ! فى كل عام بل فى كل شهر من شهور السنة يشنق فى انجلترا اناس لأنهم فعلوا فعلته . إن الجريمة تملأ جو انجلترا ، فلعل نجماً أحمر اقترب من مسار الأرض فأهلب فى الناس

الشهوة إلى الدماء . ومع ذلك فم يخاف ؟ أى دليل هنالك ضده ؟ إن بازيل هو لولورد خرج من دار دوربان جرای في الساعة الحادية عشرة ، ولم يره أحد حين عاد إليه . فأغلب الخدم في سلبى وخادمه الخاص يغط في فراشه . ألم يقل بازيل إنه قاصد إلى باريس ؟ نعم . إن بازيل قد رحل إلى باريس بقطار منتصف الليل ، تماماً كما أزمع أن يفعل . إن بازيل رجل غريب الأطوار لا يطلع أحداً على كثير من شئونه ، فلن تستيقظ الشكوك قبل أن تمضى شهور . وقبل أن تمضى شهور لن يصعب عليه محو كل دليل .

ثم لمعت في خاطره فكرة فارتدى قبعته ومعطفه الذى تكسوه القراء وانتقل إلى القاعة . وفي القاعة وقف حين سمع خطوات الشرطى الثقيلة البطيئة وهو يسير على إفريز الشارع ورأى شعاع مصباحه معكوساً على زجاج النافذة فانتظر معلق الأنفاس .

وبعد لحظات أراح المزلاج وخرج وأغلق الباب في رفق شديد . ثم شرع يمدق الجرس ، وبعد خمس دقائق فتح له الباب خادمه الخاص نعان ناقص الملبس وقال وهو يدخل البيت :

— يؤسفنى أنى أيقظتك من نومك يا فرانسيس ، ولكنى نسيت المفتاح . كم الساعة الآن يا ترى ؟

فنظر الرجل إلى ساعة الحائط مختلج الجفنين وقال :

— الساعة الثانية وعشر دقائق يا سيدى .

— الثانية وعشر دقائق ! لقد تأخرت جداً ولا بد أن توقظنى غداً في الساعة التاسعة لأن لدى بعض الأعمال .

— حسناً يا سيدى .

— أجباني أحد هذه الليلة ؟

— نعم يا سيدى جاءك مستر هولوردد وانتظرك هنا حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ثم انصرف ليلاحق بقطاره .

— بؤسفی أنى لم أره . وهل حملك رسالة إلى ؟
 — كلا يا سيدى ، لم يقل إلا أنه سيكتب إليك من باريس إن لم يجده
 فى النادى .
 — شكراً يا فرانسيس ، ولا تنس أن توقظنى غدا فى الساعة التاسعة .
 — لن أنسى يا سيدى .
 ومشى الرجل متثاقلاً فى الدهليز بحجر خفيه حراً .
 ووضع دوريان جرای قبعته ومعطفه على المائدة ودخل المكتبة . وظل
 يقطع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً نحو ربع ساعة ، يفكر فى أمره ويعرض شفته
 بين لحظة وأخرى . ثم تناول « الدليل العام » من أحد الرفوف وبدأ يقلب
 صفحاته باحثاً عن عنوان . وأخيراً وجده . « ألان كامبل ١٥٢ شارع
 هرتفورد ، مايفير » . نعم هذا هو الرجل المنشود .



فنج

مد

أو

ارت

بشي

رم

وش

دو

حام

وم

دلالة

به

حا

بحر

الفصل الرابع عشر

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل عليه خادمه حاملاً صينية عليها
فنجان من الكاكو وفتح النافذة . وكان دوريان نائماً على جانبه الأيمن يغمره
هدوء الملائكة وقد صرى يده تحت خده فبدأ كصبي أنهكه طول الدرس
أو طول اللعب .

واضطرب الخادم إلى أن عساه على كتفه برفق ليوقظه ، وحين فتح عينيه
ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة وكأنه يستمتع بحلم لذيد ولكنه لم يحلم
بشيء أثناء نومه بل قضى ليلة صافية لم تعكرها أطراف السبات جميلها أو
رهيبها . إنما يتسم الشباب بغير داع ، وهذه آية من آيات سحره .

وتقلب في فراشه ثم اتكأ على مرفقه وشرع يشرب فنجان الكاكو ،
وشمس بوقمبر تدفقت أشعتها الرقيقة في الغرفة ، والسماء كانت ضووكا وفي الجو
دفع لديد ، والبشر يعلأ الآفاق فيعيد ذكرى الربيع .

ثم عادت إلى ذاكرته حوادث الليلة الماضية شيئاً فشيئاً ، ومشت في
خاطرهم بأقدام خضبتها الدماء لا يسمع لها خفيف ، فاسترجع كل ما جرى في
وضوح مخيف . وعبس حين ذكر ما مر به من شقاء في الليلة السابقة وعاد إليه
ذلك البغض الشديد نحو بازيل هولوردد ، ذلك البغض الذي دفعه إلى الفتك
به وهو جالس على المقعد ، فشجب لونه من فرط الانفعال . فالرجل لا يزال
جالساً على المقعد بأعلا الدار بل وفي وضوح النهار ، وقد كان خليقاً به أن
يحتجب في رداء الظلمات ، فما أبشع هذه الحقيقة .

وأحس بأن التفكير المتصل فيما جرى لا بد متلف صحته أو مود بعقله .

لقد دله اختباره على أن من الجرائم ما ترتاح النفس لذكراه أكثر مما ترتاح لإتيانه ، ويرضى الغرور أكثر مما يرضى الشهوات ، ويسعد به العقل أكثر مما تسعد به الحواس . ولكن هذه الجريمة لم تكن من تلك الجرائم . هذه الجريمة كابوس لا مناص من إبعاده عن مسكن الذكريات ، هذه الجريمة شبح مزعج قائم لا بد أن ينام نوماً كيداً أو يخنق بجميل النسيان وإلا خنق صاحبه . ودقت الساعة التاسعة والنصف ومر بأصابعه على جيبه ثم نهض مسرعاً وارندى ملابسه بعناية فائقة تجاوزت كل ما عهد فيه من عناية ، وأضاع الوقت الطويل في اختيار ربطة رقبته والديوس الذي يحلى صدره به ، وبدل خواتمه مراراً . ثم تناول فطوره وقضى في ذلك الوقت الطويل كذلك متدوفاً الصجاف ، متحدثاً إلى خادمه في إطناب عن حلل الخدم الجديدة التي كان يفكر في شرائها لخدمه في سلبى ، قارئاً رسائل اليوم آناً في ضمير وآناً في متعة . وكانت بينها رسالة تلاها جملة مرات ثم مزقها في شيء من الغيظ وهو يردد كلمة اللور هنرى « يا للرجل من ذاكرة المرأة ! »

وبعد أن شرب فنجاناً من القهوة التركية مسح شفتيه في القوطة في تودة وأشار إلى خادمه بالانتظار ثم تحول إلى مكتبه وسطر خطابين وضع أحدهما في جيبه وسلم الآخر للخادم قائلاً :

— احمل هذا الخطاب إلى ١٥٢ شارع هرتفورد يافرانسيس ، فإن وجدت أن مستر كامبل قد غادر لندن فاحصل على عنوانه .

وانصرف الخادم فبقى في الغرفة وحيداً ، وأشعل سيجارة وذهب يخطط الرسوم على قطعة من الورق فبدأ أولاً برسم الأزهار ثم انتقل إلى رسم قطاعات من العرائر ثم انتقل إلى رسم الوجوه الآدمية . وخجاة لاحظ أن كل وجه يخططه على الورق يحمل شيئاً قوياً للملامح بازيل هولوردد ، فتجههم وجهه ونهض من مكانه وسعى إلى جمالة الكتب وانتزع منها كتاباً على غير تحديد . لقد كان صادق العزم على أن ينسى ما حدث حتى تلزمه الضرورة

القصوى بتذكره ولما تمدد على الأريكة نظر إلى عنوان الكتاب فإذا به كتاب
تيوفيل جوتييه « إمو وكاميه » في طبعة شريانية على ورق ياباني وعليه
رسوم جاكمار ، وكانت جلدة الكتاب خضراء ليمونية عليها تصميم من خطوط
ذهبية متقاطعة ورمز منقوش ، وكان الكتاب هدية أهداها إليه آدريان
سنجلتون . وفيما هو يقلب صفحاته وقعت عينه على القصيدة التي تصف يد
لاسنير ، تلك اليد الباردة الشاحمة « ذات الآلام التي لم تغسل بعد » ، ذات
الشعر الأحمر الناعم كالرياش و « أصابع الوحوش » . ونظر إلى أصابعه الدقيقة
البيضاء فارتجف بالرغم منه ، وما زال يطالع حتى بلغ هذه الفقرات الجميلة التي
تصف مدينة الهندية :

« خرجت زهراء الأدرياتيكي من الماء بيضاء الحسد وردية
ومن ثديها تساقط الدر على بساط تدرجت فيه الألوان تدرج
الأنغام في السلم الموسيقي »
« والقباب ارتفعت كصدر حسناء ناهد تنهد حسرة على
غرامها ، ارتفعت القباب على الأمواج اللازوردية التي تترجرج
في لين كأنها بيت شعر بدیع التكوين »
« ورسا بي الجنودول وشده الملاح بالحبل إلى العمود فوجدت
نقسي على الدرج الرخامي أمام واجهة قصر وردى » .

واضطربت نفسه لجمال هذه السطور . وأحس وهو يقرأها أنه طاف على
وجه المياه الخضراء في قنوات تلك المدينة الدرية الوردية يحمله جنودول
أسود ذو مقدمة فضية وأستار ترفرف في مهب النسيم . وترجرجت أمام
عينيه السطور ذاتها فبدت له كالأمواج الفيروزية الزرقاء التي تتسلسل وراءه
حين يسبح في جنودوله إلى قصر الليدو . والألوان فيها تلمع أمام ناظريه

فتذكره ببريق الطيور ذات الرقاب الصفراء التي ترفرف بالقرب من برج
الكامپانيل العالی الذي يشبه خلايا النحل ، أو تخطر في خيلاء تطرب لها
النفوس في الشوارع المظلمة التي حظ عليها غبار القرون . وكان يعوض
في مكانه من الأريكة و برخی جفنيه ويردد قول الشاعر :

على الدرج الرخامی أمام واجهة قصر وردی

فترسم امامه صورة البندقية في هذين البيتين . وتذكر الخريف الذي
قضاء في تلك المدينة والغرام الجميل الذي ذاقه في مغائرها فدفعه إلى ارتكاب
المخاطرات المذيدة التي لا يقدم عليها إلا المجانين . لقد قرأ في كل حجر من أحجار
المدينة قصة وكل ما فيها أثار خياله ، واسكن فينيسيا كما كسفورد تحفظ
الاحلام للباحثين عن الاحلام ، وأهل الاحلام يعيشون على الحلم المستور
وللحلم المستور . لقد رافقه بازيل شطراً من الرحلة وقتنه جمال تنويريت .
فياله من رجل ناعس وبالميتة من ميتة شعاء !

وتنهذ وفتح الكتاب مرة أخرى والتمس النسيان في المطالعة . وفي
الكتاب قرأ عن مقهى صغير بأزمير فيه طيور تخرج منه وتدخل فيه في
غير حرج والحجاج جالسون يعدون أسماء الله الحسنى على مسابحهم ، والتجار
دووا المعائم يدخلون الشيشة ويتجادلون في وقار . وقرأ عن المسلة القائمة بميدان
الكونكوردي بباريس وهي تمكي بدموع من الجرائد تندب وحدتها في منفاها
الدائم الغيوم وتحن إلى ضفاف النيل القاطن الذي غطته أزهار اللوتس ، حيث
تمثال أبي الهول وعجول آيس الحمراء والنسور البيضاء ذات المخالب الذهبية
والماسيح ذات العيون الصغيرة اليرجدية التي ترحف فوق الطين الأخضر
المتنخر . ووفق يفكر في قريض جوتييه الذي شبه فيه الشاعر نمثالا من
من التماثيل رآه بقاعة في متحف اللوفر بالصوت الكوثرالتو واستوحى
رخامه الذي لطخته القمل . واسكن الكتاب سقط من يده أخيراً وبدأ يتعلم

تأمل من فقد السيطرة على أعصابه ثم غمره إحساس بالفزع الشديد . ترى ماذا يكون مصيره لو أن آلان كامبل كان خارج النجلترا ؟ ستمضي إذا الأيام الطوال قبل أن يتمكن من العودة إليها . ثم أليس من الجائز أن يرفض الرجوع ؟ ماذا تراه يفعل لو أن آلان كامبل رفض أن يستجيب لدعوته ؟ إن كل ثانية تمر تدق في سمعه كناقوس القدر . إن آلان كامبل كان حقاً صديقه الأوفى الذي لازمه منذ خمس سنوات ثم فترت الصلة بينهما فجأة . وهما الآن يلتقيان في الأندية والحفلات فلا يتبادلان الحديث . حقاً ان دوريان يحيمه بابتسامة كلما رآه ولكن آلان كامبل لا يرد له تحيته .

كان آلان كامبل شاباً ذكي الفؤاد ولكنه خلا من كل إحساس بمجمال الفنون التصويرية والقليل الذي اكتسبه من تذوق الشعر جاءه من دوريان جرای لا من سواه . أما فضوله العقلي فكان يتجه نحو العلم ، وقد قضى الشطر الأكبر من وقته أيام الطلب في بكامبريدج في المعمل ونجح بامتياز في التاريخ الطبيعي . ولكن ميله الشديد إلى الكيمياء لم ينته بانتهاء فترة الدراسة بل لازمه بعد ذلك فأنشأ معملاً خاصاً به في لندن كان ينقطع فيه للبحث طول النهار مما أحنق أمه عليه ، فقد كانت تأمل أن يتقدم لعضوية البرلمان ونجح من اهتمام ولدها بالكيمياء لظنها أن الكيميائي رجل بركب الأدوية التي يوصى بها الأطباء . كذلك كان آلان كامبل غارفاً من أشهر العازفين يتقن اللعب على البيانو والكان على حد سواء وير في ذلك أكثر الهواة . ولقد كانت الموسيقى في الواقع هي التي ألقت بينه وبين دوريان جرای ، وبالطبع كان لشخصية دوريان المغناطيسية أثر كبير في توطيد أركان هذه الصداقة . وكان لقاءهما الأول في دار الیدی بيركشاير ليلة أن كان روينشتاين يعزف في صالونها ثم باتا يترددان على دار الاوبرا معاً في كل مناسبة ويقصدان كل محفل تلتئم فيه الموسيقى الحية ، ودامت صلتها القوية هذه ثمانية عشر شهراً كان كامبل إبائها يتردد بلا انقطاع على ميدان جروفنور حين يكون

دوريان في لندن وعلى قصر سلبى حين يكون دوريان في الريف . أما شغف كامبل بدوريان جرای فقد كان عظيماً لأنه كان يرى فيه النموذج الحى لكل ما هو جميل في الحياة ، شأنه في ذلك شأن أنداده من الشبان . ثم لاحظ الناس فجأة أنهما يلتقيان فلا يتبادلان الحديث إلا نادراً ، كما لاحظوا أن كامبل يعتمد التبكير في الانصراف كلما وجد نفسه مع دوريان جرای في حفل واحد . ولم يعرف أحد سر هذه القطيعة . كذلك انتاب كامبل تغير يلفت الأنظار ، فقد فقد الكثير من مرحه وبات يتململ كلما سمع الموسيقى كأنه لا يستسيغها ويرفض أن يعزف كلما طلب إليه ذلك ، معتذراً بأن أبحاثه في المعمل قد شغلته عن مواصلة المرات ، وقد كان صادقاً فيما يقول . واشتد كلفه بعلم الحياة يوماً بعد يوم حتى لقد ظهر اسمه في أكثر من مناسبة في بعض الدوريات العلمية مقترناً ببعض التجارب العجيبة التي كان يجريها .

هذا هو آلان كامبل الذى كان دوريان جرای ينتظر قدومه . وكان دوريان يرفع بصره إلى ساعة الحائط كل ثانية . ولما طال انتظاره ازداد جزعه ، وأخيراً نهض وذهب يقطع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً ، كأنه حيوان جميل أسير . واتسعت خطواته ولم يعد لها ديب وبردت يده إلى درجة غير مألوفة .

وأصبح الإبتظار لا يطاق . وبدأ له أن الزمن يزحف بأقدام من رصاص ثقيل وأحس بأن ريحاً هوجاء تدفع به إلى حافة هاوية مظلمة . وكأنه يعرف ما ينتظره في قاع الهوة من دمار أكيد ، بل لقد رأى الدمار رؤية العين فاضطرب اضطراباً عظيماً وضغط بكلماته على عينيه في غير إشفاق كأنه يريد أن يمحو منهما الرؤيا . ولكن عبثاً كان ما حاول ، فالرؤيا في عقله جائمة وخياله المريض الذى نهشته الآلام تراقصت فيه الأشباح كأنها الدمى المسوخة ، وراحت تكايدته من وراء أقنعتها الشيطانية . ونجاة أحس بأن الزمن يقف . أجل . أحس بأن هذا المخلوق الأعمى بطيء الأنفاس يكف عن

الزحف . لقد مات الزمن ، وبموته تسابقت في عقل دوريان جرای الأفكار وأخرجت له صورة مروعة للمستقبل كانت من قبل مستورة وراء الحجب ، وعرضتها أمام عينيه عرضاً ، وخلق فيها نجمد كأنه كتلة من صوان .
ولكن الباب انتفتح أخيراً ، ودخل منه خادمه ، فنظر إليه نظرة جامدة لا حياة فيها قال الخادم :

— مستر كامبل يا سيدي .

فتنفس دوريان في ارتياح وعاد الدم إلى شفتيه الياستين وإلى خده الشاحب . قال :

— ادخله حالا يا فرانيس .

وعاد إليه هدوءه الأول وزال عنه الجزع .

وانحنى الرجل وانسحب وبعد لحظات دخل آلان كامبل عابساً عليه اصفرار ، وقد زاد شعره الفاحم وحاجباه الناعمان من شحوب لونه . قال كامبل :
— لقد كان عزمي ألا أدخل بيتك مرة أخرى يا جرای ، ولكنك تقول إنها مسألة حياة أو موت .

وكان صوته جافاً ينم عن الاحتقار ، وجاءت كلماته بطيئة خرجت في روية . وألقي على دوريان نظرة فاحصة ثابتة فيها زراية . وظلت يدها مدفونتين في جيبه ، كأنه لم ير الإشارة التي حياه بهارب الدار .

— نعم يا آلان ، إنها مسألة حياة أو موت وهي كذلك بالنسبة لأكثر من شخص واحد . هلا جلست .

وجلس كامبل على مقعد بالقرب من المائدة وجلس دوريان قبالة . والتقت عيونهما . فقرأ كامبل في عيني دوريان معاني الألم الصادق ، فقد كان يعلم أنه مقدم على فعلة رهيبة .

ومرت لحظة من الصمت الثقيل ، وأخيراً مال دوريان نحو كامبل وقال في هدوء بالغ متتبعاً أثر كلماته :

— اسمع يا آلان ، في غرفة بأعلا هذا البيت مغلقة لا يدخلها أحد إلا أنا
جثة رجل ميت جالسة على مقعد . وقد مات الرجل منذ عشر ساعات . الزم مكانك
يا آلان ولا تنظر إلى هذه النظرة . أما هوية هذا الرجل ولم مات وكيف مات
فأمور لا شأن لك بها . وكل ما عليك أن تفعله هو أن . . .

— هذا يكفي يا جرای ، فلست أريد أن أعرف بقية قصتك ، وسواء
أكان ما قلته صحيحاً أم كاذباً فهو لا يهمنى . فأنا أبغض أن يكون لى بك
شأن ، ولتحتفظ بأسرارك الجهنمية لنفسك فهي لم تعد تهمنى الآن .

— بل هي تهمنى يا آلان ، وهذا السر بالذات يخصك . إنى لأرثى
لحالك ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فأنت الشخص الوحيد الذى يستطيع
أن يتقضى وهذا يلزمى بأن أشركك معى في هذا الأمر ، ولا اختيار لى في
ذلك . فأنت تدرس العلوم يا آلان وتعرف الكيمياء والأحماض وما شا كل
ذلك ، وقد أجريت التجارب المختلفة . وكل ما عليك أن تفعله هو أن تقضى
الجثة الموجودة بالطابق العلوى إفناء حتى لا يبقى منها أثر . وليس هناك من
رأى هذا الشخص يدخل بيتى ، بل إن الناس يعتقدون أنه فى باريس فى هذه
اللحظة ، فلن يبحث أحد عنه إلا بعد أن تنقضى شهور ، وحين يبدأ البحث
عنه يجب ألا يكون فى هذا البيت أثر من آثاره . ولا بد أن تحيله يا آلان
إلى قبضة من رماد أذروها فى الهواء ، وتحيل معه متاعه كذلك .
— أنت مجنون يا دوريان .

— لقد كنت أنتظر اللحظة التى تسمينى فيها دوريان .

— أنت مجنون لأنك حسبت أنى أتحرك لأتقذك من ورطتك ، وأنت
مجنون لأنك أدليت بهذا الاعتراف الشائن . أنا لا دخل لى بهذه المسألة أياً
كانت ظروفها . أو تحسب أنى سأجأزف بسمعتى من أجلك ؟ ماذا يهمنى من
أعمالك الشيطانية ؟

— إن الرجل قد انتحر يا آلان .

— هذا يخفف من المسألة . ولكن من ذا الذي دفعه إلى الانتحار ؟
أنت بكل تأكيد .

— ألا تزال مصراً على الرفض ؟

— بالطبع . أنا لاشأن لي بشيء من هذا القليل ، ولن يثير اشفاقى أن
تجرح على نفسك كل ما في العالم من عار ، فانت أهل لذلك . لن يؤسفني أن
يفضح أمرك أمام جميع الناس فتسقط في نظر المجتمع . كيف تجسر على أن
تسألني أن أقحم بنفسى في هذه الجريمة الشنعاء ، وأنا آخر من يحق لك أن
تطلب العون منه بعد ما أزلت بي من خراب . لقد كنت أحسب أنك تعلم
ما يكفى عن طبائع الناس ، ولعل صديقك اللورد هنرى وتون علمك شيئاً
كثيراً ولكنه لم يعامك بسائط النفس الإنسانية فيما علمك . كلا . لن
يجرئنى شيء لا نقاذك من محنتك . فأبحث عن غيرى لأنك قد أسأت
الاختيار دعنى وشأنى وأبحث عن صديق من أصدقائك .

— إن الرجل مات مقتولاً يا آلان . قتلته أنا بيدي قتلته لما أزل
من شقاء ، فهو الذى شكل لي كيانى وأفسد على حياتى . ان أثر هارى
المسكين في لا يقاس بأثر هذا الرجل . ولعله لم يقصد سوءاً ، ولكن النتيجة
كانت واحدة .

— أنت قتلته ! يا إلهى ! أهذا ما ألت إليه يادوريان ؟ لن أبلغ أمرك إلى
الشرطة فليس هذا من شأنى . وهم لاشك قابضون عليك إذا لم أساعدك أنا ،
فما من أحد ارتكب جريمة إلا وارثكب معها حمافة تدل عليها . ولكن
هذا لا يعنينى .

— بل هو يعينيك يا آلان . لحظة واحدة يا آلان . انتظر . اسمع
ما أقول ثم احكم بنفسك كل ما أسالك أن تفعله هو أن تجرى تجربة من
تجاربك العالمية . أنت تعمل في المستشفيات وفي حجرات التشريح فلا يؤثر
فيك ما تفعله من تقطيع ونبت ببحث الموتى . ولو أنك وجدت هذا الرجل

طريحا على مائدة في معمل أو في حجرة من حجرات التشريح المتقبضة ، وفي المائدة أحواض حفرت لبسيل فيها دمه الجارى لنظرت إلى هذا الرجل نظرك إلى موضوع لذيد التجربة ، فلا تضطرب نفسك ولا يحول بخاطرك أنك تأتى أمراً تلام عليه . بل على العكس من ذلك قد تشعر بأنك تسدى إلى النوع الإنسانى خدمة جلى أو أنك تضيف إلى التراث العالمى الذى يحرص عليه البشر كل هذا الحرص أو أنك ترضى فضولك العقلى أو أى شىء يدخل فى حكم ذلك . وكل ما أظلمه إليك هو أن تقوم بهذا الذى تقوم به كل يوم . بل إن إفناء جثة لا يقاس فى بشاعته بما ألفتته من أعمال . واذكر أن وجود هذه الجثة هو الدليل الوحيد على أنى قاتل هذا الرجل فاذا افتضح أمرها هلكت ، وأمرها لاشك مفتضح إلا أن تساعدنى يا آلان .

— ولكنك تنسى أنى لا أرغب فى مساعدتك . وأنا لا أكرث بك أو بقصتك أو بمصيرك ، ولا علاقة لى أصلاً بهذا الموضوع .

— أضرع إليك يا آلان أن تساعدنى . فكر فى حرج مركزى . لقد كاد أن يصيبنى إغماء من فرط هلعى قبل مجيئك بدقائق . ولقد تعرف معنى الهلع فى يوم من الأيام لو أصابك بعض ما أصابنى . ولكن دعنا من هذه الأفكار السوداء . دعنا من الهلع . ولتفكر فى الأمر تفكيرك فى تجربة عملية لاغير . وأنت لا تستقصى عن الأموات الذين تجرى تجاربك عليهم ، فلا تستقص الآن عن هذا الميت . لقد بحث لك بما كان لا ينبغى أن أبوح به . ولكنى أضرع إليك أن تنقذنى . وتذكر يا آلان أننا كنا فى الماضى صديقين .

— لاتذكر تلك الأيام يادوريان ، فلقد ماتت .

— إن بعض الموتى باقون . فالرجل الميت بأعلا البيت باق . وهو جالس بجوار المائدة محنى الرأس ممدود الذراعين . استحلفك يا آلان أن تساعدنى ، فلو لم تساعدنى لكنت فى ذلك نهايتى . المشنقة يا آلان . ألا تفهم ؟ سوف أشق جزء ما فعلت .



صفحة ٢٥٤

فقد رأى أمامه وجهها اجتمعت فيه
نضارة الصبا وطهارة الشباب . . .

— لست أرى ما يدعوا لإطالة هذا المشهد فلنقصر القول . أنا أرفض
وفضاً باتاً أن تكون لي صلة بهذه المسألة ، وقد كان خيلاً منك أن
تطلب هذا مني .

— أترفض .

— نعم .

— أضرع إليك يا آلان .

— لا تتعب نفسك .

فعدت إلى عيني دوريان جرای معاني الألم العميق ، ومد يده وتناول
قطعة من الورق وخط عليها بعض الكلمات ثم قرأها مرتين وطواها بعناية
وأزاحها على المائدة حتى استقرت أمام آلان كامبل . ونهض من مكانه
وسار إلى النافذة .

وأخذ كامبل يتأمله عجباً ثم تناول الورقة وقرأ ما فيها فشجب وجهه حتى
أضفى يحكي وجوه الأموات وتحاذل في مقعده ، وأحس بدوار شديد وسمع
قلبه يدق عنيفاً عالياً كأنه يدق في صندوق فارغ .

ومرت دقائق من الصمت المروع ثم التفث إليه دوريان ومشى نحوه
ووقف خلفه ووضع يده على كتفه وقال :

— يؤسفني أن أفعل ذلك يا آلان ، ولكنك لم تترك لي فرصة للاختيار
وهاهو خطاب قد كتبته فعلاً وتستطيع أن تقرأ عنوانه بنفسك . فإذا أنت لم
تساعدني وجدتني مضطراً إلى إرساله ، وأنت أدري الناس بنتيجته . ولكنك
ستساعدني ، فحال أن ترفض ذلك الآن . لقد كنت أود أن أعفيك من كل
ذلك ولكنك ألزمتني به إلزاماً ، ومن الانصاف أن تشهد لي بذلك ، وكنت
أنت معي عنيداً خشناً جارحاً في القول ، وما عاملني أحد قط معاملة
إياي ، على الأقل ممن لا يزالون أحياء يرزقون ، فاحتملت كل ذلك على مضض .
والآن جاء دوري لأملئ عليك شروطي .

فدفن كامبل وجهه في كفيه وارتجف .

— نعم يا آلان . الآن جاء دوري لأملئ عليك شروطي ، وأنت تعرف هذه الشروط ، والأمر ليس فيه تعقيد . تشجع ولا تقتل نفسك بالمسرات فلا محيد عما أنت قادم عليه ، فأقدم عليه دون تفكير .

وصعدت من صدر كامبل أنه وأهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وسمع الساعة القائمة على سطح المدفأة تدق . فبداله أن دقائقها تقسم الزمن إلى جزئيات من العذاب الذي لا سبيل إلى احتماله . وأحس كأنما حلقة حديدية قد احتوت رأسه وأخذت تضيق تدريجياً ، وهي له أن الفضيحة التي يهدده دوريان جرای بها قد نزلت به فعلاً . أما اليد التي ارتاحت على كتفه فقد خال أنها يد من الرصاص تبهظ كاهله وتوشك أن تسحقه سحقاً .

— والآل يا آلان ، لا بد أن تصل إلى قرار سريع .

فأجاب كامبل على صورة آلية كأن الكلام يغير الحقائق :

— لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه مني .

— بل لا بد أن تفعله ، ولا خيار لك في ذلك . احزم أمرك ولا

تضيع الوقت .

فتردد كامبل لحظة ثم قال :

— أفي الغرفة العليا نار ؟

— نعم ، فيها مدفأة بغاز الاستصباح والأسبستوس .

— سأذهب إذا إلى المعمل لإحضار بعض الأدوات التي تلزم للعملية .

— كلا يا آلان لن تبرح هذا المكان ، فأكتب ما يلزمك من أشياء

على ورقة ، وسيذهب خادمي في عربة لإحضارها .

فكتب كامبل كلمة إلى مساعده وجفف الحبر ، وتناول دوريان الرسالة وقرأها بامعان ، ثم دق الجرس وناول الورقة لخادمه الخاص وسأله ألا يضيع وقتاً في إحضار محتويات الرسالة .

وما أن خرج الخادم وأقفل الباب وراءه حتى نهض كامبل في سرعة عصبية ومشى إلى المدفأة وكانت فرائصه ترتعد كأنه محموم . ومرت عشرون دقيقة كان الصمت فيها كاملاً لم تقطعه كلمة واحدة ، وطلت في الغرفة ذبابة تسبح في كل مكان ، وارتفعت دقات الساعة نغماً لها الرجالن ضربات مطرقة . ودقت الساعة الواحد . والتفت كامبل إلى دوريان جرای فوجد الدموع تنهمر من عينيهِ . وتأمل وجهه الرقيق الحزين فوجد في رقبته وحزنه ما أغضبته قال كامبل :

— أنت مخلوق منحنط ، مافى ذلك شك
فأجاب دوريان :

— صمتاً يا آلان . لقد أنقذت حياتي .
وما قيمة حياتك ؟ لقد تدهورت من سيئ إلى أسوأ حتى انتهت بك
الامر إلى الإعدام . وأنا إذ أقدم على هذه الفعلة التي تضطرنى إليها اضطراراً
لا أفكر في إنقاذ حياتك .
فتنهذ دوريان وقال :

— ليتك ترثى لحالى عشر معشار ما أرثى لحالك .
وفيا هو يقول ذلك انصرف إلى التأمل في حديقة بيته . أما كامبل فلم
يجب بشئ .

وبعد عشر دقائق طرقت الخادم الباب ودخل حاملاً صندوقاً جسيماً من
خشب الموجنة يحوى العقاقير المطلوبة ولفة طويلة من الأسلاك المصنوعة
من صلب وبلاتين وكلايتين من الحديد هيئتهما غريبة . وقال مخاطباً كامبل :

— أأترك هذه الأشياء هنا ياسيدى .

فقال دوريان :

— نعم يا فرانسيس ، ويؤسفنى أنى سأطلب منك شيئاً آخر . أتذكر
اسم بائع الأزهار فى رتشموند المتعهد بتوريد زهر الأوركيد إلى قصر ساجى .

— اسمه هاردن ياسيدى .

— نعم ، هاردن . اذهب بلا توان إلى رتشموند وقابل هاردن شخصياً وسله أن يرسل إلى سلبى ضعف الكمية التى يرسلها عادة وأن يقلل من عدد الاوركيد الأبيض بقدر المستطاع ، بل إذا أمكن تجنب الاوركيد الأبيض تماماً كان ذلك أنسب . إن اليوم صاف جميل يا فرانسيس ورتشموند حى أنيق ولولا علمى بأنك ستستمتع بالذهاب إليه لما أزعجتك بهذا الطلب .

— ليس فى الأمر إزعاج ياسيدى . متى تريدنى أن أعود ؟

فنظر دوريان إلى كامبل وسأله فى هدوء تام ، فقد أكسبه وجود شخص ثالث بالغرفة شجاعة عظمى :

— كم ساعة ستستغرق التجربة يا آلان ؟

فعبس كامبل وعض شفته وأجاب :

— نحو الخمس ساعات .

— إذا عدت فى الساعة والنصف نكون قد فرغنا من التجربة . اسمى يا فرانسيس . أعدلى ملابس السهرة واتركها فى غرفتى . وبعد ذلك تستطيع أن تكون مطلق الحرية فى المساء فلن أحتاج إليك لأنى سأتعشى فى الخارج هذه الليلة .

قال الرجل وهو ينصرف :

— شكراً ياسيدى .

والتفت دوريان إلى آلان كامبل وقال يستعجله بالهجة الأمر الناهى مما جعل كامبل يحس بأنه آلة مسيرة :

— والآن يا آلان يجب أن نعجل بالعمل فالوقت ثمين . ما أثقل هذا الصندوق . سأحملة أنا أما أنت فلتحمل الأشياء الأخرى .

وخرج الرجلان من الغرفة معاً . ولما بلغا قمة السلم أخرج دوريان المفتاح من جيبه وأداره فى الباب ثم توقف واعتراه الجزع واضطرب أيما اضطراب

وقال متخاذلاً :

— أعتقد أنني لن أقوى على الدخول يا آلان .

فقال كامبل ببرود :

— هذا لا يهمنى ، فلن أحتاج إليك .

وفتح دوريان الباب قليلاً ، فرأى وجهه فى الصورة تحت ضوء الشمس ينطق بالخبث والشهوة الصريحة ورأى الستار المعزق ملقى على الأرض أمام الصورة ، فتذكر أنه فى الليلة السابقة قد نسى للمرة الأولى فى حياته أن يحجب اللوحة النكراء وكاد أن يندفع إليها لينشر عليها الستار ولكنه ارتد واجف القلب فرعاً .

لقد رأى على إحدى يديه فى الصورة بقعة حمراء قبيحة المنظر تلمع كقطرات الدم البليل فمن أين للصورة هذه البقعة الحمراء ؟ كأنما اللوحة قد نضحت دماً ! وأربعه هذا أكثر مما قد يربعه منظر الجثة الصامتة التى تنتظره داخل الحجرة مسترخية على المائدة لو أنه رآها . ورأى ظلها الممسوخ ملقى على البساط الملطخ بالدم فعرف أنها لاتزال فى مكانها حيث تركها ليلة أمس . وملاً رثيته بالهواء لعله يتشجع ودفع الباب قليلاً واندفع فى الغرفة مغمض العينين يكاد لا يرى شيئاً ، وانصرف بوجهه عن جثة القتيل جاهاً ألا يراه ، وانحنى ورفع الستار الملون بالذهب والأرجوان ونشره على الصورة فأخفاها .

ثم توقف لحظة وخشى أن تقع عيناه على الجثة إن هو حاول العودة . فذهب يتأمل الوشى المرسوم على الستار . كل ذلك وكامبل يدخل الصندوق الثقيل والأشياء الأخرى فى جلبة مسموعة . وبدأ دوريان يفكر . ترى هل يعرف كامبل بازيل هولورود ؟ فرضاً هو يعرفه ، ولكن كيف كانت صلته به . واخيراً سمع الصوت الجاف يقول له :

— والآن ، فلتخرج .

فاستدار دوريان وخرج مسرعاً وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على وجه القتييل بعد أن رده كامبل إلى موضعه الطبيعي على المقعد ، ورأى كامبل يتفرد في وجهه الأصفر اللامع . وفيما هو ينزل على السلم سمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب .

وبعد الساعة السابعة بفترة طويلة دخل كامبل المكتبة ، وكان وجهه شاحباً ولكنه كان مثلاً للهدوء . قال :

— لقد أنجزت ما طلبته مني والآن وداعاً ، وأرجو ألا نلتقي مرة أخرى . فقال دوريان في بساطة :

— أنت أنقذتني من موت محقق يا آلان ، ولن أنسى لك هذا الصنيع . وبعد أن خرج كامبل صعد دوريان إلى الغرفة العليا . فلأت أنفه رائحة قبيحة هي رائحة حامض النتريك . ولكنه لم يجد الجثة التي كانت جالسة بجوار المائدة .

الفصل الخامس عشر

*

في الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة كان خدم الاليدى ناربورو يعملون قدوم دوريان جراى وينحنون تحية له . وكان دوريان جراى آية في الأناقة ، يحلى عروته بمجموعة من بنفسج پارما . وكانت عروق جبهته تدق دقاً متواصلاً وكانت نفسه شديدة الاضطراب ولكنه ظهر على سجيته الجميلة حين انحنى ليقبل يد ربة البيت ولم تحنه رشاقته المعهودة . فلعل الانسان لا يحس بأنه على سجيته إلا حين يمثل دوراً . ومهما يكن من شيء فما من أحد رأى دوريان جراى في تلك الليلة كان يتوهم أنه مر بمأساة فاجعة دونها كبار المآسى . فتلك الأصابع الدقيقة ما كانت لتمسك مدينة السفاح ، وتلك الشفتان الباسمتان ما كانتا لتدنسا اسم الله أو تكفرا بخيره العميم . ولقد روعه ما رآه في نفسه من هدوء في المظهر واتزان في السلوك ومرت به لحظة غنى فيها لو يحيا بشخصية مزدوجة .

وكان الحفل صغيراً يضم عدداً قليلاً من الناس دعته الاليدى ناربورو على وجه السرعة ، والاليدى ناربورو امرأة نادرة الذكاء عليها ، بلغة اللورد هنرى ، بقايا قبح قديم ، وقد كانت زوجة فضلى لسفير من سفرائنا الثقلاء ، وبعد أن دفنت زوجها بما يقضى به الواجب في قبر من المرمر وضعت هي تسميمه بنفسها ، وبعد أن زوجت بناتها لبعض الأثرياء المتقدمين في السن ، بعد أن فعلت هذا وذاك تفرغت للاستمتاع بالقصص الفرنسى وبالمطبخ الفرنسى وبالذكاء الفرنسى كما وجدت إليه سبيلاً .

وكان دوريان من المقربين إليها ، وكانت تقول له في كل مناسبة إنها

سعيدة الحظ لأنها لم تقابله وهي في شبابه . كانت تقول « لو انني عرفتك في تلك الأيام يا صديقي دوريان لكان من المحقق أن أجن بحبك ، ولكان من المحقق أن أفسد كل شيء في سبيلك . فمن حسن حظي أنك لم تكن قد جئت بعد إلى الوجود . ولكن الحياة في تلك الأيام لم تكن كالحياة في هذه الأيام ، وهكذا ضاع شبابي دون أن أغازل رجلاً ولو على البعد من أين لي فرصة الحب ؟ لقد كان زوجي اللورد ناربورو قصير النظر إلى درجة كبيرة وأى لذة تجدها امرأة في الزواج من رجل لا يرى شيئاً أصلاً . على أن هذا كان عيبه الوحيد » . لكن الضيوف كانوا ثقلاء إلى حد كبير . وقد شرحت لدوريان حقيقة الأمر فقالت من وراء مروحتها الزرية المهلهلة إن إحدى بناتها قد هبطت عليها فجأة بنية الإقامة واصطحبت معها زوجها مما زاد من ضيقها . ثم همست في أذنه قائلة : « اعتقدي عزيزي أن هذه وحشية منها لا تغتفر . صحيح أنني أهبط عليهما كل سنة وأقيم بينهما طول الصيف بعد عودتي من هومبرج ، ولكن هذه مسألة أخرى ، فسيده عجوز مثلي تحتاج إلى تغيير الهواء من وقت إلى وقت ، ثم إنني أمتنعها من النوم المبكر ، وهذه خدمة عظيمة أسديها لها . فأنت لا تستطيع أن تتصور كم الحياة مملة عندها . هي حياة رقيقة بكل ما في الكلمة من معنى ، فهما يستيقظان مبكراً لكثرة الأعمال وهما ينامان مبكراً لقلة الأفكار . وناحيتهما لم تحدث فيها فضيحة منذ عصر الملكة اليصابات ، ولهذا فهما ينامان بعد الظهر . سوف أنقذك يا دوريان من حديثهما الثقيل ، فكانك من المائدة بجانبني لتفتح نفسي بحديثك الشهى » .

فرد عليها دوريان بمجاملة رقيقة وتلفت في أنحاء الغرفة فلم يجد إلا جماعاً من ثقلاء القوم . وكان بينهم شخصان لا يعرفهما أما الباقيون فقد تبين منهم إرنست هارودن وهو كهل تافه من أولئك الكهول التافهين الذين يملأون نوادي لندن ، ممن لا أعداء لهم ولكن أصدقاءهم يكرهونهم كرهاً تاماً ، ثم

الليدى ركستون وهى امرأة فى السابعة والأربعين من عمرها مقوسة الأنف
تترن بلا حساب اجتهدت ما وسعها الاجتهاد أن تثير الغبار حول سمعتها
ولكن أحزنها أن الناس لا يصدقون ما يقال عنها لفرط دمامتها ، ثم مسز
إرلين وهى امرأة لا قيمة لها كثيرة الجلبة ، فى كلامها لثغة جذابة وشعرها
أحمر ، ثم الليدى أليس تشامان ابنة الليدى ناربورو ربة البيت ، وهى امرأة
رثة الهيئة ملامحها من تلك الملامح الشائعة فى بريطانيا ، إن رأيتها مرة لم
تذكرها بعد ذلك . ثم زوجها اللورد تشامان وهو رجل أحمر الخدين أبيض
السوالمف يحسب أن الإفراط فى التطرف يعوضه عن فقره الكامل فى الأفكار .
وأحسن دوريان بالندم على قبول الدعوة ثم رأى الليدى ناربورو تنظر
إلى الساعة المذهبة القائمة على قمة المدفأة المسكوسة بقطعة من القماش البنفسجى
وسمعتها تقول :

— أليس توحشاً من اللورد هنرى أن يتأخر كل هذا التأخير : لقد
أرسلت إليه دعوة هذا الصباح دون اتفاق سابق ، ولكنه وعد أن يقبل
جميع دعواته .

فلما عرف دوريان أن هارى قادم وجد فى هذا العزاء الكافى ، فلما أن
سمع الباب يفتح وصوته الرخيم الهادى . يرتفع بالاعتذار على طريقته الجذابة
ونفاقه المتقن هداً بالله وزال ما به من الضيق .

ولكنه لم يأكل إلا قليلاً فى العشاء . وجاءته الصحف واحدة بعد
أخرى دون أن يمسيها . وأخذت الليدى ناربورو تعنفه على عزوفه هذا ،
ووصفت امتناعه عن الأكل بأنه إهانة لطاھيها « أدولف المسكين الذى
اختار قائمة الطعام خاصة لتناسب ذوق دوريان بالذات . » أما اللورد هنرى
فقد كان ينظر إليه من وقت إلى آخر عاجباً لصمته وشرود فكره . على حين
كان رئيس الخدم يمر به فى فترات متقطعة ويملاء كأسه بالشمپانيا فيشربها
كالظمان وما ارتوى بل زادته الحمر ظمناً إلى الحمر .

وأخيراً قال اللورد هنرى قرب انتهاء العشاء :

— ماذا دهالك الليلة يا دوريان ؟ يبدو أنك متوعلك المزاج تماماً .

قالت الليدى ناربورو :

— أعتقد أنه عاشق ، وهو يخشى أن يطلعنى على أمره فتثور فى صدرى

الغيرة ، وله العذر فى ذلك ، فأنا امرأة شديدة الغيرة .

فقال دوريان مبتسماً :

— يا سيدتى الليدى ناربورو ، أنا لم أذق الحب أسبوعاً كاملاً ، أى منذ

أن تركت مدام فيرول لندن .

فصاحت به السيدة العجوز قائلة

— عجباً لكم يا معشر الرجال ، كيف تستطيعون أن تحبوا امرأة كهذه .

هذا ما يحيرنى فيكم .

قال اللورد هنرى :

— السبب بسيط وهو أنها تتذكرك حين كنت تلبس فساتين قصيرة

يا ليدى ناربورو ، فهى حلقة الوصل الوحيدة الباقية بيننا وبين فساتينك القصيرة .

— هذا غير صحيح فهى لا تستطيع أن تتذكر فساتينى القصيرة مطلقاً

بالورد هنرى . أما أنا فأستطيع أن أتذكرها تماماً حين كانت فى ثيئنا منذ

ثلاثين عاماً وقد كانت عندئذ تسرف فى كشف صدرها .

قال اللورد هنرى وهو يتناول زيتونة بأصابعه الطويلة :

— وهى لا تزال تسرف فى كشف صدرها . وحين تهل علينا بفستان

أنيق تبدو كطبعة فاخرة من قصة فرنسية تافهة . إنها لسيدة العجائب ، وإنى

لمعجب بها كل الاعجاب . فهى تستطيع مثلاً أن تحب أهلها إلى حد يلفت

الأنظار . وحين مات زوجها الثالث اصفر شعرها من فرط الحزن .

فصاح به دوريان قائلاً :

— هذا اجترأ منك يا هارى !

وضحكت ربة البيت وقالت :

— هذا تفسير ممتع ، ولكن كيف تقول إن زوجها الثالث مات ؟ أتعنى

أن السيد فيرول هو الرابع ؟

— بالتأكيد يا ليدى ناربورو .

— هذا مستحيل .

— سلى مستر جرای إذا ، فهو من أقرب المقربين إليها .

— أضحیح ما يقوله اللورد هنرى با مستر جرای ؟

فأجاب دوريان قائلاً :

— هذا ما أكدته لى بنفسها يا ليدى ناربورو ، وقد سألتها أكانت

تحنط قلوب أزواجها وتعلقها في زناها كما كانت تفعل مرغريت دى ناغار

فأجابتنى بالنفى لأن أزواجها لم تكن لهم قلوب .

— أربعة أزواج ! يا لها من شهية عظيمة !

قال دوريان :

— بل يا لها من جرأة عظيمة ! هذا ما أقوله لها دائماً .

— إن جرأتها تتسع لكل شيء يا عزيزى . ولكن حدثنى عن فيرول

فأنا لم أره حتى هذه اللحظة .

قال اللورد هنرى وهو يشرب بعض النبيذ :

— إن أزواج النساء الرائعات الحسن ينتمون عادة لطبقة المجرمين .

فضربته اليدى ناربورو بمروحتها وقالت :

— لاغرو أن يصفك كل من في العالم بأنك رجل شري .

قال اللورد هنرى متكلفاً الدهشة :

— ولكن أى عالم يصفنى بهذا الوصف ؟ إن علاقتى مع هذا العالم على

أحسن ما يرام ، فلا بد أن يكون العالم الآخر .

فهزت السيدة العجوز رأسها وقالت :

— كل من أعرفهم يصفونك بأنك رجل شرير .
 بدا الجدل على وجه اللورد هنرى لحظة أو لحظتين ثم قال :
 — هذه خسة من الناس أن يفتابوا المرء بالحقائق الصادقة ، وأنا
 أستنكرها .

ومال دوريان في مقعده إلى الأمام وقال :
 — إن اللورد هنرى لا رجاء في إصلاحه . ألا توافقين يا ليدى ناربورو ؟
 أجابت ربة البيت ضاحكة :
 — ليته يبقى على حاله ، ولكن إذا ظل الرجال يهيمون بمدام دى فيرول
 على هذا النحو المضحك فسوف أتزوج من جديد لأستفيد من ذوق العصر .
 فقاطعها اللورد هنرى قائلاً :

— كلا يا ليدى ناربورو . إن مثلك لا يتزوج مرتين ، فأنت في سعادة
 تحميك من هذا الخطأ إن المرأة تتزوج مرتين إذا كانت تمقت زوجها الأول ،
 أما الرجل فيتزوج مرتين إذا كان يعد زوجته الأولى . في الزواج تجرب
 النساء حفظهن أما الرجال فيقامرون بحفظهم .

قالت السيدة العجوز .

— إن زوجي لم يكن كاملاً .

فأجاب اللورد هنرى :

— هذا من حسن حفظه ، فلو أنه كان كاملاً لضقت به يا سيدتى العزيزة .
 إن النساء يعشقننا لعيوبنا . فكلما زادت عيوبنا اغتفرن لنا أخطاءنا ، حتى
 جريمة التفكير يغتفرنها . وأنا أخشى يا ليدى ناربورو أن تكفى عن دعوتى
 للعشاء بسبب ما قلت ، ولكنى ما قلت غير الحق .

— بالطبع أنت لم تقل غير الحق يا لورد هنرى . ولو أننا معشر النساء
 لم نعشق فيكم عيوبكم فكيف يكون حالكم إذا ؟ لولا ذلك لما وجد رجل
 واحد امرأة تقبل أن تتزوجه . لولا ذلك لبقيتن جماعة من العزاب التعتسا .

ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً ، ففي هذه الأيام نجد أكثر المتزوجين يعيشون عيشة العزاب وأكثر العزاب يعيشون عيشة المتزوجين .

قال اللورد هنرى .

— هذه نهاية القرن .

فأجابت ربة البيت :

— بل هذه نهاية العالم .

وتهدد دوريان جرای وقال :

— ليتها كانت نهاية العالم . إن الحياة قد خيبت أملى فيها .

فصاحت الليدى ناربورو وهي تلبس قفازها قائلة :

— لا تقل يا صديقى أنك قد أتيت على كل ما فى الحياة من أسباب

السعادة . حين أسمع رجلاً يقول هذا الكلام أعرف أن الحياة قد آتت عليه .

إن اللورد هنرى رجل شرير وإنى لأغبطه على ذلك أحياناً ، أما أنت فقد خلقت لتكون نموذجاً للخلق الجميل ، ووجهك الجميل يدل على ذلك . دعنى أبحث لك عن زوجة صالحة . ألا تعتقد يا اللورد هنرى أن مستر جرای قد بلغ من الزواج ؟

انحنى اللورد هنرى بأدب وأجاب :

— هذا رأيى الثابت يا الليدى ناربورو ، وطالما ذكرته له .

— إذاً فلنبدأ فى البحث له عن زوجة تناسبه . سأحضر الليلة الفتيات

اللاتى يصلحن لذلك بعناية وأعد له قائمة بأسمائهن .

فسألها دوريان قائلاً :

— وبأعمارهن كذلك يا الليدى ناربورو ؟

— بطبيعة الحال ، ولكن أعمارهن ستكون محرفة تحريفاً طفيفاً .

ولا داعى للعجلة فأنا أحب أن أتوسط له فى زواج تصفه « المورننج بوست » بأنه زواج مناسب ، كما أحب له ولزوجته أن يسعدا بهذا الزواج .

فقال اللورد هنرى :

— إن الناس يكثر من الكلام الفارغ في موضوع السعادة الزوجية .
فأرجو أن يستطيع أن يسعد مع أى امرأة فى العالم إن كان لا يحبها .
قالت السيدة العجوز وهى تدفع مقعدها إلى الوراء وتحنى رأسها تحية
لليدى ركتون :

— يالك من ساخر قاس . لابد أن تأتى للعشاء ثانية فى المستقبل القريب
فأنت خير دواء يزيل عنى الصداع ، بل أنت أنقذت من الدواء المقوى الذى
أوصانى به السير توماس اندروز ، ولكن أشتر على بمن تحب أن تقابلهم من
الضيوف حتى يكون الحفل بهيجاً .
فأجاب :

— أحب أن أقابل من الرجال من لهم مستقبل ومن النساء من هن
ماض . ولكن أخشى أن تقتصر حفلتك بهذا على النساء فقط .
فضحكت اليدى ناربورو ثم نهضت وهى تقول :
— هذا ما أخشاه أنا أيضاً .

ثم أضافت تعتذر عن تركها المائدة :

عفواً يا عزيزتى اللىدى ركتون فقد حسبت أنك فرغت من
التدخين .

— لاداعى للاعتذار باليدى ناربورو ، فالواقع أنى أدخلت أكثر مما
يجب ، وقد قررت أن أحدد الكمية التى أدخلتها فى المستقبل .
قال اللورد هنرى :

— أرجو ألا تنفذى هذا القرار يا ليدى ركتون ، فالاعتدال يقضى
على بهجة الحياة . الاعتدال يذكرنى بحياتنا اليومية أما الإفراط فيذكرنى
بالولائم والأعراس .

فنظرت إليه اللىدى ركتون عاجبة وقالت وهى تنصرف :

— أرجوك أن تزورنى ذات مساء يا لورد هنرى لتشرح لى هذه النظرية .
وصاحت الليدى ناربورو وهى تقف بالباب :

— سنصعد نحن إلى الصالون العلوى ونترككم لتتحدثوا فى السياسة
وفى أعراض الناس ، ولكن لا تطيلوا البقاء وإلا وجدتمونا فى معركة شديدة .
فضحك الرجال . وانتقل مستر تشايمان من نهاية المائدة إلى رأسها ،
وانتقل دوريان جرای إلى جوار اللورد هنرى . وبدأ مستر تشايمان يتكلم
بصوت عال عما يحدث فى مجلس العموم . وأخذ الحلاس فى الرد على معارضيه
حتى أنساه آداب المناقشة . وأكثر من استعمال عبارة « أفكار نظرية »
وهى الأفكار التى تخيف العقل البريطانى الضيق . ولم ينس أن يفوّف أقواله
بالتراكيب البلاغية . ولم ينس أن يضع العلم البريطانى على قمم التفكير الإنسانى
ولم ينس أن يسمى غباوة الشعب البريطانى الموروثة بالدوق العام ، ويمتدحها ،
ويزعم أنها درع المجتمع الواقع .

وابتسم اللورد هنرى حين سمع هذا الكلام ثم انصرف إلى دوريان وسأله :

— أتخسنت حالتك الآن يا دوريان ؟ لقد بدا عليك الإعياء أثناء العشاء .

— أنا على خير مايرام ، وكل ما فى الأمر أنى متعب .

— لقد سحرت جميع الحاضرين فى حفلة الأمس يا دوريان ، والدوقة

العجوز تحبك حباً جما . وقد قالت لى إنها ستزورك فى سلى .

— نعم ، وعدت بأن تأتى فى العشرين من هذا الشهر .

— وهل سيزورك مونتماوث كذلك .

— نعم يا هارى .

— إنه شخص ثقيل على نفسى ثقيل على نفس الدوقة . ورأى فى الدوقة

أنها نادرة الذكاء ، بل أنها أذكى مما يجوز لامرأة أن تكون . ولكن ينقصها
ذلك السحر الذى يمكن فى ضعف النساء . يقولون إن المعبودات ذاتها لها
أقدام من الصلصال وأن الصلصال يصلها بالأرض مما يفسد ألوهيتها . ولكنى

أقول إن الصلصال يزيد من ألوهية المعبودات . وقدماء الدوقة تقفن الناسكين ولكنها ليست من الصلصال بل من الصينى الأبيض إذا أُحْبِيت ، وقد احترقتا بنيران الحياة ، والنيران كما تعلم تقوى مالا تستطيع أن تتلقه . إنها من صاحبات الاختبار الواسع .
فسأله دوريان قائلاً :

— هل مضت على زواجها فترة طويلة ؟

— هي تقول إنه مرت على زواجها آباء . ولكنى أقدر هذه الآباء بعشر سنوات لأن زوجها لم يرث القلب إلا منذ عشر سنوات . وعشر سنوات فى عشرة رجل كموثاوث لابد تبسو آباء وآباء ، فتقديرها لا يدهشنى . ولكن حدثنى عن ضيوفك الآخرين .

— سيكون بينهم آل ويلوبى واللورد رجبى وزوجته ، والليدى ناربورو ، وجفرى كلاوستون وبقية الرهط الذى تعرفه . وكذلك دعوت اللورد جروتريان .

قال اللورد هنرى :

— أنا أحب اللورد جروتريان وإن كان أكثر الناس لا يحبونه . فهو فى نظرى رجل جذاب وإذا كان من رذائله الإسراف فى التزين فهو يكفر عن ذلك بالإسراف فى الإطلاع . إنه نموذج للرجل العصرى .

— لست واثقاً من أن ظروفه ستسمح له بقبول الدعوة ، ياهارى ، فقد يضطر إلى السفر مع أبيه إلى مونت كارلو .

قال اللورد هنرى :

— ما أثقل الآباء يادوريان ! أرجوك أن تلج على المجيء . ولكن خبرنى يادوريان ، لقد تركتني فى وقت مبكر ليلة الأمس ، تركتني قبل الساعة الحادية عشرة ، فإذا فعلت ببقية الليلة ؟ أعدت إلى بيتك مباشرة ؟

فنظر إليه دوريان نظرة سريعة وأجاب عابساً :

— كلا ، يا هارى ، لم أعد إلى بيتى إلا قرب الساعة الثالثة .

— أذهبت إلى النادى ؟

— نعم .

ولكنه عض شفته وصحج كلامه قائلاً :

— كلا . أقصد أنى لم أذهب إلى النادى ، بل تجولت فى الطرقات . لقد

نسيت الآن ما فعلته ليلة الأمس . ما أشد فضولك يا هارى ! إنك تحب دائماً أن تعرف ما كنت أفعله وأنا أحب دائماً أن ألقى ما كنت أفعله . لقد عدت إلى بيتى فى الثانية والنصف بالضبط إذا كان تحديد الزمن يهمك . ثم تبين لى أنى قد نسيت المفتاح فى البيت ففتح الباب لى خادمى . وإذا شئت أن تتحقق من صدق هذه الرواية فعليك به ، سه كما تشهى .

فقال اللورد هنرى مظهرأ عدم الاكتراث :

— وما شأنى بكل هذا ؟ هيا بنا إلى الصالون يا دوريان . أشكرك يا ماستر

تشايمان ، فلست أريد المزيد من التنبؤ . لقد حدث لك حادث يا دوريان فقص على ما جرى . إنك هذه الليلة لست على عهدى بك .

— لاتهم بأمرى يا هارى . فأنا الآن منحرف المزاج شديد التهيج .

وسأزورك غداً أو بعد غد على أكثر تقدير . وأرجوك أن تعتذر عن

انصرافى إلى الليدى نارورو نيابة عنى فأنا راجع إلى دارى . نعم . لا بد أن

أرجع إلى دارى .

— حسناً يا دوريان . أرجو أن أراك غداً فى وقت الشاى ، ولسوف

تجد الدوقة عندى .

— سأبذل كل المستطاع يا هارى .

وانصرف . وفيما كانت عربته تحب به صوب بيته عاوده شعور الفزع

الذى ظن أنه قد كبته فى نفسه . فالأسئلة العارضة التى ألقاها عليه اللورد

هنرى قد أفقدته السيطرة على أعصابه ولو إلى حين ، وهو لا يزال بحاجة إلى
 أزان الأعصاب . ففي بيته أشياء قد تجره إلى المشقة ، ولا بد من القضاء
 عليها تماماً . وكان مجرد التفكير في أنه سيمسها يقبض نفسه . ولكنه كان
 يعلم أنه لا مفر له من تدمير أمتعة بازيل هولورود . فما أن دخل المكتبة
 وأقبل بابها بالمفتاح حتى فتح السكوة الخفية واستخرج منها معطف بازيل
 هولورود وحقيقته . وكانت في المدفأة نار مشبوبة فالقى فيها قطعة أخرى
 من الخشب ليدكها . وامتلات الغرفة برائحة الملابس المحترقة والجلد المحترق .
 ولم يفرغ من تدمير كل شيء إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة . وبعد أن انتهى كل
 شيء أحس بدوار شديد وإعياء مروع . ثم أحرق بعض الطيوب المغربية في
 إناء نحاسي محروق وغسل يديه وجبهته في خل بارد معطر بالمسك .

وخفاة اضطرب قلبه ولمع في عينيه بريق غريب وانشأ يعرض شفته السفلى
 بقوة نصبية . وكان بين الناقدتين خزانة ضخمة من فلورنسا صنعت من
 ابنوس مطعم بالعاج وحجر أزرق كريم . وشخص بصره إلى الخزانة كأن
 بها قوة سحرية أو قوة رهيبة . كأن بها شيئاً تتوق نفسه إليه وتبغضه
 في آن واحد . وتلاحقت أنفاسه في سرعة وتملكه نهم شديد . وأشعل
 سيجارة ثم قذفها بعيداً عنه ؛ وارتجى جفناه حتى كادت أهدابه الطويلة أن
 تمس خديه . ولكن بصره لم يتحول عن الخزانة . وأخيراً نهض ومشى إليها
 وادار فيها مفتاحاً ثم ضغط على زر خفي فبرز منها درج مثلث الشكل قليلاً
 قليلاً . وامتدت أصابعه إلى الدرج على غير وعى منه وغاصت فيه وأمسكت
 بشيء ما . أمسكت بصندوق صيني صغير دهانه أسود وذهبي دقيق الصنع
 جوانبه محلاة بخطوط تشبه الأمواج ، وقد ركبت فيه خيوط من حرير
 تدلت منها بلورات مستديرة وأسلاك معدنية كأنها الشعر المضفور . وفتح
 للصندوق ، فوجد بداخله معجوناً أخضر يباع لمعان الشمع له رائحة
 نقاذة لا تستهلك .

وتردد بضع لحظات . وكانت على شفتيه ابتسامة ثابتة غريبة . ثم مشى
في أوصاله رعدة رغم الحرارة الخائقة التي تملأ الغرفة ، وجمع أشتات قوته
ونظر إلى الساعة فوجدها قرب منتصف الليل . وأعاد الصندوق إلى مكانه
وأغلق الخزانة ، وآوى إلى غرفة النوم .

ودقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل ، وكان دوريان جرای قد استبدل
ثياب السهرة بثياب أخرى عادية ، ولف حول عنقه كوفية وأنسل خارجاً من
داره . وفي بوندستريت وجد عربة فاستوقفها وهمس في أذن الحوذي
بالعنوان الذي يبغيه .

وهز الحوذي رأسه قائلاً :

— هذا مكان بعيد ياسيدي ولا أستطيع أن أحملك إليه .

فنفخه دويان بجنيته وقال :

— أعدك بمثله إن أسرعت في الطريق .

فأجاب الرجل :

— حسناً ياسيدي . سوف تبلغ المنزل في أقل من ساعة .

وبعد أن وضع أجره في جيبه لوى أعنة جياده ، وركضت العربة في
اتجاه نهر التيمس .

أن
أبو
الحاء
يتشأ

أن
وتذ
النف
هذ
جد
ويح

الص
عن
المع
يع
الآ
بال

الفصل السادس عشر

*

بدأت الأمطار الباردة تهطل وبدأت مصابيح الشارع كالأشباح الخفيفة بعد أن ابتلت بالماء واختنق نورها . وكانت الحانات لا تزال تغلق أبوابها وعند أبوابها تكاثر الناس في جماعات متفرقة وقد أخفى الظلام معالمهم . ومن بعض الحانات ارتفعت ضحكات مؤذية للسمع ومن حانات أخرى كان السكارى يتشاجرون ويصرخون .

وفي العربة استلقى دوريان وقد جذب قبعته إلى الأمام حتى أوشكت أن تغطي عينيه ، وطمق يتأمل المدينة العظيمة ومخازنها في أعجاز الليل . وتذكر قول اللورد هنري له يوم لقاءهما الأول : « إن سر الحياة هو شفاء النفس عن طريق الحواس وشفاء الحواس عن طريق النفس » . وتذكر أن هذا السر سره الذي جربه المرة بعد المرة فلم يخيب ظنه . وها هو يجربه من جديد في هذه الليلة ويجربه في أوكار الأفيون حيث النسيان يباع ويشترى ، ويجربه في بؤر الفساد حيث تمحو ذنوب اليوم الصارخة ذنوب الماضي القديم . وتدلى القمر الشاحب حتى كاد أن يمس قمم المنازل وبدأ في السماء كالجمجمة الصفراء . وبين وقت وآخر مرت غيمة هائلة لاشكل لها ولا حدود وحجبتة عن الأرض . وكلما تقدمت العربة في المسير ضاقت الشوارع أمامها وقلت المصابيح وازدادت المدينة كآبة . وضل الحوذي طريقه مرة فاضطر إلى أن يعود ما يقرب من نصف ميل . وكلما خاض الجواد في المياه المتخلفة من الأمطار ارتفع من حوله رشاش يشبه البخار . أما نوافذ العربة فقد اكتست بالضباب الأغبر .

وترددت عبارة اللورد هنرى في أذنيه طول الطريق . أجل . شفاء النفس
عن طريق الحواس وشفاء الحواس عن طريق النفس . وهذه روحه مريضة
تدب فيها المنية . وكيف تشفى روحه الحواس وقد سفك الدم البرىء ؟
وأى كفارة تغسل عنه هذا الذنب العظيم ؟ لا كفارة ، فمثل هذا الذنب
لا تغسله أنهار الدموع . ولكن إذا عز الغفران فالنسيان لا يزال مفتوحاً
سبيله ، وقد وطد العزم على أن ينسى ، على أن يسحق غصة الألم في نفسه كما
يسحق الأفعى بعد أن لدغته . فبأى حق استحل بازيل لنفسه أن يقف منه
موقف المعنف ؟ ومن ذا الذى أقامه في الناس قاضياً ؟ إن بازيل قد فاه
بعبارات مفزعة ، عبارات لا تحتل

والعربة في ركضها دائبة ، وخيل إليه أنها تقلل من سرعتها في كل شبر
تجتازه . فرفع الكبود وهتف بالجوذى أن يلهب جواده بالسوط . وبدأ
شوقه إلى الأفيون يأكله أكلا والتهب حلقه وانقبضت يداه الدقيقتان بحركة
عصبية . وضرب الجواد بعصاه للمجنون وضحك الجوى وضرب الجواد
بسوطه فضحك دوريان جرای . وتلا ذلك صمت .

وأحس بأن الطريق لا ينتهى ، وبدت له الشوارع المظلمة المتشعبة كأنها
نسيم عسكيات وضاق بالرحلة المملة ، ورأى الضباب يتكاثر من حوله
فأحس بالخوف .

ثم مر بخلوات يصنع فيها الطوب وفي هذه الخلوات كان الضباب أقل كثافة
منه في المدينة واستطاع أن يرى محارق الطوب التى تشبه الزجاجات في هيئتها
وأبصر ألسنة اللهب البرتقالية تصعد منها في صورة مروحة من النار . وسمع
في طريقه كلباً ينبج ، وسمع طائراً بحرياً تأهها يصرخ على المعد . وكبأ الجواد
في حفرة ثم انثنى وأسرع في الركض .

وبعد قليل خرجت العربة من الطريق الريفى وبدأت عجالاتها تجلجل على
طريق معبد خشن ، وكانت أكثر النوافذ مظلمة ، ولكن من وقت إلى آخر

انبعث النور من غرفة مضاة وظهرت على ستائرهما أشباح عجبية . وطلق دوريان جرای يتأمل هذه الأشباح في فضول فوجدها تتحرك كدمى الأراجوز وتشير بأيديها كما يشير الأحياء . وانقبضت نفسه لما رأى وامتلأ قلبه بغضب مكتوم . ودارت العربة في منعطف فسمع امرأة تصرخ به من مكانها في أحد الأبواب ورأى رجلين يعدوان وراء العربة نحو مائة ياردة ولكن الخوذي أحمل سوطه فيهما .

يقولون إن الانفعال يجعل العقل يفكر بطريقة دائرية ، وهذا ما حدث لدوريان جرای وهو يعرض شفته ويكرر قول اللورد هنرى ويستخرج منه المعاني الدقيقة ، حتى وجد في نظرية استشفاء الروح بالحواس خير معبر عن حالته وخير مبرر لما هو مقدم عليه ، ولو لم يجد المعبر أو المبرر لما غير هذا من أمره شيئاً . وانتقلت هذه الفكرة بين خلايا مخه واحدة إثر واحدة وطردت من رأسه كل ما عداها . وشجذت أعصابه المضطربة وألياف جسده الراجفة رغبة عارمة في الحياة ، وإرادة الحياة في الإنسان تكتسح أمامها كل إرادة . وبدأ يتذوق القبح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع بعد أن كان ينكر القبح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع . بل وجد أن القبح هو الحقيقة الوحيدة في الحياة . فالألفاظ النابية التي يسمعها في كل شجار ، والبؤر النكراء ، وفضاضة الحياة المضطربة وقسوتها ، وخسة اللصوص وضعة الأوباش والمنبوذين ، كل هذه بدت له أصدق تعبيراً عن الحياة الواقعة من النماذج الجميلة التي يختلقها الفن اختلاقاً والظلال الخاملة التي تملأ قريض الشعراء . وإذا كانت الحقيقة مرة شائبة فهو بحاجة إلى مرارتها وجوهرها الشائبة فهما تلهمانه النسيان . فليتنزل إلى الدرك السافل وبعد أيام ثلاثة سوف تبرأ روحه من جراحها .

ثم توقف الخوذي فجأة عند مبدأ زقاق مظلم فارتجت العربة . ورأى دوريان جرای صواري السفن ترتفع سوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة

ومن وراء مداخنها وفي الميناء رأى قطع الضباب الأبيض تحوّم في كل مكان كأنها قلع خرافية . وسمع الحوذى يسأله بصوت أجش :
 — العنوان في هذه المنطقة . أليس كذلك ؟
 وتنبه دوريان وبدأ يتلفت حوله ثم أجاب :
 — هذا يكفي .

وخرج من العربة مسرعاً وتقد الحوذى بما وعده به من مال ثم سار مستعجلاً في اتجاه رصيف الميناء . وكانت المصابيح تلمع هنا وهناك في مقدمة السفن التجارية الضخمة . واهتز النور وتفتت في الماء المتخلف من المطر وجاء ضوء أحمر من باخرة خارجة من الميناء كانت تتزود بنصيبها من الفحم . أما إفريز الشارع المغطى بالأوحال فبدأ كمعطف من الجلد مبتل .
 وانعطف إلى اليسار وأسرع في المسير وكان يلتفت إلى وراء بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفى أثره فلم يجد أحداً . وبعد سبع دقائق أو تزيد بلغ بيتاً حقيراً محشوراً بين مصنعين ضيقين . ورأى مصباحاً منيراً في أحد النوافذ العليا ، فتوقف ثم طرق الباب طرقة غير مألوف .

وبعد وقت قصير سمع ديبب أقدام في الدهليز ، وسمع سلسلة الباب ترفع ، وانفتح الباب بهدوء فدخل دون أن يقول شيئاً للشخص الممسوخ القصير القامة الذي فتح له الباب ثم توارى في الظلام . وفي نهاية القاعة تدلى ستار أخضر مهلهل أخذ يتأرجح يمنة ويسرة أمام الريح التي اقتحمت الباب أثناء دخوله . وجذب الستار ثم دخل في غرفة مستطيلة منخفضة السقف لعلها كانت في يوم من الأيام قاعة رقص من الدرجة الثالثة . واصطف على جدران الغرفة مصابيح الغاز الموقدة التي تترأزاً عالياً وقد طمست نورها وشوهته المرايا القذرة المصطفة قبالتها . ومن خلف المصابيح كانت هناك ألواح من الصفيح المضلع تعكس أنوارها في هيئة أقراص من النور المرتجف . وكانت الأرض مغطاة بنشارة الخشب الصفراء معجونة في مواضع عدة بأوحال

الشارع التي حملتها أقدام الداخلين وملطخة في مواضع أخرى بأثار النبيل المسكوب . وبالقرب من المدفأة قعد على الأرض رجال أصلهم من الملايو وذهبوا يلعبون بقطع من عظم على حين ظهرت أسنانهم بيضاء ناصعة أثناء الحديث . وفي ركن الغرفة رقد بحار على مائدة وعند البار الطويل الذي شغل جانباً كاملاً من جوانب الغرفة وقفت امرأتان شاحبتا الوجه تهكأن بشيخ كان ينظف كفيه في امتعاض واضح . وفيما كان دوريان يمر بهما سمع إحداها تقول ضاحكة : « إنه يتصور أن النمل قد ملأ كفيه » . ورأى الشيخ ينظر إليها فزعاً ثم يزججر .

وكان في نهاية الغرفة سلم صغير . وكان السلم الصغير يفضى إلى غرفة مظلمة . وفيما كان دوريان يقفز على درجات السلم الثلاث المتهاقطة صعدت في أنفه رائحة الأفيون القوية ، فلاً رثتيه منها واختلج أنفه انشراحاً . ودخل فوجد بالغرفة شاباً أصفر الشعر ناعمه قد انحنى فوق مصباح ليوقد منه بييمته . ونظر الشاب إليه ثم أوماً إليه بعد تردد . قال دوريان :

— لم أكن أتصور أنك هنا يا آدریان .

فأجاب الشاب في فتور :

— وهل بقي غير هذا المكان ؟ إن جميع أصدقائي قد أنكروني .

— كنت أحسب أنك خرجت من النجلترا .

— لم أجد داعياً لذلك لأن دار لنجتون لن يرفع الأمر إلى القضاء ، فقد سد أخى جورج قيمة الصك ، وهو الآن يقاطعني ، ولكنني لا أكرث ، فما بي حاجة إلى الأصدقاء طالما أنا أحصل على هذا الجوهر السحري ناسخ الأحزان . ثم إنني أعتقد أنني أسرفت في اختيار الأصدقاء .

وعبس دوريان حين سمع هذا الكلام وتلفت حوله ليتأمل الأجسام الزرية المستلقية على المراتب الممزقة في أوضاع عجيبه . فرأى السيقان المنتفخة والافواه المنفورة والعيون المنطفئة الشاحصة وسجره مرآها . فقد كان

يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية وما يسعدون به من نيران الجحيم .
 وخيل إليه أنهم أسعد منه حالا فهو البأس الذي يستهلك مهجته وتذهب نفسه
 حشرات ، وهو التاعس الحبيس في سجن الذكريات . الذكريات ؟ نعم . الذكريات
 ذكرياته التي تلتهم روحه كالمرض الخبيث . لقد رأى عيني بازيل هولوردد تحملقان
 فيه مراراً : وهو بحاجة إلى النسيان . ولكنه أحس بأنه لا يستطيع البقاء في
 ذلك المكان ، لأن وجود آدريان سنجلتون قد أزغجه وهو يرغب في أن يكون
 في مكان لا يعرفه فيه إنسان . وأراد أن يتخلص منه فقال بعد صمت قليل :
 — إني ذاهب إلى المكان الآخر .

— عند رصيف الميناء ؟

— نعم .

— سوف تجد هناك البغى المجنونة ، ما في ذلك ريب ، فقد طردوها
 من هذا المكان .

قال دوريان في استخفاف :

— إن نفسي زهدت النساء اللاتي يعشقنني فليت لي نساء يكرهنني .
 ومن ناحية أخرى أجد أن البضاعة هناك أجود نوعاً .

— لا أعتقد أن هناك فرقاً .

— أنا أفضلها على أية حال . تعال واشرب معي كأساً فأنا بحاجة إلى الشراب .
 قال الشاب :

— لست أرغب في شيء .

— سواء عليّ .

ونفض آدريان سنجلتون في إعياء وتبع دوريان إلى البار . وفي البار
 حياها منبوذ من منبوذي الهنود على رأسه عمامة مهلهلة وعلى كتفيه معطف
 جسيم ، حياها تحية خير منها السكوت ووضع أمامهما زجاجة من الكونياك
 وقدين . وأنتحت المرأتان مكاناً جانبياً وبدأتا تثرثان وأولاهما دوريان

ظهره وهمس في أذن آدريان سنجلتون ببعض الكلمات فابتسمت إحداها ابتسامة تشبه خنجر الملايو المنحني وقالت في تهكم :
— شرفتنا .

ولكن دوريان نهرها قائلاً وهو يضرب الأرض بقدمه :
— خير لك ألا تتكلمي . ماذا تريد مني ؟ إن كنت تريد مني مالا فها هو المال . ولكن إليك عني وحذار أن تكلمي بعد الآن .
فلمع الشرر في عيني المرأة الدامعتين قدر لحظة ثم انطفأت عينها وعادت جامدتين لا معنى فيهما . وهزت رأسها وخطفت النقود من الكونتوار بأصابع جشعة . وتحركت الغيرة في قلب صاحبتهما .
وتنهذ آدريان سنجلتون وقال :

— لا جدوى من التفكير في هذا فأنا لا أرغب في العودة ، والأمر عندي سواء لأنني سعيد هنا .

قال دوريان بعد صمت قليل :
— أنا أنتظر منك أن تكتب إلي كلما احتجت إلى شيء . أليس كذلك ؟
— ربما .

— طاب مساؤك إذا .

— طاب مساؤك

وعاد الشاب إلى السلم الصغير يصعده وهو يمسخ فيه الملتهب بمنديله .
أما دوريان فاتجه إلى الباب حزين القلب . فلما جذب الستار ليخرج إلى الدهليز سمع المرأة التي أخذت منه النقود تضحك ضحك مفرعة وبلغه صوتها الخشن يقول في تقطع :

— ها قد ولي صنيعه الشيطان .

فأجاب دوريان قائلاً :

— لا تسميني صنيعه الشيطان ، أيتها العينة .

وظفقت المرأة أصابعها وصاحت به :

— أنت تحب أن يسميك الناس الأمير الساحر . أليس كذلك ؟

فلما سمع البحار الرائد على المائدة كلماتها وثب من مكانه وأخذ يجول بعينه في أنحاء الغرفة كالوحش الهائج . وسمع باب القاعة يقفل فاندفع خارجاً من الغرفة كأنه يريد مطاردة دوريان جرای .

وأسرع دوريان جرای بالسير على رصيف الميناء والمطر ينهمر فوق رأسه . وقد أثارَت رؤية آدريان سنجلتون شعور الشفقة فيه وخيل إليه أنه علة شقاء هذا الفتى والمسئول عن تحطيم حياته كما صارحه بازيل هولورود بذلك في عبارات مهينة . وعض شفته ألماً وارسم الحزن في عينيه بضع ثوان ، ولكنه طرد عنه هذه الأفكار ، وأحس بأن حياة الإنسان أقصر من أن يبهظ بها بأوزار الآخرين . فلتحى كل نفس حياتها . ولتدفع كل نفس ثمن ما تنجيه من لذات . وما آلمه إلا أن ثمن الخطيئة يدفع مراراً وتكراراً ، فالتقدر لا يرضى بأن يصفي حسابه مع الإنسان دفعة واحدة .

يخبرنا علماء النفس بأن الرغبة في الخطيئة أو ما يسميه الناس بالخطيئة حين تملك النفس تماماً فتملأ شعاب العقل وتملاً جنبات الجسد تقترب في طبيعتها من النزعات الإجرامية فترى الناس يفقدون كل قدرة على الاختيار ، ويندفعون إلى نهايتهم الأليمة مسوقين بقوة لا يملكون لها قهراً ، وكأنهم آلات صماء . وتتلاشى فيهم الإرادة ويموت فيهم الضمير ، فإن لم يموت فيهم الضمير عاش لتثور عليه الشهوات ويتمرد الجسد وهو صراع مسرحي يملأ الحياة بالحركة ويكسبها الطابع الفنى . ذلك لأن جميع الخطايا جوهرها العصيان كما يحدثنا أهل اللاهوت في كل مناسبة . وإبليس العظيم ، إبليس نجم الشر الوضاء ، لم يسقط من كنف الله إلى الهاوية إلا لثورته على الحكم المطلق . وأسرع دوريان جرای في سيره وقد مات فيه الشعور وتركزت خواطره في الشر واثارت في عقله المسموم ونفسه المضطربة نوازع الثورة . ولكن ما أن

نقد في بعض البواكي المظلمة كما اعتاد أن يفعل ليختصر الطريق إلى ذلك المكان الجهنمي أحس بيد وحشية تقبض على عنقه من الخلف فجأة وتلصقه بالحائط قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه .

وحاول أن ينجو بحياته في قوة جنونية حتى استطاع بمجهود جبار أن يخلص عنقه من قبضة غريمه ، ولكن لم تمض ثانية حتى سمع صوت مسدس يصوب إلى رأسه ورأى خزانة المسدس المصقولة تلمع في الظلام وتبين أمامه رجلاً بديناً قصير القامة طمس الليل معالمه . قال دوريان جرای وهو يائهث :

— ماذا تبغى يا هذا ؟

قال الرجل :

— صه . إن تحركت تقتلك .

— أنت مجنون ، كيف تقتلني وما أذيتك .

فأجاب الرجل :

— أنت خطمت حياة سيبييل ثين ، وهي أختي . وأنا أعلم أنها انتحرت ولم تمت خطأ كما زعم المحقق فأنت المسئول عن موتها . لقد أقسمت أنني قاتلك عند عودتي ، وقد فقتش عنك أرجاء المدينة فلم أهدد إليك . لقد ماتت أختي ومات اليهودي فلم أجد بعدهما من يستطيع أن يصفك لي . فكيف أهدد إليك وأنا لم أعرف عنك شيئاً إلا أن سيبييل كانت تطلق عليك اسم الأمير الساحر . فما أن سمعت اسمك يتردد الليلة مصادفة حتى علمت أنني ظفرت ببغيتي . صل إلى الله واطلب منه الغفران فأنت الليلة هالك .

فأصاب دوريان جرای جزع شديد وأصابه دوار وطفق يقول :

— ما عرفت أختك قط ؛ وما سمعت بها . إنك مجنون .

— خليك بك أن تعترف بما فعلت ، لأنك ميت لا محالة .

وتبعث ذلك لحظة صمت كلها أهوال ولم يجد دوريان ما يقوله أو يفعله ،

وزمجر چيمس ثين قائلاً :

— أسجد، وصل إلى الله . وأمامك دقيقة واحدة أقبض لمدى روحك . إنى
 راحل الليلة إلى الهند ولا بد أن أنجز مهمتى أولاً . أمامك دقيقة واحدة لا أكثر .
 وتحاذل ذراعاً دوريان من فرط الإعياء ، وسد للفرع عليه مسالك تفكيره
 فلم يعرف ماذا يفعل . ولكن فكرة خطرت له فجأة قرأى بصيصاً من الأمل
 فى نجاته . قال :

— مهلاً . متى انتحرت أختك هذه . أجبني بسرعة !
 — انتحرت منذ ثمانية عشر عاماً . ولكن لم تسأل ، وما دخل السنين
 فى كل هذا ؟

فضحك دوريان جرای ضحكة المنتصر وقال :

— ثمانية عشر عاماً ! أنظر إلى وجهى يا هذا واحكم بنفسك . هيا خذنى
 إلى المصباح .

وتردد جيمس ثين برهة ولم يفهم لقوله معنى ، ثم أمسك بدوريان جرای
 وخرج به من البواكى ، ومضى به إلى مصباح من مصابيح الشارع . وكانت
 الريح تلعب بنور المصباح ولكن النور رغم ذلك كان كافياً . وتبين جيمس
 ثين خطأ الفاحش ، فقد رأى أمامه وجهاً اجتمعت فيه نضارة الصبا وطهارة
 الشباب . رأى أمامه فتى لا يتجاوز العشرين ربيعاً إلا بأيام قليلة ، فتى لا يزيد
 عمره عن عمر سييميل حين تركها وذهب يحول البحار . فكيف يكون هذا
 الفتى الرجل الذى حطم حياتها ! مستحيل .

ففك عنه قبضته وتراجع بسرعة قائلاً :

— يا إلهى ! يا إلهى ! لقد كدت أن أقتل نفساً بريئة .

وتنفس دوريان الصعداء وقال له فى تحد :

— لقد كدت أن ترتكب جريمة منكرة يا هذا . فليكن هذا درساً
 لك رادعاً فلا تتولى قصاص الناس بنفسك .

قال جيمس ثين بصوت متقطع :

— أرجو أن تصفح عني يا سيدى . لقد خدعتنى كلمة غابرة سمعتها فى ذلك الوكر اللعين فجعلتنى أتعقب رجلاً بريئاً .

فقال دوريان وهو ينصرف عنه :

— خير لك أن تعود إلى بيتك وأن تخفى ذلك المسدس وإلا جر عليك المتاعب . ووقف جيمس فين على إفريز الشارع مذعوراً يرتجف كل جزء من جزء جسمه . وبعد فترة قصيرة برز من الظلام ظل قائماً كان يزحف بجوار الحائط الذى بالته الأمطار ، وخرجت إلى النور امرأة تسترق الخطى ، وأمسكت بذراعه فالتفت إليها فرعاً . وكانت المرأة هى البغى التى كانت تحتسى الخمر عند البار . واقترب وجهها الشاحب من وجهه وهمست فى أذنه قائلة :

— لماذا لم تقتله ؟ لقد عرفت أنك تطارده حين خرجت على عجل من بار دالى . يالك من أحمق ! كان يجب أن تقتله فهو يحمل مالا كثيراً وهو أشد خطراً من إبليس نفسه .

فأجاب جيمس فين :

— ليس هذا بالرجل الذى أبحث عنه ، وأنا لست قاطع طريق أسلب الناس أهوالهم . إنما أطلب الثأر ، والرجل الذى أريد قتله لا بد أن يكون فى الأربعين من عمره ، أما هذا الفتى فهو حدث صغير . شكراً لله الذى جعلنى أتبين خطئى . ولكن المرأة ضحكت ضحكة تفيض بالمرارة وقالت فى احتقار :

— كيف تقول إنه حدث صغير ؟ إن هذا هو الأمير الساحر الذى حطم حياتى كما ترى منذ ثمانية عشر عاماً .

صاح بها جيمس فين :

— أنت تكذبين !

فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

— بل أقسم أمام الله أنى ما قلت إلا الصدق .

— أتقسمين أمام الله ؟

— نعم . فان كنت كاذبة فليخرس الله لساني . إن الأمير الساحر أخر
رواد هذا المكان . ولقد سمعت الناس يروون عنه أنه باع روحه للشيطان
في مقابل وجه جميل . حين عرفته منذ ثمانية عشر عاماً كان كما هو الآن ،
وهو لم يتغير إلا قليلاً ، أما أنا فقد تغيرت .

ولمع في عينيها بريق الشهوة وهي تقول هذه العبارة الأخيرة :

— أتقسمين على ذلك ؟

فأجابت بصوت خشن خرج من فمها القبيح :

— نعم أقسم على ذلك .

ثم قالت في استعطاف :

— ولكن لا تشي بي عنده ، فأنا أخشى شره . هيا اعطيني بعض المال
لأدفع أجر المبيت هذه الليلة .

فترع جيمس فين ذراعه من قبضتها وهو يلعن واندفع إلى منعطف
الشارع باحثاً عن فريسته ولكنه لم يجد لدورياز جرای أثراً . فلما تلفت
وراءه وجد أن المرأة قد اختفت كذلك .



الفصل السابع عشر

*

بعد أسبوع كان دوريان جراى جالساً فى صالون الموسيقى بقصر سلبى ، يتحدث إلى دوقة مونماوث الجميلة التى نزلت فى ضيافته مع زوجها الدوق وهو رجل فى الستين من عمره بادى الإعياء . وكان الوقت وقت الشاى ، وكان المصباح الضخم المغطى بالحرير القائم على المائدة يخرج منه نور رقيق يضىء أدوات الشاى بين أوان صينية وقطع من فضة مطروقة ، وكانت الدوقة على رأس المائدة ، وذهبت يداها البيضاءوان تنتقلان برشاقة بين الفناجين ، وهمس دوريان فى أذنها بكلمة فابتسمت شفتاها الحراوان الممتلئتان . أما اللورد هنرى فقد كان يتأملهما وهو مستلق على كرسى صنع من فروع الشجر مكسو بالحرير . وعلى أريكة لونها كلون الخوخ جلست اليدى ناربورو وتكلفت الاصغاء إلى كلام الدوق فى وصف جعران برازيلي أضافه إلى مجموعة جعارينه وذهب ثلاثة من الشبان فى ملابس المهرة يقدمون الكعك إلى بعض السيدات وقد بلغ عدد الضيوف اثنى عشر ضيفاً وكان ينتظر قدوم ضيوف آخرين فى اليوم التالى .

ثم نهض اللورد هنرى وسار إلى المائدة ووضع عليها فنجاناه قائلاً :
— فيم تتحدثان ؟ أرجو يا جلاديس أن يكون دوريان قد حدثك عن مشروعى الذى وضعته لأغير جميع الأسماء ، فهو مشروع جميل .
فأجابت الدوقة وهى تنظر إليه بعينها الساحرتين :
— ولكنى لا أحب أن أغير اسمى يا هارى فأنا راضية به وأعتقد أن مستر جراى راض باسمه كذلك .

المال
طف
لفت

— إن اسمك يا عزيزتي جلاديس اسم جميل ، وكذلك مستر جرای اسمه جميل ، ولن أقبل أن يدخل عليهما أى تعديل . إنما كنت أفكر في الأزهار خاصة حين وضعت مشروعي لتغيير الأسماء . فبالأمس قطفت زهرة من أزهار الأوركيد لأضعها في عروة سترتي ، وكانت الزهرة رائعة المنظر ذات نقط ، لها فتنة الرذيلة وسحر الخطايا السبع ، وفي لحظة طيش سألت البستاني عما يسمونها فأجابني بأنها ضرب نادر من الروبنسونيانا ، أو ما أشبه ذلك من الأسماء المنكرة . وقد تأملت لذلك أبلغ الألم وعرفت أننا قد فقدنا القدرة على ابتكار الأسماء الجميلة . إن الأسماء هي كل شيء يا عزيزتي جلاديس . وأنا لا أكرث قط لأفعال الناس ، فكل ما يعنيني هو أقوالهم ، وهذا سر بغضي للانتدال الذي نجده في الأدب الواقعي . والإنسان الذي يسمى الأشياء بأسمائها يفسد طعم الحياة .

فسألته الدوقة قائلة :

— إذاً فماذا تحب أن نسميك يا هاري ؟

قال دوريان :

— فلنسمه أمير النقائض .

قالت الدوقة :

— هذا اسم على مسمى .

فأجاب الموردهنرى ضاحكاً وهو يغوص في أحد المقاعد :

— أرجو أن أعفى من هذا الاسم . وإذا لم يكن هناك مفر من مازلة

مسجلة ، فأنا أرفض هذا اللقب .

قالت الدوقة الحليمة محدرة :

— تذكر أن الملوك لا يملكون التنازل عن ألقابهم .

— تحبين أن أدافع عن عرشى ؟

— نعم .

— أنا الكاشف عن حقائق الغد .

قالت الدوقة :

— ليتك كنت الكاشف عن أخطاء اليوم .

فصاح قائلاً وهو يجادلها بأسلوبها :

— أنت تجرديني من سلاحى ، يا جلاديس .

— أجردك من درعك لا من رمحك يا هارى .

قال بإشارة مؤدبة :

— أنا لا أسدد رمحى إلى الجمال .

— هذا خطأ منك يا هارى ، فأنت تبالغ فى تقدير الجمال .

— هذا غير صحيح . فأنا أعترف حقاً بأننى أفضل الجمال على الخير ،

ولكنى أول من يفضل الخير على القبح .

قالت الدوقة :

— إذاً فلقبح أحد الخطايا السبع القاتلة ؟ وكيف يتفق ذلك مع قولك

بأن زهرة الأوركيد كانت تشبه الخطايا السبع القاتلة فى جمالها ؟

— بل القبح أحد الفضائل السبع القاتلة ، يا جلاديس . وأنت واشياعك

من الأرستقراط آخر من يحق له أن يتجاهل قيمة هذه الفضائل .

فالبيرة والكتاب المقدس والفضائل السبع القاتلة هى التى جعلت انجلترا

ما هى الآن .

فسأله قائلة :

— إذا فأنت تكره انجلترا ؟

— أنا أعيش فى انجلترا .

— لتفصح عيوبها بأمانة ؟

فسأله قائلاً :

— أتحب أن أقبل حكم أوربا علينا ؟

- وما حكم أوربا علينا ؟
- أن طرطوف ملك المنافقين هاجر إلى انجلترا ففتح فيها متجرا .
- أهذا رأيك يا هاري ؟
- قد تنازلت لك عنه .
- ولكنني لن أستطيع أن أعلن هذا الرأي بين الناس ، فهو يصف الحقيقة .
- لا تخشى شيئا ، فواطنونا الكرام لا يفهمون الأوصاف .
- لأنهم قوم عمليون .
- بل لأنهم قوم ماكرون . وفي ميزانهم التجاري تعوض الثروة عن الغباوة والنفاق عن الرذيلة .
- ولكننا أتينا بالعجائب رغم كل ذلك .
- بل أتينا العجائب يا جلاديس ، فقد فرضت علينا العجائب فرضا .
- هذا جائز ، ولكننا حملنا عبء المجد ، وهو ثقيل .
- نعم ، حملنا عبئه حتى البورصة ، ثم تخلينا عنه .
- فهزت الدوقة رأسها وقالت :
- أنا أوقن بسلاطنا .
- إن سلاطنا لا تمثل بقاء الأصلح بل تمثل بقاء الأقوى .
- إنها تتقدم .
- ليتها تمحل . فالانحلال عندي خير من التقدم .
- قالت :
- وما رأيك في الفن .
- الفن مرض .
- وما رأيك في الحب ؟
- الحب وهم .
- وما رأيك في الدين ؟

- الدين هو الاسم الحديث للعقيدة .
- أنت إذا من الشكاك ؟
- حاشا لله ! فالشك مبدأ الايمان .
- ما أنت إذا ؟
- التعريف يفسد المعرف .
- أريد أن اهتدى إلى شخصيتك .
- إن خيوط الشخصية تتشابك ، وسوف تضلين في التيه .
- أنت تحيرني ، ومع ذلك فلننتكم عن شخص آخر .
- نعم ، وإن مضيفنا لموضوع شائق للحديث . منذ سنوات طويلة سمي بالأمير الساحر .
- فصاح دوريان جرای قائلاً :
- لاندكرني بذلك .
- أجابت الدوقة وقد اصطبغ وجهها بالدم :
- إن مضيفنا ضيق الصدر هذا المساء ، وأظن أنه يعتقد أن مونماوت قد تزوجني لأسباب علمية ، حين وجدني أحسن نموذج من نماذج القراش الحديث .
- قال دوريان ضاحكاً :
- أرجو ألا يضع فيك الدبابيس ياسيدتي الدوقة كما يضع الدبابيس في فراشاه الأخرى .
- لا حاجة به إلى ذلك ، فوصيفتي تعرس في الدبابيس بنفسها كلما غضبت مني يامستر جرای .
- ولم تغضب وصيفتك منك ؟
- أؤكد لك يامستر جرای إنها تغضب لأنفه الأسباب . تغضب مثلاً حين أعود إلى المنزل في الساعة التاسعة ثم أقول لها إن عليّ أن أستبدل ثيابي قبل الثامنة والنصف .

— هذا تعنت منها ! ويجب أن تنذريها بالطرد إن هي عادت إلى ذلك .
 — لست أجزؤ على ذلك يا مستر جرای فبهى تبتكر لى قبعاتى . أتذكر
 القبعة التى لستها فى حفلة اللىدى هيلستون ؟ طبعاً أنت لاتذكرها ولكنى
 أشكر لك ادعاءك أنك تذكرها . تلك القبعة صنعتها لى من لاشىء . إن جميع
 القبعات الخيلة تصنع من لاشىء .

فقاطعهما اللورد هنرى قائلا :

— شأنها شأن السمعة الطيبة يا جلاديس . فكل أثر يتركه المرء فى الوسط
 المحيط به يكسب المرء عدواً جديداً ، ولا سبيل إلى اكتساب قلوب الناس
 إلا بأن يكون من الأوساط التافهين .
 قالت الدوقة وهى تهز رأسها :

— هذا الكلام لا ينطبق على النساء ، والنساء يحكمن العالم . وأنا أؤكد
 لك أن أوساط الناس لا يكتسبون قلوب النساء ، وقد قال حصيف إننا
 معشر النساء نعشق بأذاننا كما تعشقون أتم معشر الرجال بعيونكم ، إن كنتم
 تعشقون .

فقال دوريان :

— يبدو لى إن العشق هو كل عملنا فى الحياة .

أجابت الدوقة وهى تتكاف الحزن :

— إذا كانت الحال كذلك فأتم لاتعرفون الحب .

قال اللورد هنرى :

— أنا احتج يا عزيزتى جلاديس ، فالحب يحيا بالتكرار والتكرار يصقل
 الرغبة ويكسبها صفة الفن . إن الحب واحد مهما تعدد موضوعه . وفى كل
 مرة يحب القلب لا يبقى فيه إلا حب واحد . والتعدد لا يضعف الحب بل
 يذكىه . فالحياة لاتتسع إلا لاختبار واحد عظيم ، وسر السعادة أن نكرر
 هذا الاختبار ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

وسألته الدوقة بعد صمت قليل :

— وإذا كان الاختبار ألياً فهل نسعى إلى تكراره ؟

أجاب اللورد هنرى :

— بل يجب أن نسعى إلى تكرار الاختبار الأليم قبل سواه .

ونحول نظر الدوقة إلى دوريان جرای وبدا في محياها تعبير غريب

وسألته قائلة :

— ما رأيك في هذا الكلام يا مستر جرای ؟

وتردد دوريان لحظة ثم دفع برأسه إلى الوراء وقال ضاحكاً :

— أنا أوافق دائماً على ما يقوله هارى ياسيدتى الدوقة .

— حتى إذا أخطأ ؟

— هارى لا يخطئ ياسيدتى الدوقة .

— وهل جاءتك فلسفته بالسعادة التى تنشدها ؟

— أنا لم أنشد السعادة فى يوم من الأيام ، فما بى حاجة إليها . إنما

نشدت اللذة .

— وهل وجدت اللذة يا مستر جرای ؟

— نعم وجدتتها . وجدت منها أكثر مما أحتمل .

وتنهت الدوقة ثم قالت :

— أما أنا فأنشد الهدوء ، وإذا لم أسرع باستبدال ثيابى ، فلن أذوق

طعم الهدوء فى هذه الليلة .

فنهض دوريان وسار إلى أقصى الصالون قائلاً :

— اسمح لى أن آتيك ببعض أزهار الأوركيد يا عزيزتى الدوقة .

وقال اللورد هنرى لابنة عمه الدوقة :

— إنك تغازلينه مغازلة مكشوفة وانصحك أن تختلطى فهو

شخص فائن .

- لو لم يكن فائناً لما كان هناك صراع .
 — إذا فهذه معركة بين آخيل وآخيل .
 — كلا ، فأنا في جانب الطرواديين لأنهم حاربوا من أجل امرأة .
 — وقد هزموا .
 فأجابت :
 — السبي أهون ما في الحرب .
 — انك تركضين على جواد بلا زمام .
 أجابت :
 — هذا يحدد الحياة .
 — سأدون هذا في يومياتي الليلة .
 — وماذا ستكتب ؟
 — سأكتب أن الطفل يحب النار التي تحرق أصابعه .
 — هذا غير صحيح ، فأنا لم أكتبو بعد ، فكيف تقول إنني احترقت .
 وهذه اجنحتي سليمة .
 — أنت تستخدمين اجنحتك في كل شيء إلا الطيران .
 — إن الشجاعة قد انتقلت من الرجال إلى النساء ، وهذا اختبار لم نألفه .
 — إن لك عزيمة
 — ومن تكون هذه ؟
 فضحك وقال :
 — الليدي نابورو .
 ثم همست في أذنها قائلاً :
 — إنها تحبه إلى حد العبادة .
 — أخشى أن يجذبه جمال الأملال ، فنحن الخياليين يسحرنا القدم .
 — ولكنك لست من الخياليات فأنت تملكين كل معدات العلم .

- لقد تعلمنا في مدرسة الرجال .
- نعم . لقد علمنا كنّ ولكننا لم نفهم من طبعه كنّ شيئاً .
- قالت بتحد :
- ما رأيك فينا كجنس ؟
- المرأة أبو هول بغير سر .
- فنفطرت إليه باسمّة وقالت :
- لقد غاب مستر جرای طويلاً ، فهيا بنا نساعدك على اختيار الأوركيد ، ولعلك حائر فيما يختار لأنني لم أخبره بلون الفستان الذي سألبسه .
- فلتختاري الثوب الذي يناسب أزهاره .
- إن فعلت هذا كان ذلك تسليماً مني قبل الأوان .
- ولكن الفن الخيالي يبدأ حيث يجب أن ينتهي .
- لا بد أن أحفظ لنفسى خط الرجعة .
- طبقاً لخطّة موضوعة على طريقة البارثينون ؟
- لقد اعتصم البارثيون بالصحراء وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك .
- فأجاب قائلاً :
- قد لا تجد النساء مجالاً للاختيار بين تراجع وتراجع .
- ولكنه ما كاد أن يتم قوله حتى سمع أنه مخنوقة آتية من أقصى الصالون ، وتلاها صوت جسم ثقيل يسقط مكتوماً فاضطرب كل من الغرفة ، وثبتت الدوقة في مكانها جزعي وشق اللورد هنري طريقه فرعاً بين الأشجار المضطربة فوجد دوريان جرای مستلقياً على وجهه فوق البلاط في إغماء يشبه الموت .
- وحمل دوريان جرای إلى غرفة الاستقبال الزرقاء وهناك وضع على إحدى الأرائك . ثم أفاق بعد قليل وتلفت حوله زائغ العينين ، وقال :
- ماذا حدث ؟ نعم ، تذكرت الآن ما حدث . أنا هنا في أمان
- ياهارى ؟

وأخذت أوصاله ترتجف . فأجابه اللورد هنري قائلاً :

— لقد أغمى عليك يا عزيزي دوريان ، هذا كل ما في الأمر فلا تجزع .
لا بد أنك أنهكت نفسك إنها كما بالغاً ، ومن الخير ألا تتعشى معنا الليلة ،
وسأملأ أنا مكانك في المائدة .

وغالب دوريان نفسه حتى استطاع أن يقف على قدميه وقال :
— بل سأتعشى معكم . نعم ، إنني أفضل أن أتعشى معكم فليس من الخير
أن أبقى وحيداً .

ومضى إلى غرفته وارتدى ملابس السهرة . ثم أخذ مكانه في صدر المائدة
وكان يبدو عليه المرح الشديد كأنه لا يبالي بشيء ، ولكنه كان يرتجف من
وقت إلى آخر حين يفكر في أنه لمح وجه جيمس فوين شاحباً كأنه منديل
أبيض ملتصقاً بزجاج النافذة في صالون الموسيقى .

الفصل الثامن عشر

*

وفي اليوم التالي لزم دوريان جرای داره بل لزم غرفته الشطر الأكبر من الوقت وكان يحس بفزع من الموت شديد ، ومع ذلك فقد رخصت في نظره الحياة . وبدأ يحس بأنه مطارد ، وبدأ يرى الفخاخ تنصب حوله ، وملاّت هذه الفكرة شعاب عقله ، فما اهتز في بيته ستار أمام الريح إلا اهتزت أوصاله ، وشاهد أوراق الأشجار الذابلة تضرب زجاج نافذته المعشق بالرياح فتذكره بنواياه الضائعة وأحزانه المبرحة . وحين أطبق خفيه رأى وجه البحار من جديد يتتبع حركاته من وراء الزجاج المغطى بالضباب تخفق قلبه هلعاً . ولكن لعل ما رآه كان طيفاً منتقماً نسجه في الظلام وهمه ، ولعل أشباح القصص انطلقت من خياله المريض لترقص أمام عينيه وترعب . إن الحياة الواقعية قوامها الفوضى ، أما الخيال فنطق ومرتب ، فالخيال هو الذي جعل الندم يتبع الخطيئة ، والخيال هو الذي جعل لكل جريمة أحلامها المزعجة . وفي الحياة اليومية ينجو الأشرار من العقاب ويضيع على المحسنين الثواب ، ويخني الأقوياء ثمار النجاح أما الضعفاء فلهم الخيبة وسوء المآل ، وهذه قصة الحياة . فلتطمئن نفس دوريان جرای إذ لا قصص إلا في خيال المذنبين . وإن الوجه الذي يراه من وراء الزجاج ليس إلا صورة في خياله المحموم . ولو أن رجلاً كان يترص به خارج المنزل لرآه الخدم لا بحالة ، ولو أن أقداماً غريبة تركت آثارها في الحديقة لأخبره البستاني بأمرها . نعم . لم يكن ما رآه إلا نسج الخيال ، وأخو سيبيلا فين لا يتعقبه ليفتك به ، فقد رحل في سفينته ولعله الآن غريق في بحر من بحار الجليد ، وهو في مأمن منه ،

هو في مأمن من جيمس ثين على الأقل . إن جيمس ثين لم يعرف هويته ولم يستطع أن يعرفها ، ولقد أنقذه قناع الشباب .

ولكن هب ما رآه دوريان جرای لم يكن إلا وهما ، فما أقسى هذا الضمير الذي يملأ الدنيا بالأشباح المخيفة ويعطى للهواجس أجساداً تراها العيون ، ويجعلها تتحرك أمام الإنسان وأى جحيم هذا الذي قدر له أن يعيش فيه إذا كانت أشباح القصاص تتلصص عليه ليل نهار من الأركان الساكنة وتسخر به من الدهاليز المهجورة ، وتهمس في أذنه الويل والثبور في المآدب والحفلات وتوقظه من منامه بأصابع من جليد ! وفيما يفكر في ذلك شحب لونه جزعاً وأحس حاجة بالهواء يلذعه ببرودة لم تكن فيه من قبل . لقد قتل صديقه في ساعة جنون ، فأى نجم دام عبوس ذلك الذي ارتفع في السماء وسلب منه لبه ١ وياله من الذكرى فهي موجعة ! وعادت إلى ذهنه تفاصيل تلك الليلة المشؤومة فخلعت فؤاده رعباً ، وخرجت عليه من كهف الزمن المظلم صورة جريمته في وشاح أحمر ، وحين دخل عليه اللورد هنري في الساعة السادسة وجده ينتحب في مرارة وقد أوشك قلبه أن يتفطر .

ولم يحسر على الخروج من قصره إلا في اليوم الثالث . فالصباح النادر جميل عاطر بأريج أشجار الصنوبر رد إليه مرحة ورغبته في الحياة . ولم تكن الطبيعة وحدها هي التي أغرته بالخروج لأن طبعه تمرد على كل هذه الآلام المبرحة التي كدرت صفاء نفسه ، فأصحاب المزاج الرقيق لا يهتملون المحن ، وعواطفهم القوية إن لم تنتحن أمام النكبات تنكسر ، ولا يشفيهم إلا قتل النفس أو قتل الغير . وأصحاب العواطف التافهة يحبون ويشقون خبهم مديد وشقاؤهم مديد ، أما أصحاب العواطف الجبارة فغرامهم الجبار يذبح نفسه لأنه مارد عملاق وكذلك أحزانهم الجبارة . ولقد أفتن دوريان جرای نفسه بأن الرؤى التي رآها لم تكن إلا زيفاً من عمل خياله السقيم ، ونظر إلى مخاوفه نظرة لا تخلو من الرثاء والاحتقار .

وبعد أن تناول فطوره خرج إلى الحديقة وتحدث إلى الدوقة ساعة أو بعض ساعة ثم ركب عربته وقطعت به المنتزه ليلحق بجماعة الخارجين إلى الصيد . وكان الصقيع الهش يغطي الحشائش كأنه الملح المنثور وبدأت السماء كأنها كأس مقلوبة صنعت من معدن أزرق وطففت طبقة رقيقة من الجليد على سطح البحيرة الساكنة التي تما فيها البوص .

ووقع بصره على السير جفرى كلوستون ، أخى الدقة ، عند ركن الغابة الصنوبرية فرآه يقذف بحرطوشتين فارغتين من بندقيته . فوثب خارجاً من العربة وأمر السائس أن يعود بالمهر إلى القصر ثم سعى إلى أضيافه شاقاً طريقه بين الأعشاب الشيطانية والشجيرات الخشنة . قال :

— أوجدت صيداً طيباً يا جفرى .

— كلا يا دوريان ، وأظن أن أكثر الطيور ذهبت إلى الخلاء . واعتقد

أننا سنصادف توفيقاً أعظم بعد الغداء حين نغير المكان

وسار دوريان وجفرى جنباً إلى جنب . وشاع في نفس دوريان إحساس جميل بالحرية حين قرسه الهواء العاطر ورأى الأنوار الحمراء والأنوار البنية تلمع في بطن الغابة وسمع أصوات العمال الخشنة تهلل بالصياح وهم يضربون الأغصان لتخرج منها الطيور . وكان خلى البال سعيداً مشرق النفس مقبلاً على الحياة .

وفجأة أبصر أرنباً منتصب الأذنين أسودهما يقفز على بعد عشرين ذراعاً بين الأعشاب الذابلة بعد أن تحفز على رجليه الخلفيتين واندفع الأرنب صوب دغل من الأدغال ، ورفع السير جفرى بندقيته إلى كتفه وهم بأن يطلق عليه النار لولا أن دوريان جرای ارتاع لرشاقة حركته فصاح بصاحبه قائلاً :

— لا تقتله يا جفرى . دعه يعيش .

فضحك صاحبه وقال :

— ما هذا الكلام الفارغ يا دوريان !

وفيا كان الأرنب يقفز داخلا الدغل أطلق عليه النار . وارتفعت صرختان ، صرخة أرنب جريخ وصرخة رجل مصاب .

صاح السير جفرى قائلا :

— يا للسموات ! لقد أصبت أحد الحراس . إن وقوفه أمام البنادق غباوة شديدة . لا تطلقوا النار فقد أصيب أحد الرجال .

وجاء رئيس الحراس يعدو حاملا بيده عصا ، وصاح :

— أين يا سيدى ؟ أين ؟

وبطل إطلاق النار بطول الخط . وأجاب السيد جفرى غاضبا وهو يسرع نحو الدغل :

— فى هذا المكان . لم لا تمعد أتباعك عن مرمى النار ؟ ها أنت قد أفستت شهيتى للصيد فى هذا الصباح .

وأنشأ دوريان يتأملهما وهما يدخلان الدغل ويبعدان الأغصان عن طريقهما . وبعد لحظات خرجا وهما يجران جثة رجل من الدغل إلى العراء . ولم يحتمل دوريان جراى أن يرى هذا المنظر فأشاح بوجهه ، وخيل إليه أنه يحلب الرزايا أينما سار . وسمع السير جفرى يسأل رئيس الحراس عما إذا كان الرجل قد مات فعلا وسمع رئيس الحراس يجيبه بالإيجاب . وخيل إليه فجأة أن الغابة يسكنها ألف شبح وسمع ألف قدم تدك الأرض بوطئها وطن فى أذنه همس كثير . وجاء طائر صدره نحاسى اللون ورغرف بين الأغصان فوق رؤوسهم .

ومرت لحظات خالها دهوراً من الآلام فى حالته المضطربة تلك ، وفى النهاية أحس بيد ترتكز على كتفه فانتبه من غفلته وتلفت حوله فاذا اللورد هنرى قد جاءه يقول :

— لعل من الأصوب يا دوريان أن أقول لضيوفك إن الصيد قد انتهى اليوم عند هذا الحد . فاستمرارهم لن يحدث أثراً طيباً فى الناس .

أجاب دوريان بمرارة :

— ليتته ينتهي إلى الأبد يا هارى ، فهذا هو إجرامى بشع . والرجل ،

هل . . .

ووقفت الكلمة فى حلقه ، فأجابه اللورد هنرى :

— نعم يا دوريان ، مات الرجل ، فقد أصابه الرش كله فى صدره ولا بد

أن يكون قد مات فوراً . هيا بنا ، فلنعد إلى البيت .

وسار الرجلان جنباً إلى جنب صامتين نحو خمسين ذراعاً فى اتجاه الطريق

الظليل ، ثم التفت دوريان إلى اللورد هنرى وتنهّد من أعماقه وقال :

— هذا نذير شؤم يا هارى ، هذا نذير شؤم .

فسأله اللورد هنرى قائلاً :

— ماذا تقصد ؟ أتقصد الحادثة ؟ لا تبتئس يا صديقي فلم يكن هناك

سبيل لتفاديهما . لقد كان الخطأ خطأ الحارس فهو الذى وقف فى مرمى النار .

ثم إن الأمر لا يهمنا ، لأن جفرى هو المسئول عن الحادث بطبيعة الحال .

ومن الخطأ أن ندلل الحزاس وإلا حسبك الناس مهملات فى الرماية ، وما جفرى

بمهمل فهو يحسن التصويب . ولكن دعنا من هذا الموضوع فالكلام فيه

لا ينفع .

وهز دوريان رأسه قائلاً :

— إن هذا نذير شؤم يا هارى . وأنا أحس بأن شراً ما سيحدث

بأحدنا . . . بى أنا مثلاً .

وفىما هو يقول ذلك مر بأصابعه على عينيه فى ألم واضح .

وضحك اللورد هنرى وقال :

— إن الشر الوحيد فى العالم هو الملل يا دوريان . والملل هو الخطيئة

الوحيدة التى لا تغتفر . ولكن الملل لن يصيب أمثالنا ، اللهم إلا إذا رأى

ضيوفك أن يتحدثوا فى موضوع هذا الرجل أثناء الغداء . وسوف أخبرهم

بأن الكلام في هذا الموضوع محرم عليهم . أما النذير الذي تتحدث عنه فلا وجود له لأن القدر لا يرسل لنا الرسل لتحذرتنا بل يأخذنا على غرة . ولعل هذه حكمة منه ولعلها إجرام . ثم إنك بمأمن من كل شر يا دوريان ، ولقد أوتيت كل ما في الدنيا من أسباب السعادة وليس بين الناس من لا يقبل أن يستبدل مكانه بمكانك .

— بل ليس بين الناس من لا أقبل أنا أن أستبدل مكانه بمكاني يا هاري . وكفالك ضحكا ، فما قلت غير الحق . إن الحارس المسكين الذي قتل منذ هنية أسعد مني حالا . وأنا لا أخاف الموت ولكني أخاف مقدم الموت ، وأحس بجناحيه الشيطانيين يطنان حولي في هذا الهواء الثقيل . أنظر يا هاري ! ألا ترى رجلا يتحرك خلف الأشجار متربصاً بي ؟

— فالتفت اللورد هنري إلى الناحية التي أشارت نحوها يده المرتجفة ذات القفاز . ثم قال مبتسما :

— نعم . أرى البستاني واقفاً في انتظارك وأحسب أنه يود أن يسألك عن الأزهار التي تريده أن يضعها على المائدة هذا المساء . إن أعصابك متوترة إلى حد بعيد يا دوريان ، وهي توحى لك بأسخف الخيالات ، وأنصحك أن تستشير طبيبي حين نعود إلى لندن .

ورأى دوريان البستاني يتقدم منه فعاد إليه هدوءه . وهم الرجل برفع قمعته تحية لسيده ونظر إلى اللورد هنري في تردد لحظة أو لحظتين ثم أخرج من جيبه خطاباً وسامه إلى دوريان قائلاً :

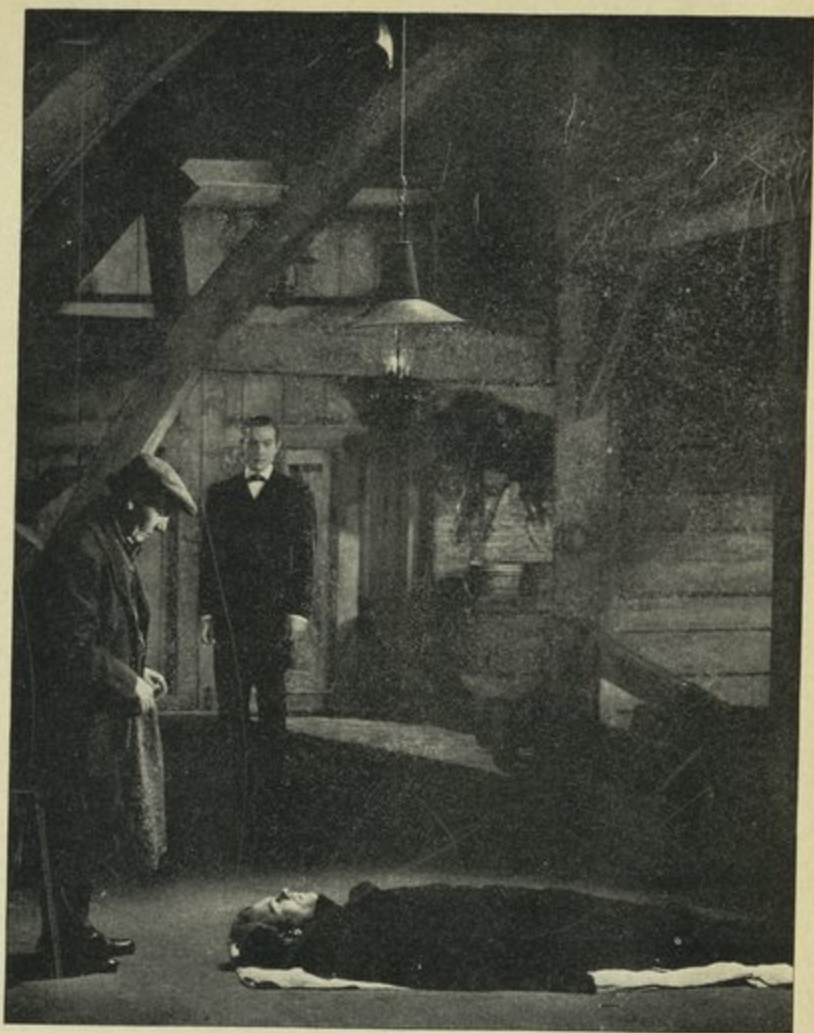
— إن سيدتي الدوقة تنتظر الرد على هذا الخطاب .

ووضع دوريان الخطاب في جيبه وقال في برود :

— قل لسيديتك الدوقة إنني سألحق بها .

وانصرف الرجل مسرعاً وسار في اتجاه القصر .

قال اللورد هنري ضاحكاً :



صفحة ٢٧٩

و ثبت في مكانه بضع دقائق متفرسا في الجثة ...

الو
أد

هـ

ي
ي

ق

— ما أشد كلف النساء بالأعمال الغريبة يا دوريان ! إن هذه هي الصفة الوحيدة التي تعجبني فيهن . والمرأة تغازل أى رجل في العالم إذا تأكدت من أن هناك من براها .

— وما أشد كلفك بالأقوال الغريبة يا هارى ! وأعتقد أنك مخطيء هذه المرة ، فأنا أميل إلى الدوقة أشد الميل ولكنى لا أحبها .

— والدوقة تحبك أشد الحب ولكنها لا تميل إليك ، فأتما كما ترى يكتمل أحدهما الآخر .

— أنت تنشر الفضيحة بهذا الكلام يا هارى ، والفضائح لا أساس لها في الواقع .

فأجاب اللورد هنرى وهو يشعل سيجارة :

— أساس كل فضيحة ليس الشك الأخلاقى بل اليقين الذى يتنافى مع الأخلاق .

— إنك تضحي أى مخلوق فى مقابل قول طريف .

فأجاب اللورد هنرى قائلاً :

— أنا لا أضحي أحداً لأن الناس يسرون إلى المذبح من تلقاء أنفسهم .

قال دوريان وفى صوته رنة من الحزن العميق :

— ليتنى أستطيع أن أحب ، ولكن يبدو لى أنى قد قتلت العاطفة

ونسيت الرغبة . فأفكارى كلها مركزة فى نفسى وشخصيتى قد أصبحت عبئاً

علىّ ثقيلًا . فكيف الهرب من هذه الآنا ، وكيف النسيان ؟ أظن أنى سأبرق

إلى هارثى طالباً إليه أن يعد ليخت لى ، فى ليخت أكون بمأمن من الخطر .

— أى خطر هذا الذى لا تفتأ تتحدث عنه ؟ لا بد أنك فى محنة ،

ويحمل بك أن تقضى إلى بكل شيء ، فأنت تعرف أنى سأقف إلى جانبك .

أجاب الفتى فى حزن :

— لا أستطيع أن أفضى إليك بشيء يا هارى ، ثم إن هذا الخطر الذى

يتهددنى قد يكون خطراً وهمياً . إن هذه الحادثة المشؤومة قد أثارت أعصابى وأنا أحس بأن مكروهاً من هذا النوع سينزل بى .

— دع عنك هذه الخزعبلات !

— أرجو أن تكون هذه خزعبلات حقاً ، ولكنى أفكر فيها برغمى انظر ! هذه الدوقة مقبلة علينا وهى تبدو كالإلهة ارتيمس لابسة چاكته تاير . لقد عدنا من الصيد يا عزيزتى الدوقة .

أجابت :

— نعم يا مستر جرای ، لقد علمت بما حدث وجفرى المسكين فى اضطراب شديد وقد قالوا لى إنك سألته ألا يطلق النار فما أغرب هذه المصادفة .

— نعم . إنها لمصادفة عجيبة ، ولا أستطيع أن أفسرها . ولعلها نزوه طارئة فقد كان الأرنب آية فى الرشاقة وربما عز على أن يقتل . مهما يكن من شىء فيؤسفنى أنك علمت بخبر هذا الرجل ، فالموضوع كله بغيبض .

قال اللورد هنرى :

— نعم ، إنه لموضوع ممل ، وليست له أية قيمة من الناحية النفسية . فلو أن جفرى قتله عامداً لاستحق أن نهم له كل هذا الاهتمام . وكم أحب أن أعرف رجلاً ارتكب جريمة قتل حقيقية .

فصاحت الدوقة قائلة :

— هذه وحشية منك يا هارى . ألا توافقنى على ذلك يا مستر جرای ؟ إن مستر جرای قد عادت إليه النوبة يا هارى ، وها هو يوشك أن يدركه الإغماء .

وجمع دوريان أشتات قوته المتخاذلة وقال مبتسماً :

— لاتزعجى يا عزيزتى الدوقة ، فما بى مرض . كل ما فى الأمر أن أعصابى منهكة ، فقد أسرفت فى السير هذا الصباح . ماذا قال هارى ؟ إنى لم أسمع

كلماته ، فهل قال شيئاً فظليماً ؟ لابد أن تعيدى على ما قاله هارى فى مناسبة أخرى
أما الآن فاعتقد أن من الأصوب أن أستريح . هل تأذن أنى بالانصراف ؟
وسار اللورد هنرى والدوقة حتى بلغا درجات السلم الكبير التى تؤدى
إلى الشرفة من صالون الموسيقى ، وبعد أن أقفلا الباب الزجاجى بينهما وبين
دوريان نظر اللورد هنرى إلى الدوقة بعينيه الناعستين وسألها قائلاً :

— كم تحبين دوريان ؟

فلم تجب ومرت دقائق لم يقل أحد فيها شيئاً ووقفت الدوقة تتفرس فى
الطبيعة المترامية أمامها ثم أجابت أخيراً :

— ليتنى كنت أعلم .

قال اللورد هنرى وهو يهز رأسه :

— العلم يفسد كل شئ ، فاحتفظى بهذا الشك لأن فى الشك سحراً خاصاً
وقليل من الضباب يزيد جمال الحياة .

— وماذا أفعل لو تهت فى الضباب ؟

— لن تنتهى يا عزيزتى جلايس فكل الطرق تؤدى إلى نقطة واحدة .

— وما هى هذه النقطة ؟

— الاستفاقة إلى الحقيقة .

قالت وهى تتنهد :

— لقد بدأت حياتى بهذه الاستفاقة .

— وقد جاءتك الاستفاقة متوجة فى شخص دوق .

— لقد تعبت من أوراق الغار .

— إنها تناسبك .

— فى الحفلات الرسمية فقط .

قال اللورد هنرى :

— لو نزلت عنها لافتقدتها فى مستقبل الأيام .

— لن أنزل عن ورقة واحدة منها .

— ولكن موثاق له أذنان .

— الشيخوخة سمعها بطنى .

— ألم تثر غيرته قط ؟

— ياليتها ثارت .

وتلفت اللورد هنرى فى كل مكان باحثاً عن شىء فسألته قائلة .

— عم تبحث ؟

— عن زرار سقط منى .

— ولكن فناعى لم يسقط بعد

أجاب اللورد هنرى :

— وهو يزيد عينيك سحرا .

فضحكت ثانية وبدت أسنانها كالخبوب البيضاء فى فاكهة حمراء .

وكان دوريان جرای مستلقاً على أريكته فى غرفته بالطابق العلوى مرتجف

الأوصال ينهشه الفزع . وأحس فجأة بأن حياته قد أصبحت عبثاً ثقيلاً لاسبيل

إلى احتماله . وبدا له موت الحارس المسكين الذى سقط فى الغابة قتيلاً كأنه

حيوان برى ، بدا له موت الحارس كنبوءة بموته . ولقد كاد أن يصيبه الإغماء

حين سمع ما قاله اللورد هنرى عرضاً من باب العبث .

ولما بلغت الساعة الخامسة دق الجرس واستدعى خادمه وأمره بأن يحزم

أمتعته استعداداً للرحيل إلى لندن باكسبريس الليل ، وأن يعد له عربته فى

الساعة الثامنة والنصف ، فقد قرر ألا ينام ليلة أخرى فى سلبى ، ذلك

القصر المشؤوم الذى مشى الموت فى كنفه فى رابعة النهار ، وخضبت الدماء

حشائش غاباته .

ثم سطر رسالة كتبها إلى اللورد هنرى معتذراً بأنه راحل إلى لندن

ليستشير طبيبه ، سائلاً إياه أن ينوب عنه فى القيام بواجب الضيافة نحو

أصحابه أثناء غيابه ، وفيما هو يضع الرسالة في غلاف طرق الباب خادمه وأخبره بأن رئيس الحراس يطلب مقابلته . فعبس دوريان وعض شفتيه وقال بعد تردد قليل :

— ادخله .

ولما دخل رئيس الحراس أخرج دوريان دفتر الشيكات من أحد الأدراج وفتحه قائلاً :

— أظنك جئت لتحدثني في شأن الحادثة الأليمة التي وقعت هذا الصباح

يا ثورنتون .

أجاب الحارس :

— نعم يا سيدي .

قال دوريان وقد بدا عليه الملل :

— أكان هذا الرجل متزوجاً ؟ أكان يعمل أحداً ؟ إذا كان يعمل أحداً

فلست أحب أن يتعرض عياله للفاقة ، وسأرسل لهم أى مبلغ من المال تراه أنت كافياً .

— لم نتعرف على شخصيته يا سيدي ، وهذا ما دفعني إلى إزعاجك الآن .

قال دوريان في فتور :

— وكيف كان ذلك ؟ ألم يكن القتيل رجلاً من رجالك ؟

— كلا يا سيدي ، وأنا لم أره قبل اليوم ، ويلوح لي أنه بحار يا سيدي .

فسقطت الريشة من يد دوريان جرای ، وأحس بقلبه يتوقف عن

الخفقان ، وصاح قائلاً :

— بحار ؟ أتقول إنه بحار ؟

— نعم يا سيدي ، إن مظهره يدل على أنه بحار ، ففي ذراعيه وشم ،

وعليه سمات البحارة .

قال دوريان جرای إلى الامام وأخذ يتفكر في الرجل متزعجاً

وقال دوريان جرای :

— ألم تجدوا معه ما يثبت شخصيته أو يدل على اسمه ؟

— وجدنا بعض النقود ياسيدي ، وجدنا مسدساً ذا ست طلقات ، ولكننا لم نجد اسمه ، ومرآه يدل على أنه رجل فاضل ، ولكن عليه سياء الخشونة ، ونحن نظن أنه بحار .

ونهض دوريان واقفاً وداعب خاطره أمل شيطاني فلم يغير الموضوع بل قال في إصرار :

— أين وضعت الجثة ؟ لابد أن أراها فوراً .

— إنها في مزود الخيل الفارغ بالحقل ياسيدي .

وضعتها هناك لأن أهل القرية رفضوا أن يقبلوها في منازلهم قائلين إن الجثث تجلب الشؤم .

— إقصد إلى الحقل فوراً وانتظرنى هناك وقل للسائس أن يأتيني بجوادي ولكن من الأفضل أن أمضي بنفسى إلى مزود الخيل في هذا توفير للوقت .
لم تمض ربع ساعة حتى كان دوريان جرای يركض على فرسه في الطريق الظليل بسرعة قصوى ، وكانت الأشجار على جانبيه تبدو له وهو ينهب الأرض نهباً كأنها صفان من الأشباح ، ورأى ظلالها الماردة ترتع في طريقه فيطوؤها وطئاً . وانحرفت به الفرس مرة عند عمود أبيض فكادت أن تلقيه أرضاً . وأخذ يضربها بسوطه على عنقها فمزقت الهواء كأنها السهم المنطلق ، وطارت من وقع حوافرها الأحجار .

وأخيراً بلغ العربية فوجد رجلين يتسكعان في الفناء ، وترجل وسلم عنان الفرس إلى أحدهما ، ولمح نوراً ينبعث من آخر مزود فهتف به هاتف إن الجثة ملقاة فيه وأسرع إلى بابه ووضع يده على المزلاج .

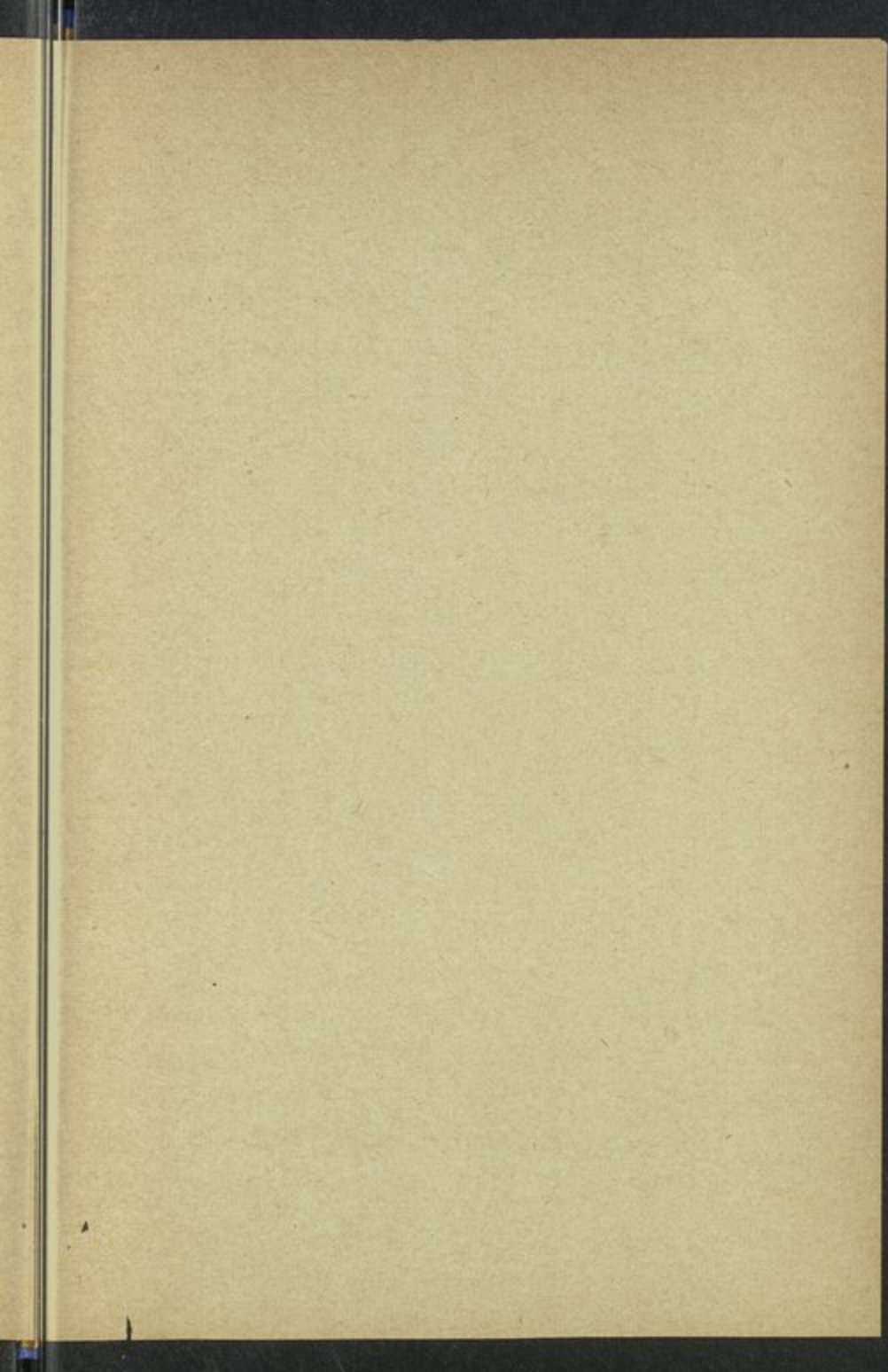
ثم تردد قليلاً وأحس بأن يوشك أن يكشف عن حقيقة عظيمة قد تنقذه من محنته ، وقد تودى بما بقى له من هناء . ثم دفع الباب ودخل .

وفي نهاية المزود رأى جثة رجل ميت يلبس قميصاً خشناً وبنطلوناً
أزرقاً مستلقية على كومة من الخيش ، ورأى منديلاً عليه تقط يغطي وجه
الرجل ، ورأى شمعة من النوع الرديء مثبتة في عنق زجاجة تبصق نارها
بجانب الجثة .

وشاعت في جسده رعشة ، وعرف أن قواه سوف تخونه إن هو تقدم
لرفع المنديل ، فنادى على أحد الفلاحين ولما دخل الرجل قال له وهو يعتمد
على الباب حتى لا يتهافت :

— اكشف وجه هذا الرجل ، فأنا أريد أن أعرف من يكون .

ورفع الفلاح المنديل عن وجه الرجل وتقدم دوريان جرای خطوات ،
وحين تبين وجه الميت لم يستطع أن يكتم صيحة الفرح الذي مشى في بنيانه
فلقد عرف أن الرجل الذي سقط في الغابة قتيلاً لم يكن إلا جيمس فين .
وثبت في مكانه بضع دقائق متفرساً في الجثة . ثم اعتلى فرسه وعاد
أدراجه إلى داره ، وفي الطريق فاضت عيناه بالدموع ، دموع الفرح ، وغمره
الفرح ، فرح السلامة .



الفصل التاسع عشر

*

قال اللورد هنرى وهو يضع أصابعه البيضاء فى إناء من النحاس الأحمر
ملوء بماء الورد :

— لا تحاول أن تفهمنى يا دوريان إنك ستصبح رجلاً صالحاً . إنك على
ناية ما يرام كما أنت الآن فلا تحاول أن تغير من طبيعتك .
فهز دوريان جراحى رأسه وأجاب :

— كلا يا هارى . لقد أتيت فى حياتى كثيراً من الذنوب المخجلة ولن
أضيف إلى قائمة جرائمى شيئاً بعد الآن . وقد بدأت حياتى الجديدة أمس
بفعل الخير .

— وأين كنت أمس ؟

قال اللورد هنرى وهو يتسّم :

— اسمع يا عزيزى دوريان . إن أى إنسان يستطيع أن يكون صالحاً
فى الريف ، لأن الريف خال من أسباب الغواية . وهذا هو السر فى أن الناس
الذين يعيشون بعيداً عن المدينة متأخرين فى المدنية . فالمدينة ليست شيئاً
سهل المنال إطلاقاً . وهناك طريقتان لاثلاثه لها يصل بهما الانسان إلى المدنية ،
الأولى ، هى الثقافة والثانية هى الانحطاط . وأهل الريف لا سبيل لهم إلى
الثقافة أو إلى الانحطاط . ولذا تراهم يتعفنون من فرط الركود .

قال دوريان :

— أنت تتحدث عن الثقافة والانحطاط ، ولقد أصبت من كليهما شيئاً
مذكوراً . ويبدو لى الآن أن اجتماعهما فى شخص واحد وخيم العاقبة ، فقد

اتخذت لنفسى مثلاً أعلى جديداً يا هارى ، وقررت أن أغير من طبعى ، بل اعتقد أنى قد غيرت من طبعى فعلاً .

ووضع اللورد هنرى بعض الشليك ذى البذور فى طبقه ورش عليه بعض السكر الناعم من ملعقة ذات ثقب تشبه المحارة فى هيئتها ، وقال :

— أنت لم تجربنى بعد بالعمل الصالح أو الأعمال الصالحة التى قت بها أفس .
— سأقص عليك ما حدث لأنك تعلم أكثر أسرارى ، وهى قصة لا أستطيع أن أطلع عليها أحداً غيرك . وقعت فى يدى فريسة ولكنى لم أفتك بها بل تركتها وشأنها . ولقد يبدو لك ذلك غفراً حيث لا موضع للفخر ولكنك تفهم ما أقصد إليه . عرفت فتاة تدعى هيتى بارعة جميلة وفيها شبه قوى من سيبييل ثين . وأعتقد أن هذا الشبه هو الذى جذبنى إليها أول الأمر . أنت تذكر سيبييل دون شك ؟ لقد مضت على حكايتها أيام طويلة كأنها دهور . مهما يكن من شىء فقد كانت هيتى من طبقة غير طبقتنا بطبيعة الحال ، ولم تكن غير فتاة قروية ساذجة ، ولكنى أحببتها من أعماق قلبى . نعم لست أشك فى أنى أحببتها . وقد دأبت على الخروج إلى الريف للقاءها مرتين أو ثلاث مرات من كل أسبوع طوال شهر مايو الجميل الذى سعدنا به هذا العام . وقد قابلتها البارحة فى بستان صغير ، وبينما نحن جالسان كانت الأزهار تتساقط من شجرة التفاح فوق شعرها فتضحك ، وقد وضعنا الخطة لنهرب معاً هذا الصباح عند انبلاج الفجر ، ولكنى قررت فجأة أن أتركها كما وجدتها طاهرة كالزهرة البيضاء .

فقاطعه اللورد هنرى قائلاً :

— اعتقد أن هذه العاطفة الجديدة التى لما تألفها قط ملائكتك بإحساس اللذة الحقيقية يدوريان . ولكنى أستطيع أن أتم هذه القصة الغرامية نيابة عنك لقد زودتها بالنصائح الأخلاقية وكسرت قلبها . وهكذا بدأت حياتك الصالحة . — ما أفساك يا هارى ! أرجوك أن تقلع عن قول هذه العبارات الساخرة .

فقلب هيتي لم ينكسر، وكل ما هنالك أنها بكت وتألمت إلى آخره، ولكني تركتها نقيصة كما وجدتها وهي تستطيع أن تعيش الآن كبرديتا في حديقتهما بين أوراق النعناع وأزهار الأقحوان .

قال اللورد هنري ضاحكا وهو يغوص في مقعده :

— وتبكي على فلوريزيل عاشقها الخائن . إن لك يا عزيزي دوريان نزوات صليانية لا أفهمها .

أتحسب أن هذه الفتاة سترضى الآن برجل من طبقها ؟ كلا ولعلمها تتزوج في يوم من الأيام بخوذى فظ أو فلاح عبوس ، ولكنها ستحتقر زوجها وتعيش في شقاء لأنها عرفتكم وأحببتكم فمن الناحية الاخلاقية لست أرى في توبتك العظيمة ما يستحق الإكبار . بل إن البداية نفسها بداية سيئة . ثم ما أدراك بأن هيتي ليست الآن طافية على وجه بركة ساكنة انعكست فيها نجوم السماء ، تحيط بها أفاحي الماء مثل أوفيليا صاحبة هاملت ؟

— هذا لا يحتمل يا هاري ، فأنت تمزق كل شيء إربا بربكك اللاذع ثم تتزوج كل شيء بمأساة فظيعة من نسج خيالك . وإنى لأسف على الإفضاء لك بما حدث ، ولم يعد حكمك يهمني لأنى واثق بأنى قد فعلت ما فيه الخير . يا لهيتي من فتاة مسكينة ! فيما كنت عائداً على جوادى هذا الصباح مررت بالحقل ورأيت وجهها في نافذة بيتها أبيض كباقة الياسمين . كفى حديثاً في هذا الموضوع ، وإياك أن تحاول أن تقنعنى بأن القليل من إنكار الذات الذى أبديته لأول مرة فى حياتى هو فى الواقع خطيئة جديدة ، فأنا أريد أن أهذب من طبيعتى ، بل إني لمهذبها مهما كانت الظروف . فلتحدثنى الآن عن نفسك . تحدثنى عن لندن وما يجري فيها فأنا لم أزر النادى أياماً وأياماً .

— إن أعضاء النادى لا يزالون يتحدثون عن اختفاء بازيل المسكين . قال دوريان عابساً وهو يصب بعض النبيذ فى كأسه :

— حسبته قد سئموا الكلام فى هذا الموضوع بعد هذه الأسابيع الطويلة .

— إنهم لم يتحدثوا في هذا الموضوع إلا ستة أسابيع يا عزيزي دوريان والجمهور في بريطانيا أغبي من أن يتحدث في أكثر من موضوع واحد كل ثلاثة أشهر ولقد كان حظه لا بأس به في الأيام الأخيرة ، فقد وجد قصة طلاقي أنا ، وقصة انتحار آلان كامبل ، ثم لغز اختفاء أحد الفنانين . وسكو تلانديارد لا تزال تصر على رأيها القائل بأن الرجل الذي سافر إلى باريس بقطار منتصف الليل لباساً معطفاً رمادياً كبيراً هو بازيل المسكين ، والبوليس الفرنسي لا يزال يقول إن بازيل لم يصل إلى باريس أصلاً . واعتقد أننا سنسمع بعد أسبوعين أن بازيل قد شوهد يتجول في شوارع سان فرانسكو . وهذا شيء غريب ولكن كل من يخفى يقال إنه يشاهد في سان فرانسكو فلا بد أن تكون سان فرانسكو مدينة جذابة فيها كل مغريات العالم الآخر . فسأله دوريان وهو يرفع نبيذه البورغوني إلى النور ويتأمله عاجباً من قدرته على الكلام في موضوع بازيل هولورد دون ارتعاج :

— كيف تعمل اختفاء بازيل ؟

— ليست لدى أية فكرة عن هذا الموضوع . فإذا كان بازيل يرى إخفاء نفسه عن الناس فهذا ليس من شأنى ، وإذا كان قد مات فلست أحب أن أفكر فيه . فالموت هو الشيء الوحيد الذى يرعبنى وأنا أمقته مقبلاً شديداً .

قال دوريان فى إعياء :

— ولم تكره الموت ؟

أجاب اللورد هنرى وهو يذنى من أنفه علبة قارورة للعطور مفتوحة مخططة بلاء الذهب :

— لأننا نستطيع فى هذه الأيام أن نقهر كل شيء إلا الموت . نعم الموت والابتذال هما كل مابقى فى القرن التاسع عشر من ظواهر لا نستطيع تفسيرها وإزالتها . هما نتناول قهوتنا فى صالون الموسيقى يا دوريان . وارجوك أن

تعرف شيئاً من شويان فأنا أتوق إلى سماعه . إن الرجل الذي هربت معه زوجته كان يعزف موسيقى شويان بمهارة لا تجارى . بالثكتوريا المسكنية اكتم كنت أميل إليها ! إن البيت يبدو مهجوراً بعد أن تركته ولا شك أن الحياة الزوجية مجرد عادة ، عادة سيئة ، ولكن الإنسان يأسف على فقدان عاداته ، حتى الخبيثة منها . بل لعل الإنسان يأسف على فقدان عاداته الخبيثة قبل أن يأسف على فقدان عاداته الحسنة ، لأن العادات الخبيثة جزء متمم لشخصية الإنسان . لم يحب دوريان بشيء بل نهض من مكانه في المائدة ومضى إلى الغرفة المجاورة وجلس أمام البيانو وترك أصابعه تجول بين مفاتيحه العاجية البيضاء ومفاتيحه العاجية السوداء . وجاءت القهوة فتوقف عن العزف ثم نظر إلى اللورد هنرى وقال :

— اسمع يا هارى ألم يخطر لك قط أن بازيل مات قتيلاً ؟

فتشاءب اللورد هنرى وقال :

— إن بازيل كان محبوباً من الجميع ، فما الداعي إلى قتله ؟ وهو لم يكن ذكياً فيكون له أعداء . أنا لا أشك في عبقريته كرسام ، ولكنك تستطيع أن تكون لك مهارة قليلاً سكينز في الرسم وتبقى رغم ذلك غودجا للغباوة . ولقد كان بازيل في الواقع على شيء من الغباوة ، ولم أجده في تفكيره ما أثار اهتمامي إلا مرة واحدة ، أعني حين باح لى منذ سنوات طويلة بأنه يحبك حباً يقرب من العبادة وبأنك النفس الجبار الذى يلهم فنه .

قال دوريان فى وجوم :

— وأنا كذلك كنت أحب بازيل حباً جماً . ولكن ألا يقول الناس إنه

مات مقتولاً يا هارى ؟

— نعم . هذا ما تقوله بعض الصحف ، ولكننى أستبعدده . صحيح أن باريس ملأى بالأوكار الجهنمية ولكن بازيل لم يكن بالرجل الذى يتردد عليها . فالفضول عنده كان ميتاً ، وهذا كان عيبه الرئيسى .

قال الشاب :

— لو أنى قلت إني قتلت بازيل فماذا تقول يا هارى ؟

ثم أخذ يتفرس فى اللورد هنرى ليرى وقع كلماته فى نفسه .

— أقول إنك تحاول أن تمثل شخصية لا تناسبك يا صديقى . فالجريمة

بكل أنواعها مبتذلة كما أن الابتذال بكل أنواعه جريمة . وليس فى طبيعتك

ارتكاب الجرائم يا دوريان . أقول هذا راجيا أن تعتقر لى جرحى لكبريائك ،

ولكنى أؤكد لك أن الإجرام ليس فى طبيعتك . الإجرام امتياز خاص تملكه

الطبقة الدنيا فى المجتمع ، وأنا لا ألوم أبناء هذه الطبقة على ذلك ، فالإجرام

عندهم يقوم مقام الفن عندنا ، أى أنه وسيلة لإشباع الحواس بالاختبارات

غير المألوفة . هذا ما أتصوره أنا على الأقل .

— وكيف يكون هذا ؟ أعتقد إذا أن من قتل مرة يستطيع أن يقتل

ثانية ؟ هذا بعيد الاحتمال .

قال اللورد هنرى ضاحكا :

— إن أى عمل قد يصبح مصدر لذة إذا اكتسب قوة العادة ، وهذا

سر من أهم أسرار الحياة . على أنى أعتقد أن القتل خطأ مهما كانت

ظروفه . فالإنسان يجب ألا يفعل شيئا يتأفف من الكلام فيه بعد العشاء .

ولكن دعنا من موضوع بازيل المسكين . ليتنى أستطيع أن أحمل نفسى

على الاعتقاد بأنه انتهى هذه النهاية المثيرة للخيال كما تقول ، ولكنى

عاجز عن ذلك . وإذا كان بازيل قد مات فعلا فأرجح أنه سقط من

الأتوبيس فى نهر السين مثلا وأن الكسارى نجح فى إخفاء هذه الحقيقة .

نعم . أرجح أن نهايته كانت شيئا من هذا القبيل . وإنى لأتصوره الآن

مستلقيا على ظهره فى قاع ذلك النهر الأخضر المنطقى ، وقد اشتبكت فى

شعره الأعشاب الطويلة وطفقت من فوقه الزوارق الكبيرة . وإنى

أعتقد يا دوريان أن فنه كان فى اضمحلال مستمر فى السنوات العشر

الآخيرة ولم يكن يرجى منه أن ينتج شيئاً آخر ذا قيمة حقيقية .
وتنهى دوريان وقطع اللورد هنرى أرض الغرفة وألشاً يداعب رأس
بيغاء جاءه من جاوه ، وهو طائر هائل أشهب الرياش وردى الصدر والذيل
يقف على غصن من الخيزران . وحين مسته الأصابع الدقيقة أغمض جفنيه
المتكسرين على عينييه السوداوين اللتين تشبهان الزجاج وبدأ يتأرجح يمنة
ويسرة . ثم التفت اللورد هنرى إلى الخلف وأخرج منديله من جيبه قائلاً :
— نعم ، إن فنه قد انحط ، ويبدو أن شيئاً ضاع منه . يبدو أن المثل
الأعلى ضاع منه . وحين فترت الصداقة بينكما حذت جذوة فنه ، فإذا فرق
بينكما يدوريان ؟ أظن أنه أضجرك بمواعظه وتقاهاته ؟ إذا كان الأمر كذلك
فلا بد أنه ألقى عليك اللوم دائماً ، فهذه عادة الناس المضجرين . وبهذه المناسبة
يدوريان ، ماذا كان مصير تلك الصورة الرائعة التي رسمها لك ؟ أظن أنى لم
أرها منذ أن أتم بازيل رسمها . أذكر أنك قلت لى منذ سنوات عديدة إنك
أرسلتها إلى قصر سلى وفى الطريق اختفت ، ضاعت أو سرقها سارق . ألم
تستردها يدوريان ؟ إن ضياعها لشيء محزن ، فقد كانت صورة من بدائع الفن
الخالدة . وإنى لأذكر أنى رغبت فى شرائها ، وباليتمنى اشتريتها فهى من إنتاج
بازيل إيان عنفوانه الفنى . ولقد صار فنه منذ أن رسم تلك الصورة مزيجاً
من الأسلوب الركيك والنوايا الطيبة وهو المزيج الذى يؤهل صاحبه
فى كل عصر لأن يكون فناناً بريطانياً من الطراز الأول . قل لى : أعلنت
عن ضياع الصورة ؟ إن كنت لم تعلن بعد فالواجب يقضى عليك بأن
تفعل ذلك .

قال دوريان :

— لست أذكر يا هارى ، ولكنى أرجح أنى أعلنت عن ضياعها ، وإن
كنت لم أحبها قط ، بل إنى لآسف على أنى سمحت لبازيل أن ينقلها عنى ،
وذكرها تثير فى نفسى أبغض الخواطر . لم تتحدث عنها ؟ لقد كانت تذكرنى

بيت من الشعر في مسرحية من المسرحيات ، أعتقد أنها مسرحية « هاملت »
كانت تذكرني بهذا البيت :

هي صورة الأحزان ،

هي وجه بلا قلب .

نعم يا هاري ، هذا وصف صادق لتلك الصورة .

وضحك اللورد هنري وأجاب وهو يغوص في مقعده :

— لو أن رجلاً عامل الحياة معاملة فنان لقام عقله مقام قلبه .

ولم يجب دوريان جرای بل هز رأسه وعزف لحناً حنوناً على البيانو
وأنشأ يردد :

هي صورة الأحزان ،

هي وجه بلا قلب .

واستلقى اللورد هنري إلى الوراء وأغمض جفنيه قليلاً وأدمن النظر إلى
دوريان ثم قال بعد صمت قليل :

— مارأيك يا دوريان في قول المسيح « ماذا يستفيد الإنسان لو خسر
روحه ورجع العالم أجمع ؟ »

واضطرب اللجن ، والتفت دوريان جرای إلى اللورد هنري متزعجاً
وحملق فيه طويلاً ثم قال :

— لم تسألني هذا السؤال يا هاري ؟

قال اللورد هنري وهو يرفع حاجبيه دهشة :

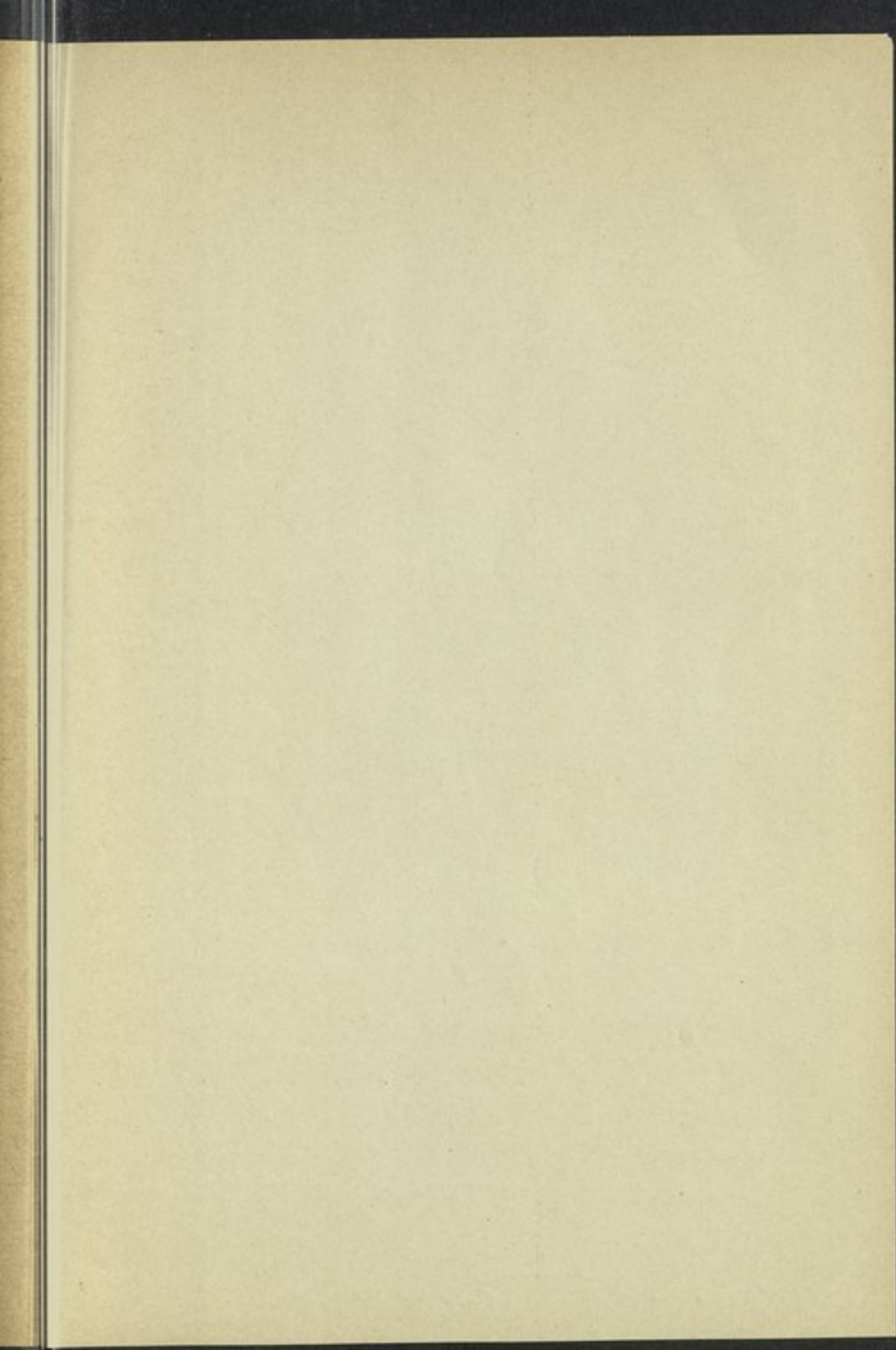
— سألتك هذا السؤال لأنني حسبت أنك قد تعرف الجواب عليه .

وهذا كل مافي الأمر يا صديقي . ففي يوم الاحد الفائت كنت أمر في هايد



صفحة ٣٠٠

وعلى الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السهرة .
 ... وكان الرجل مغضن الوجه يابس البدن كره الملامح .



بارك ، ولما كدت أبلغ الماربل آرتش رأيت تقرأ من الناس قليلا ، ثيابهم رثة ، يستمعون إلى واعظ تافه من وعاظ الشوارع . وفيما أنا أمر بهذه الجماعة سمعت الواعظ يطرح هذا السؤال على سامعيه ، وقد خيل إلي أن في المشهد الذي رأيته قوة مسرحية بليغة . إن لندن ملأى بمثل هذه الظواهر الغريبة ومن المؤلف أن تخرج كما خرجت في يوم مطير من أيام الأحد فتري مسيحيًا خشن المنظر يرتدى معطفًا من الجلد ومن حوله اجتمع رهط من الناس وجوههم شاحبة فوق رؤوسهم مظلات مبللة تنحدر عليها مياه المطر ، وتسمع عبارة بليغة يلقها في الهواء صوت عصبي حاد . لقد كانت الكلمة جميلة على طريقتها الخاصة ، وكانت تحمل معنى قويًا . وقد عن لي أن أجيب على سؤال هذا النبي الصغير قائلا بأن للفن روحًا أما الإنسان فلا روح له ، ولكنني خشيت ألا يفهم معنى كلامي ، فضيت لحالي .

— لا تشك في وجود الروح يا هاري ، فالروح حقيقة رهيبة لا مرأ فيها ، وهي تباع وتشرى وتستبدل بشئ الأشياء ، وهي تقبل أن تسمم وهي تقبل أن تهذب . إن في كل منا روحًا ، وأنا على يقين من ذلك .

— أنت واثق تماما من وجود الروح يا دوريان ؟

— تمام الوثوق .

— لا بد إذا أن تكون الروح وهما . فكل ما نثق منه لا أساس له من الصحة . وهذه مأساة الأيمان وهذه عظة الخيال . لم كل هذا الوجوم يا دوريان ؟ هيا انفضه عنك . هذه ترهات العصر ونحن لا نكثر لها . نعم ، لقد تخلينا عن إيماننا بالروح . هيا اعزف لي شيئًا على البيانو ، اعزف لي ليلية من ليليات شوبان يا دوريان ، وقص علي بصوت مهموس كيف استطعت أن تحتفظ بشبابك . لاشك أن لديك سرًا تصون به الجمال ، فأنا أكبرك بعشر سنوات لا غير ومع ذلك تراني مغضن الوجه متعب الجسد شاحب اللون . أما أنت يا دوريان فتمودج للجمال الحى ، وما رأيك قط أشد فتنة مما أنت الآن ،

فأنت تذكرني الليلة بيوم لقائنا الأول . لقد كنت يومئذ شديد الحجل
لامثيل لك في الدنيا . ولقد تغيرت ، ولكن في شخصيتك لا في مظهرك .
وليتك تبوح لي بهذا السر العظيم الذي يديم عليك الشباب ، فأنا على استعداد
لأن أفعل أى شيء لاسترد شبابي ، إلا أن أصحو مبكراً أو أقوم بالتمرينات
الرياضية أو أصطنع مظهر الرجل المحترم . فياليت الشباب يعود ، فهو النعمة
الأولى في هذه الحياة . ومن السخف أن يتحدث الناس عن حماقة الشباب ،
وأنا لا أقيم وزناً لرأى أحد إلا إذا كان يصغرنى بسنوات عديدة . إنى أرى
الشبان يتقدمون السكحول من أمثالى ، لأن الحياة قد كشفت لهم عن أحدث
عجائبها وضنت به علينا . أما الشيوخ فأنا أختلف معهم في كل شيء ، وهذه
سنه أتبعها ، فلو أنك سألتهم عن رأيهم في شيء وقع بالأمس رددوا لك الآراء
التي كانت منتشرة في عام ١٨٢٠ ، أيام أن كان الناس يلبسون الجوارب حتى
الركبة ، ويؤمنون بكل ما يقال لهم ويجهلون كل شيء في الوجود . ما أعذب
هذا اللحن الذى تلعبه يا دوريان . لعل شويان وضعه وهو فى ميوركا وهو
يسمع البحر ينتحب حول بيته ورشاشه المالح يلطم زجاج نافذته . كم يحرك
هذا اللحن خيالى يا دوريان . يجب أن نشكر الآلهة يا دوريان على أنها أبقت
لنا فناً واحداً لا يقوم على التقليد . استمر يا دوريان فنفسى نحن إلى الموسيقى
هذه الليلة . ويسدولى أنك أبولو الإله الصغير وأنى مارسياست استمع
إليك . إن نفسى حزينة ، وأحزانها خبيثة لا يعرف عنها أحد شيئاً حتى أنت
يا دوريان . إن مأساة الشيخوخة ليست فى شيخوختنا ولكن فى شبابنا .
هذا قول صادق أقوله مخلصاً وأعجب لإخلاصى فى القول . وما أسعدك
يا دوريان بهذا الشباب الذى لا ينضب ، وما أجمل حياتك ، فلقد شربت من
كل شيء حتى الثمالة ، ولقد عصرت غناقيد السعادة على لسانك فما أبقيت منها
شيئاً ، ولقد عرت الحياة صدرها أمامك ولم تستر عنك شيئاً ، ومع ذلك فقد
جاءتك السعادة بحجىء لحن جميل بعيد فلم تفقد توازنك ، ولم تفقد طبيعتك .

أجل . أنت لم تتغير رغم كل ما مر بك .

— ولكنني تغيرت يا هاري !

— كلا . أنت لم تتغير بل بقيت على حالك . ترى كيف تكون حياتك المستقبلية ؟ مهما يكن من شيء فلا تفسدها بالتوبة . أنت الآن نموذج للكمال ، فلا تلتقص من نفسك يا دوريان . أنت الآن سالم من كل خدش أو عطب . لا تهز رأسك فأنت تعرف أني صادق فيما أقول . ولا تخدع نفسك يا دوريان ، فالحياة لا تخضع للإرادة أو للنوايا ، ولكنها تخضع للأعصاب والألياف والخلايا التي تنمو وريداً وريداً وتحتوي فيها الأفكار وينسج القلب أحلامه ، ولقد تخال نفسك بمأمن من صوت الماضي ولقد تحسب نفسك حديدي العزمات ولكنك في الواقع خاضع لآفته الأمور . لون تراه صدفه في غرفة من الغرف أو صفاء تراه في السماء ذات صباح أو عطر كنت تحبه في يوم من الأيام يعود إليك بخفي الذكريات أو بيت من قصيدة منسية أو تنعيم بقي لك من لحن قديم ، مثل هذه الأشياء تتوقف عليها حياتنا يا دوريان . لقد كتب براوننج شيئاً بهذا المعنى . ولكننا لسنا بحاجة إلى شعره لفهم ذلك ، فحواسننا لها قدرة التصور . ولقد يهب في أنفي أريج اليلج الأبيض فأبقى شهراً كاملاً سجين الذكريات وأعود بخلدني إلى أغرب شهر مر بي في حياتي . ليتني كنت مكانك يا دوريان . إن المجتمع شأنني وشأنك ، ولكن المجتمع يعبدك ولا يعبدني . ولسوف يمضي المجتمع في عبادتك فأنت نموذج لكل ما يصبو إليه العصر وكل ما يخشاه من حقائق الحياة . وإني لمعتبط بأنك لم تخرج من نفسك فتنحت تمثالا أو ترسم صورة أو تنتج أي شيء تنزل فيه عن جزء من شخصيتك . لقد كانت الحياة فنك ، فكان كل يوم من أيام صورك لحن جميل .

ونفض دوريان من مكانه أمام البيانو ومر بأصابعه خلال شعره وقال :
— نعم . لقد كانت حياتي الماضية جميلة ، ولكن حياتي المستقبلية لن

تكون كحياتي الماضية يا هاري . وأنا أسألك ألا تردد علي مسامعي هذه الأقوال الطنانة فأنت لا تعرف بعض نواحي حياتي ، ولو قد عرفتها لانصرفت عني . ها أنت ذا تضحك ، ولكنني أرجوك ألا تضحك .

— لم توقفت عن العزف يا دوريان ؟ عد إلى البيانو والعب هذه الليلية مرة أخرى . وانظر إلى القمر الكبير تر لونه كلون الشهيد ، انظر إليه وهو معلق في السماء الظاماء تر أنه ينتظر منك أن تسحره بألحانك ، فعد إلى اللعب يقترب القمر من الأرض . أراك تصر على رفضك . إذا فهيا بنا إلى النادي حيث نختم هناك الليلة الجميلة ختاماً جميلاً . إن في نادي هوايت فتى مشوقاً إلى التعرف بك هو اللورد پول الشاب وهو الابن الأكبر للورد بورنوث ، وقد بدا فعلاً بتقليد ربطات الرقبة التي تلبسها ، ورجاني رجاء حاراً أن أقدمه إليك . وسوف تجد فيه أنيساً مسلياً ، ولا أكتفك أنه يذكرني بك إلى درجة ما .

قال دوريان في حزن :

— أرجوك ألا يكون هذا صحيحاً . ولكنني الليلة متعب يا هاري ولن أستطيع الذهاب إلى النادي . لقد أوشكت الساعة أن تبلغ الحادية عشرة ، وأنا أفضل أن آوي إلى فراشي مبكراً .

— أرجوك أن تبقى معي يا دوريان ، فانا لم أسمعك قط تلعب بهذا الحنان وبهذه المهارة ، ولقد كان أسلوبك أقوى تعبيراً منه في أي وقت مضى .

فأجاب دوريان وهو يبتسم :

— ذلك لأنني قررت أن أفلح عن الشر ، ولقد تغيرت فعلاً كما ترى ولو بقدر قليل .

قال اللورد هنري :

— ولكن علاقتنا لن تتغير يا دوريان ، وصدقتنا لن يصيبها شيء .

— أنت نسيت أنك سممت أفكاري بكتاب أرسلته إلي ولا يصح أن أغتفر لك ذلك . فعدني يا هاري بألا تعبر هذا الكتاب لأحد فهو خبيث الأثر .

— أرى أنك قد بدأت تعظ الناس فعلاً فيما تميزه الأخلاق وما لا تميزه . وسوف تصبح بعد قليل كأولئك التائبين وأصحاب حركة إحياء الدين المسيحي ، تسير في الناس محذراً إياهم من الخطايا التي شبع منها حتى زهدت فيها . فلا تفسد شخصيتك الجميلة بهذا العبث ثم إنك لم تنجح في ذلك مهما حاولت فأنت وأنا باقيان على حالنا ولن تتغير في المستقبل . أما قولك بأن كتابي سمك فهذا لغو لأن الفن لا أثر له في سلوك الإنسان ، فإن كان له أثر في سلوك الإنسان فهو أنه يشل الرغبة في العمل . الفن عقم جميل . والكتب التي ينعتها الناس بأنها منافية للأخلاق هي التي تكشف للإنسانية عن عوراتها . هذا كل ما في الأمر . ولكن دعنا الآن من حديث الأدب . سأنتظر غداً ، وأنا خارج للترهة على جوادى في الساعة الحادية عشرة ، فلنخرج سوياً إذا شئت ، وبعد الترهة سأأخذك إلى دار الليدى برانكسوم حيث نتغدى على مأدتها ، فهي سيدة لطيفة المعشر ، وهي تحب أن تستشيرك في بعض المنسوجات المصورة التي ترغب في شرائها . لا تنس أن تأتي ، وإن كنت تفضل أن تتغدى مع الدوقة الرشيقة كان بها . إنها تقول إنك قد احتجبت عنها تماماً في هذه الأيام الأخيرة ، فاعلك قد مللتها كما كنت أتوقع ، فمهارتها في الحديث تتعب الأعصاب . على أية حال تعال في الساعة الحادية عشرة ولنتصرف بعد ذلك كما نشاء .

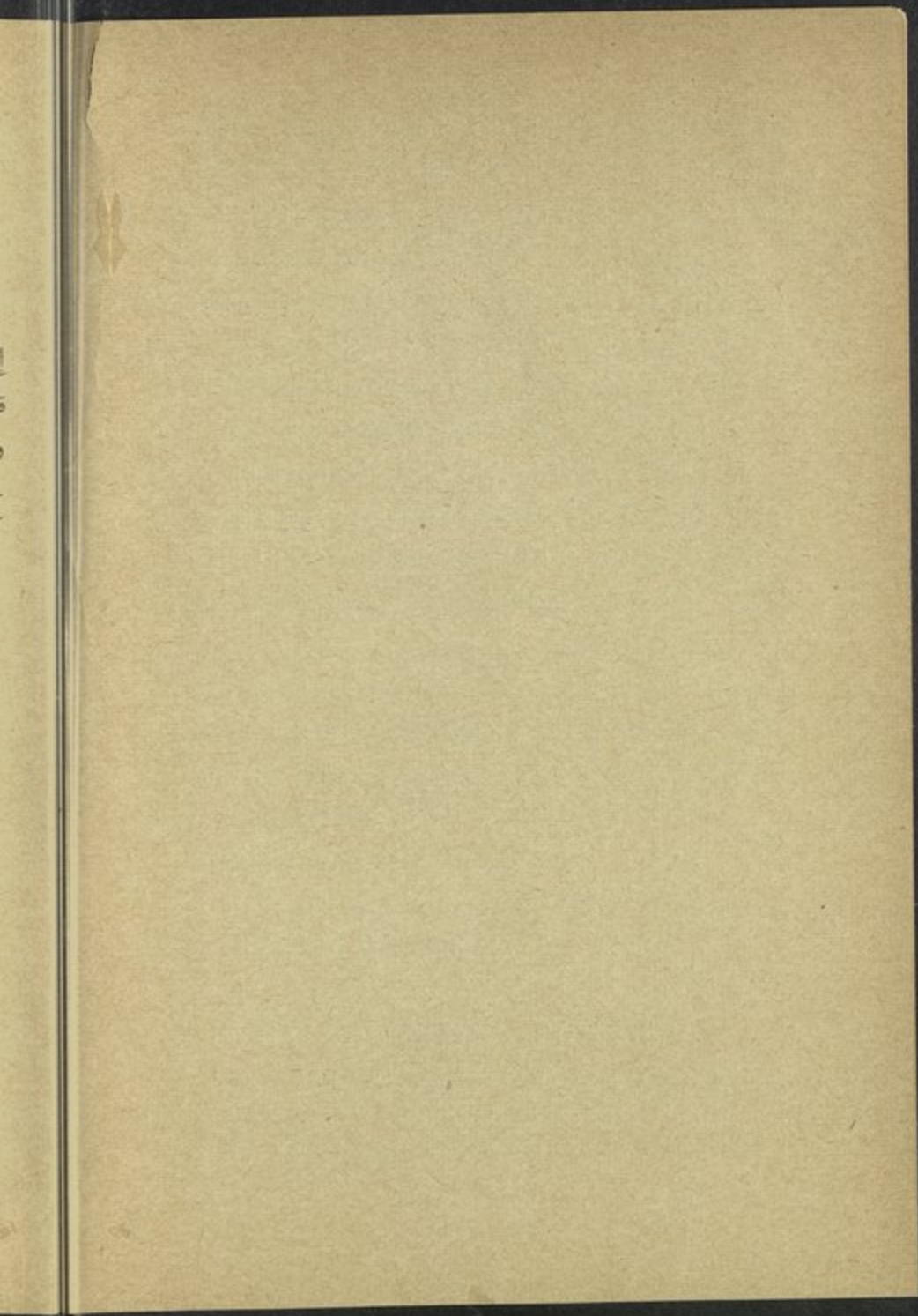
— وهل هناك ضرورة لمجيئى غداً يا هارى ؟

— نعم ، بلا جدال فهناك بارك في هذه الأيام في أجل حلة وفيه من البنفسج ما لم أره منذ أن قابلتك أول مرة .

قال دوريان :

— إذا سأكون هنا في الحادية عشرة ، فالى اللقاء يا هارى .

وبلغ الباب ثم تردد قليلاً كأن بنفسه شيئاً يريد أن يبوح به لصاحبه ، ولكنه تنهد وخرج .



الفصل العشرين

*

كان الليل ساجيا فحمل دوريان جرای معطفه على ذراعه إذ لم تكن به إليه حاجة ؛ كذلك لم يحتمل أن يضع كوفيته الحريرية حول عنقه ، وسار قاصداً بيته وكان يدخن . وفيما هو سائر مر به شابان يلبسان ثياب المساء ، وسمع أحدهما يقول للآخر : « هذا هو دوريان جرای » وتذكر دوريان جرای أيامه الخاليات حين كان يغتمط إذا أشار الناس إليه أو حملقوا فيه أو تحدثوا عنه . أما الآن فقد مسح كل ذلك وأصبح يسوء أن يسمع اسمه يتردد . وكان يرتاح إلى القرية ، قرية هيتي التي أكثر من زيارتها في الأسابيع الأخيرة ، لأنه كان مجهولاً فيها . وكم من مرة قال لتلك الفتاة التي ساقها إلى حبه سوفاً إنه رقيق الحال لا يملك من متاع الدنيا شيئاً فصدفته . ولقد ذكر لها مرة إنه مخلوق شرير فضحكت وقالت إن المخلوقات الشريرة لا بد أن تكون دميمة الخلقة طاعنة في السن . نعم ضحكت ملء رئتيها ورنّت ضحكتها كأنها زقزقة عصفور . كم كانت هيتي جميلة في ثيابها القطنية وقبعاتها الكبيرة ! ولم يكن علم هيتي كثيراً ولكنها لم تكن بحاجة إلى العلم ، فقد اجتمع لها كل ما ضاع منه من فضائل .

ولما بلغ بيته وجد الخادم في انتظاره . وصرفه لينام ثم تمدد على أريكة بالمكتبة ، وبدأ يفكر في بعض ما قاله اللورد هنري .

هل سيعجز حقاً عن تغيير طبيعته كما زعم اللورد هنري ؟ إن به شوقاً آكلاً إلى صباه الطاهر الطير ، إلى صباه الذي أشبهه بأقوى من الورد الأبيض والورد الأحمر ، بلغة اللورد هنري . إنه يعلم أنه لوث نفسه ، وأفسد عقله وشجن خياله بالأشباح المخيفة . وهو يعلم أنه كان ينشر الانحطاط حوله أينما

ذهب ، وأنه كان يسر بذلك سروراً عظيماً ، وأنه كان ينتخب من رفاقه أذكاهم وأصلحهم للحياة فيلقى بهم في أتون الشر كأنه إبليس الرحيم ، ويجردهم من الشرف . ولكن هل فات الأوان حقاً ؟ وهل ضاع كل أمل في التوبة ؟

لقد أخذه الغرور مرة وأعماه حب الدنيا فصلى إلى الآلهة أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته وأن تبقى له على شبابه الناضر إلى يوم يموت . وقد كان . وهكذا بدأت مأساة حياته فياليت ذنوبه حفرت على وجهه آثارها النكراء وشوخته أولاً بأول ولو قد حدث هذا لجاء عقابه آجلاً سريعاً رادعاً ، وفي القصص تطهير للنفس الآثمة . ونحير للإنسان أن يصلي أمام عدالة الله قائلاً : « أبانا الذي في السموات ! ابطش بنا لذنوبنا » من أن يصلي قائلاً : « أبانا الذي في السموات ! اغفر لنا ذنوبنا » .

وكانت المرأة العجيبة التي أهداها إليه اللورد هنرى منذ سنوات طويلة لاتزال قائمة على المائدة ، وكانت رسوم كوييد التي تزينا لاتزال تضحك كما كانت تضحك قديماً . وتناول دوريان جرای المرأة ، تناوّلها كما تناوّلها في تلك الليلة العصيبة حين لاحظ التغيير الذي أدرك الصورة المشؤومة ، ونظر إلى خياله فيها بعين زائغة دامعة . وذكر الكلمات الوثنية التي كتبتها إليه عاشقه مجنونة في خطاب محموم : « إن العالم يتغير لأن الآلهة صاغتك من عاج وذهب : إن خطوط شفتيك تكتب التاريخ من جديد » . عادت هذه الكلمات إلى خاطره فرددها خاطره المرة تلو المرة ، ثم سئمت نفسه جمال وجهه فقذف بالمرأة على الأرض وداس عليها بقدمه فهشمها إلى شظايا تلمع كقطع القضة . لقد حطم هذا الجمال حياته وأجهز شبابه على سعادته ، ولولا جماله وشبابه لعاش أبيض الصفحة لا يعرف الدنس . إن جماله لم يكن إلا قناعاً وشبابه لم يكن إلا حلة مسمومة فإذا أفاد من الشباب ؟ زمان الصبوات المتلفعة والتمسار الفحة ، والعواطف السطحية المريضة . لقد فسد دوريان جرای وما أفسده إلا شبابه .

ولكن كان من الخير ألا يفكر في الماضي ، فما كان كان وإن تمحوه قوة على الأرض أو في السماء . فليفكر إذاً في نفسه وفي مستقبله . إن جيمس فين راقد في قبر بغير شاهد في فناء كنيسة سلمى . إن آلان كامبل قد أطلق النار على نفسه ذات ليلة وهو في معمله ، ولكنه لم يبح بسرهما لأحد . ولسوف تسكن الضجة التي أثّرت حول اختفاء بازيل هولورود عما قريب ، بل لقد خفتت فعلاً . إذاً فهو سالم لا يخشى افتضاحاً . ولكن اضطرابه لم يأت من تفكيره في موت بازيل هولورود . لقد كان اضطرابه من إحساسه بأنه ميت حتى في روحه . إن بازيل رسم له صورة قضت على حياته ، ولن يغتفر له تلك الإساءة . نعم . كل ما تزل به علته الصورة . إن بازيل أباح لنفسه أن يجره زجراً لا يحتمل ، ومع ذلك فقد احتمل ما قاله بازيل بصبر عظيم . إن قتل بازيل كان في لحظة جنون استولى عليه . أما آلان كامبل فقد قتل نفسه بيده ، وهو الذي شاء أن يموت ، فكيف يسأل دوريان جرای عنه ؟

إلى الحياة الجديدة إذاً ، فالحياة الجديدة هي ما تصبو إليه نفسه ، ولقد بدأ هذه الحياة الجديدة فعلاً . أو لم يظفر بفريسة بريئة ثم يطلقها ؟ إن نفسه لن تسول له بعد الآن أن يلوث زهرة نقية . إن نفسه تطلب عمل الخير . وفيما هو يفكر في هيتي مرتون اتجهت أفكاره إلى الصورة القائمة في الغرفة المقفلة ، وخطر له أنها لا بد أن تكون قد تغيرت ، فحال أن تحتفظ الصورة بكل بشاعتها بعد أن فعل ما فعل مع هيتي . وأخذ يحلم بالتوبة وأثرها في اللوحة ، فظن أنه لو طهر نفسه من آثامها إثمًا بعد إثم لاستطاع أن يحو من الصورة كل ما فيها من معالم الشر وأن يرد إليها الرونق المفقود . بل ما يدريه أن الصورة لم تتغير فعلاً وأن معالم الشر لم تزل عنها ؟ إذاً فليفحصها لقوره . وحمل المصباح القائم على المائدة ودب ديباً خفيفاً إلى الغرفة العليا . وشد المزلاج وهو يتسمم ابتسامة الفرح وداعبت خياله الخواطر الجميلة فأضاء وجهه الدائم النضرة فهو لن يفزع بعد اليوم من مرأى الصورة لأنه تائب ،

ولأن الصورة الممسوخة سوف تسجل توبته كما سجلت إجرامه . وأحب بالراحة الكبرى .

ودخل في هدوء ، وأقبل الباب وراءه كعادته ، ونزع الستار الأرجواني فكشف اللوحة . وخرجت منه صيحة المتألم وصيحة الغاضب في وقت واحد ذلك لأنه لم ير في الصورة التحول المنشود ، فكل ما جدها يريق في العينين هو يريق المكر والتواء في الشفتين ينم عن النفاق : لقد كانت الصورة كما تركها آخر مرة ، مسخاً حياً ، بل لعل مسخها اشتد إن كان قد بقي فيها مجال لذلك . ورأى البقعة الحمراء التي تلتطخ اليد أشد أحمراراً مما كانت ورأى فيها آثار دم جديد . ومشت في أوصاله رعدة فقد تذكر ما قاله اللورد هنري . إن اللورد هنري زعم أن غروره قد ساقه إلى فعل الخير ، أنهذا صحيح ؟ إن اللورد هنري زعم أن رغبته في الحصول على لون جديد من ألوان الإحساس هي التي دفعته إلى فعل الخير . أفهذا صحيح ؟ لعله كان يمثل دوراً سامياً لاحقاً في السمو بل كلفاً بالتمثيل . لعل هذه العوامل مجتمعة هي التي ألهمته أن يفعل ما فعل . ثم البقعة الحمراء التي تلتطخ أصابعه الشوهاء . كيف اتسعت هذه البقعة الحمراء . وشاهد على قدميه آثار دماء كأنما سالت القطرات من يده قطرة قطرة . كذلك اليد الأخرى التي لم تمسك بالمدينة شاهد عليها دماء . ترى مامعنى هذا ؟ الاعتراف ؟ هل يراد به أن يعترف ، أن يسلم نفسه إلى العدالة ؟ وضحك دوريان جرای ، لأنه علم أن هذا محال . ولو أنه اعترف لما صدقه أحد . فأين جثة القتيل ؟ لا أثر لها . أين أشياؤه ؟ لا أثر لها . لقد أحرقتها دوريان جرای بنفسه ولو أنه تجوّد على الناس بهذه القصة لظنه الناس مخبولاً . ولو أنه أصر على دعواه لاودعوه في مستشفى المجاذيب . ولكن الواجب يقضى عليه بأن يعترف ، وبأن يعلن على الناس عاره ، وأن يكفر أمام الناس عما اقترفت يده . فأنه يأمره أن يعترف أمام الأرض كما يعترف أمام السماء ، ولن يغسل عنه خطاياهم إلا أن يعترف بها . وما هي خطاياهم ؟ إن موت بازيل

هولوورد لم يزعجه كثيراً ، لأنه يفكر في هيتي ميرتون . يالها من امرأة خائنة ، هذه المرأة التي يرى فيها روحه ! أكان غروره أم فضوله أم رياؤه هو الذي دفعه إلى توبته المرعومة ؟ ألم يكن في توبته ذرة واحدة من الإخلاص ؟ نعم لقد كان في توبته شيء من الإخلاص ، أو هذا ما كان يتوهمه قبل أن يرى الصورة . ترى من يستطيع أن يدلّه على الحقيقة ؟ الصورة . والصورة تقول إن توبته لم يكن فيها ذرة واحدة من الإخلاص . فهو لم يفتك بهيتي ميرتون إلا إرضاء لغروره ، وهو قد لبس قناع التقوى من باب الرياء ، وهو قد جرب إنكار الذات من باب الفضول . هذه هي الحقيقة ، وهو يدركها الآن . ولكن ما سبيله إلى الخلاص من آثار جريمته ، وهل قتله بازيل هولوورد مطارده بقية حياته ؟ وكيف يفعل بماضيه ؟ أو يحمل عبئه دائماً ، دائماً ؟ وهل هناك ما يلزمه بالاعتراف ؟ كلا . فلم يبق من الأدلة التي تدينه إلا دليل واحد ، وهذا الدليل هو الصورة ؛ فلتدمر الصورة تدميراً . ترى ماذا حمل على الإبقاء عليها كل هذا الزمن ؟ لقد كان في وقت من الأوقات يجد لذة في تتبع التغير الذي يطرأ عليها ، ولكنه فقد هذه اللذة أخيراً . ولكم أرقّت الصورة جفنيه ولكم امتلأ جزعا كلما غادر لندن خشية أن تقع عليها عينان . لكم أوجت له الصورة بالأفكار السوداء ولكم هيجت فيه الأحزان . لقد كانت الصورة عنده بمثابة ضميره الحي ، ما في ذلك شك . فليحطم ذلك الضمير الذي يفسد عليه طعم الحياة .

وتلفت حوله فرأى المديّة التي قتل بها بازيل هولوورد . كم غسل هذه المديّة ومسحها حتى لم يبق عليها أثر لدم ! رآها تلعب . إنها المديّة التي قتلت الرسام ، فلتقتل إذاً عمل الرسام ، ولينته بذلك الأمر . فلتقتل المديّة الماضي ، وحين يموت الماضي ينعم دوريان جرای بحريته مرة أخرى . ولولا هذه الروح اللعينة الحية في الصورة لوجد الطمأنينة الكاملة . فلتزهق إذا هذه الروح اللعينة الحية . وأمسك دوريان جرای بالمديّة وطعن بها الصورة .

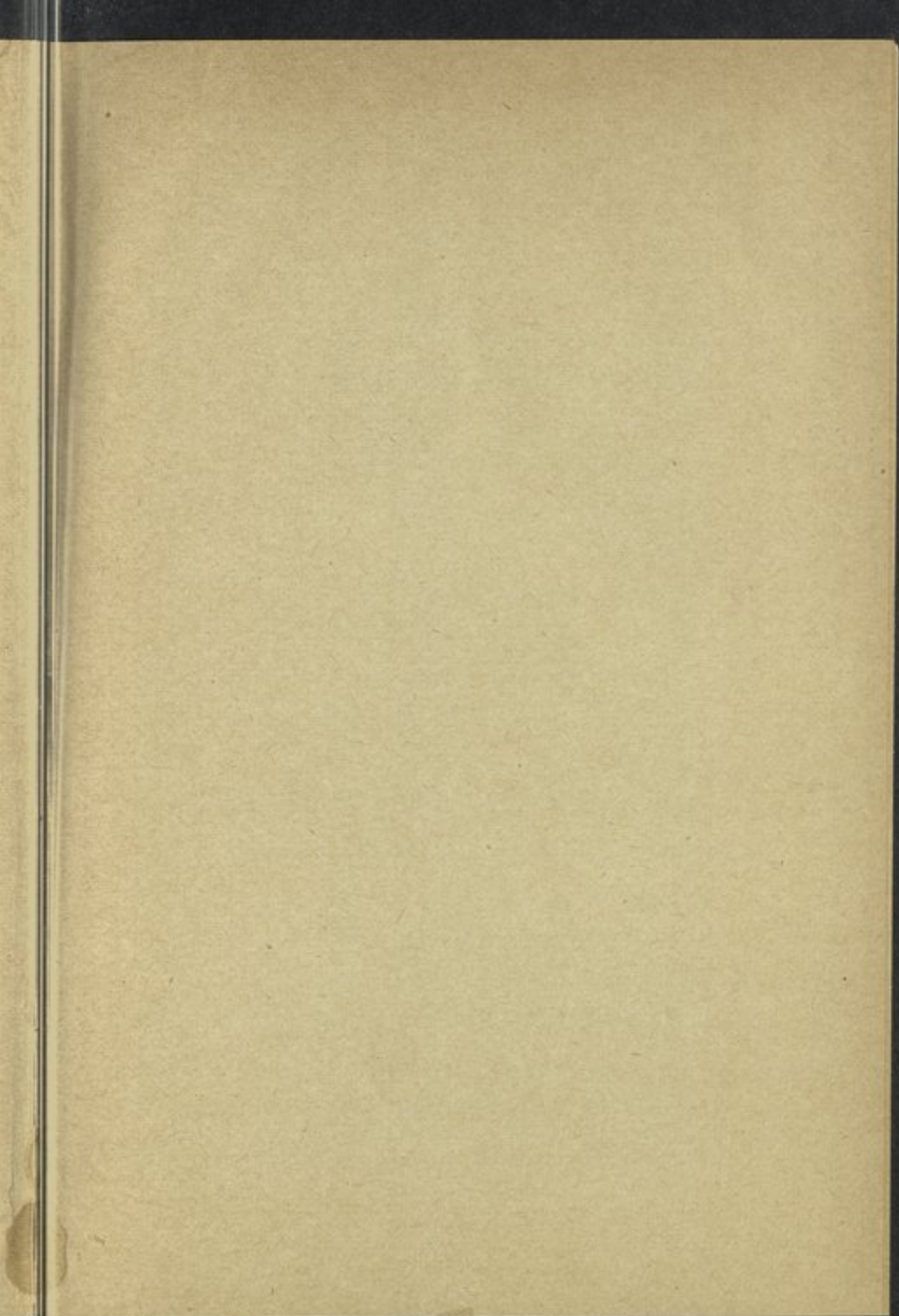
وارتفعت صرخة وعقبها سقوط جسم .
 وكانت الصرخة مفاجئة حتى لقد أيقظت الخدم من نومهم وانسلوا خارجين
 من غرفهم ليقفوا على ما كان . وكان بالميدان رجلان عابران سماعا الصرخة
 العالية . فتوقفا عن المسير ونظرا إلى البيت الكبير في ارتياب ، ثم مضيا
 يبحثان عن شرطى ، وعادا بالشرطى إلى البيت . ودق الشرطى الجرس عدة
 مرات ، فلم يتلق جواباً وكان البيت مظلماً ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة
 إلا النور المنبعث من النافذة العليا . وبعد قليل انصرف الشرطى ووقف
 عند مدخل بيت مجاور ، وأنشأ يترقب الحوادث .
 وسأله أحد الرجلين قائلاً : بيت من هذا ؟

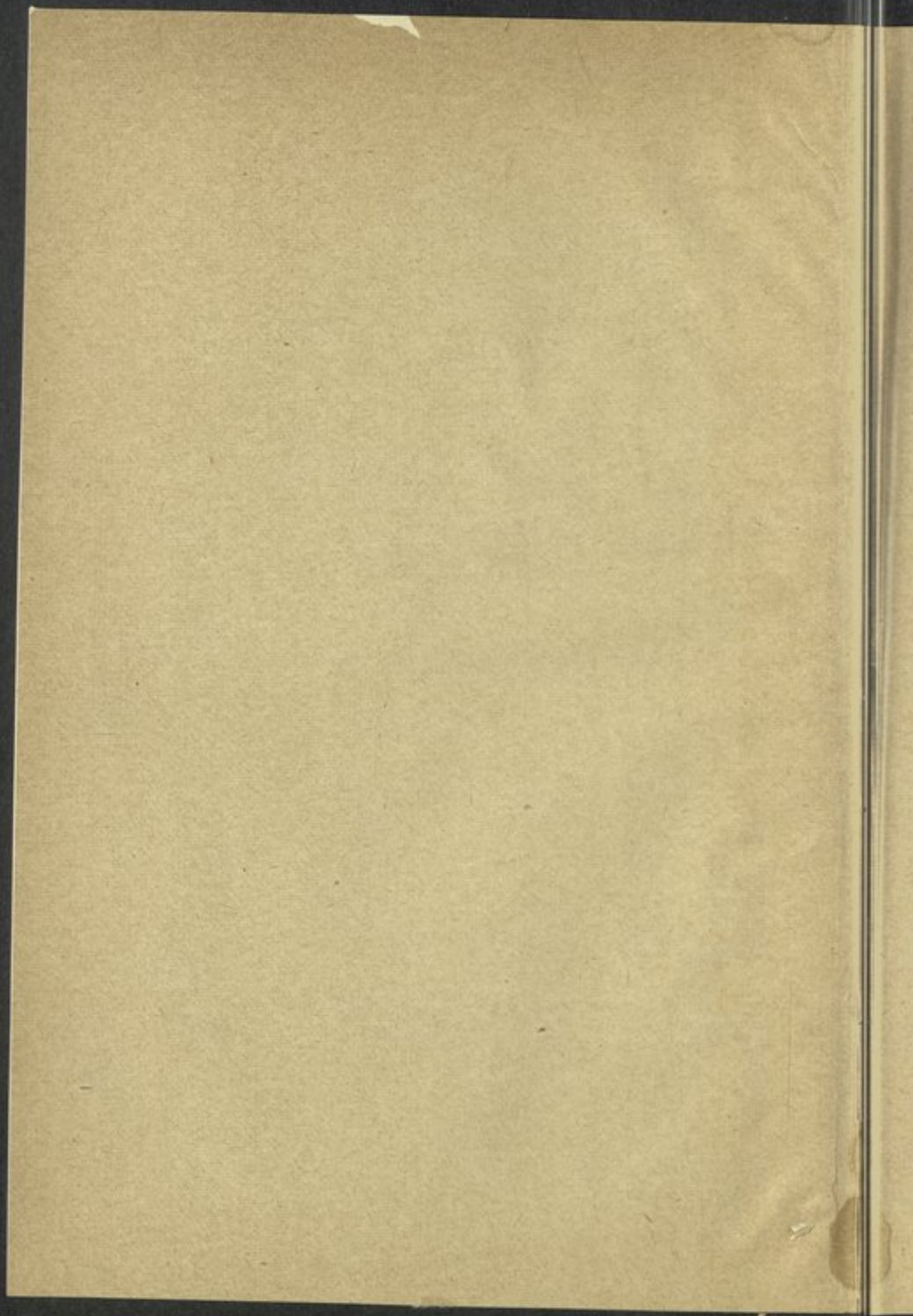
فأجاب الشرطى :

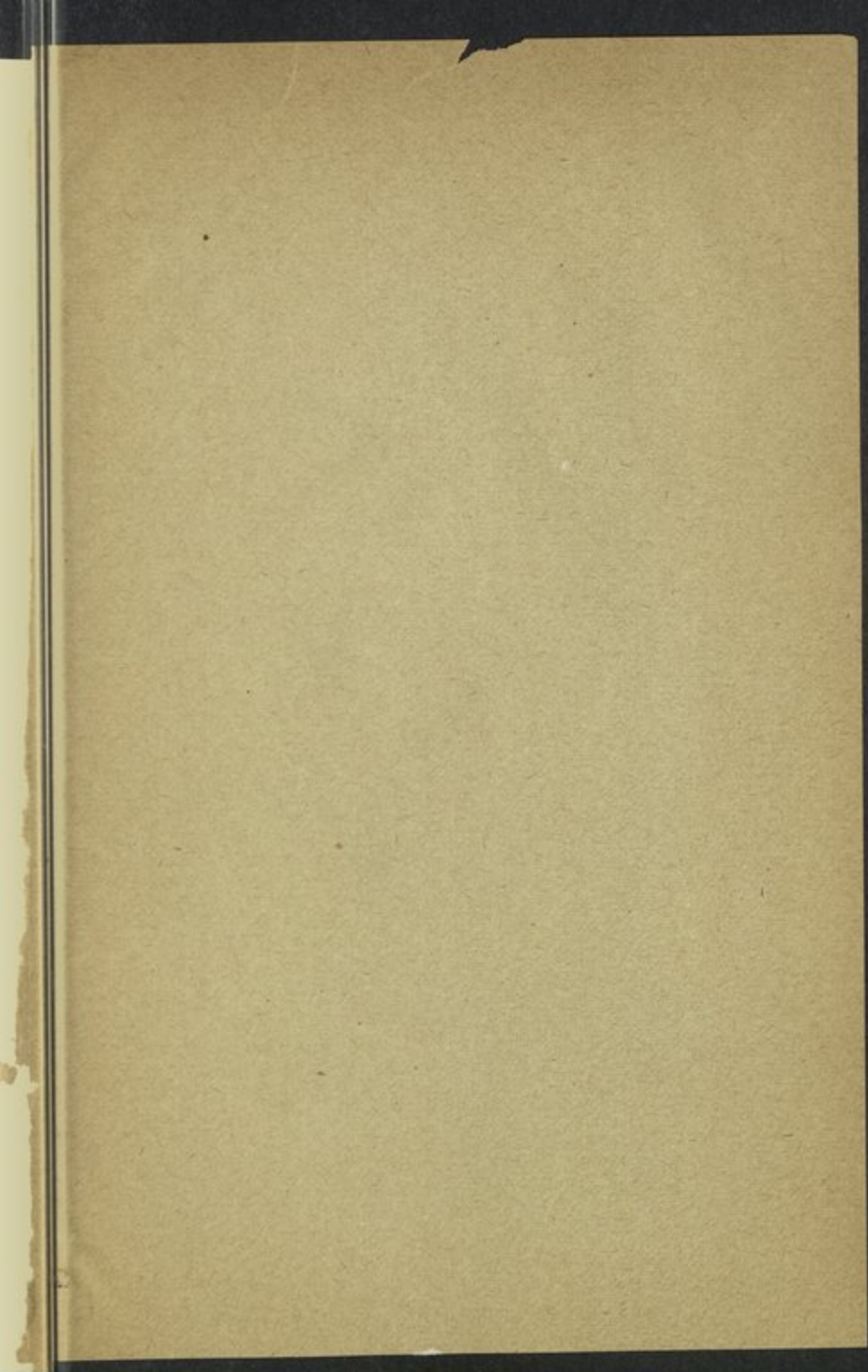
هذا بيت دوريان جرای یا سیدی .
 وتبادل الرجلان النظر وعبسا ثم انصرفا . وكان أحدهما السير هنرى أشتون .
 وفي داخل البيت كان الخدم المدعورون في ملابس النوم يتهايمسون
 وكانت المدبرة العجوز مسرليف تبكى وتعصر يديها عصراً . وكان فرانسيس
 شاحباً شحوب الأموات .

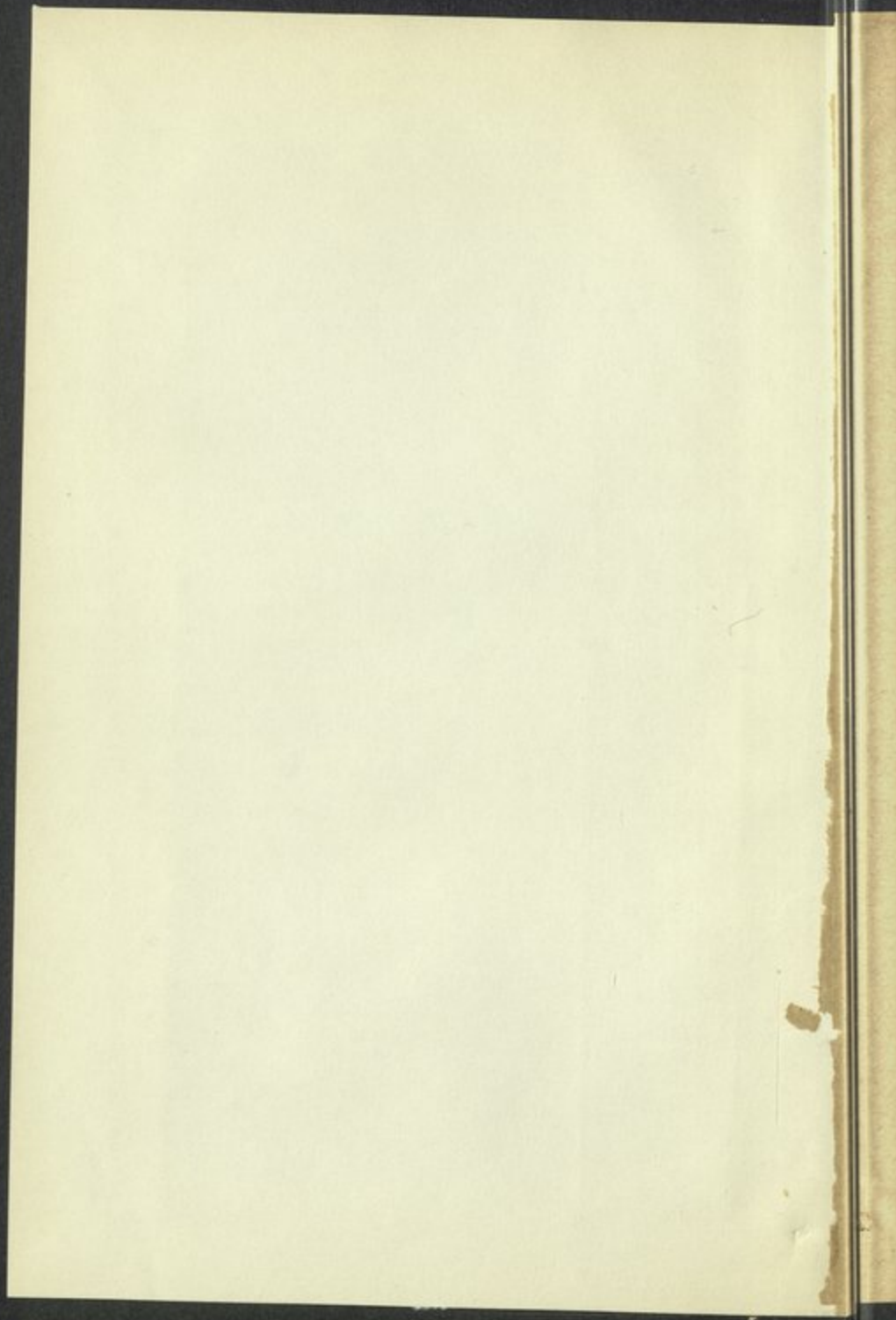
وبعد ربع ساعة خف الخوذى وأحد الخدم إلى فرانسيس وصعدوا جميعاً
 إلى الغرفة العليا بخطى واجفة . وطرقوا الباب فلم يجبهم مجيب . ونادوا على
 سيدهم فلم يجبهم مجيب . وحاولوا أن يقتحموا الغرفة عنوة ولكن الباب
 كان عنيداً ، فلما يؤسوا تسلقوا إلى السطح ومنه نزلوا إلى الشرفة ودفعوا
 النوافذ فلانت مزاييجها البالية .

ودخلوا الغرفة فشاهدوا على الحائط صورة رائعة لسيدهم ، وقد سجلت
 جماله الفذ وشبابه الناضر . وعلى الأرض شاهدوا رجلاً ميتاً في ثياب السهرة .
 وقد غارت في قلبه مديّة . وكان الرجل مغضن الوجه يابس البدن كره الملامح .
 ولم يتبينوا هويته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التي يلبسها .









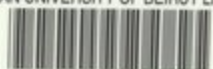
LIBRARY

DATE DUE



LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00511330

